التقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": ابراهيم الخياط

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 396
آذار: 2018

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:
alkhiatibrahim@gmail.com

اشتراك السنة 2000 :ريال يمني
(100) مائة دولار امريكي (50) خمسون دولار امريكي
.للاشتراك والاعلان

:للاشتراك والاعلان

:للتواصل

Althakafa Aljadida Magazine
Mansour Bank for Investment- Baghdad
Account No:30721
SWIFT CODE: MBIVIQBA

:البريد الالكتروني
thakafajadida@hotmail.com
:البريد الالكتروني
thakafajadida4u@gmail.com

:الموقع الالكتروني
http://www.althakafaaljadeda.com
.مجلة الثقافة الجديدة - مؤسسة المزدهر للطباعة والنشر والإعلان
.تصدر عن مؤسسة المزدهر للطباعة والنشر والإعلان
:رقم الايداع
:الترقيم الدولي

* تنشر المجلة الدراسات والبحوث والمقالات والقصص والشعر والترجمات والتقارير والحوارات والمراجعات الكتب والمتابعات الثقافية ... الخ
* تخضع المواد المنشورة للتحكيم من قبل هيئة التحرير
* يحق للمجلة نشر المواد المرسلة في أعدادها الورقية والالكترونية
* المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها
* المواد المرسلة لا ترد سواء نشرت أو لم تنشر
* المجلة غير ملزمة بنشر المواد في الأعداد التي تلي تاريخ استلامها
* المجلة غير ملزمة بإعادة المواد المرسلة إليها

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد
7- ملف الراحل الكبير الدكتور فالح عبد الجبار

مقالات

58- التجديد في الاشتراكية كضرورة تاريخية في شروط العصر ..... كريم مروة
63- المرأة والزواج"اقتصادات الزراعة" ..... عبد علي حسن الخفاف
72- الأسس المرجعية والوضعية للدولة المدنية مع إمكانية قيامها في العراق ..... حاكم محسن محمد الربيعي
82- الاحوال الشخصية بين القانون النافذ والإحكام الفقهية ..... حيان الخياط
92- اشارات وملاحظات في الهجرة واللجوء من العراق الى فنلندا ..... يوسف أبو الفوز

نصوص قديمة

102- 25 عاماً على استشهاد سلام عادل

نصوص مترجمة

114- حول ضرورة يوتوبيا ممكنة التحقيق كجزء من الماركسية بقلم: توماس ميتشر ..... ترجمة: رشيد غويلب

حوارات

122- حوار مع الدكتور فالح مهدي ..... أجرى الحوار: سعدون هليل

أدب وفـــــن

كلمة «أدب وفن»

128- سبحان الكلمة ..... ابراهيم الحريري

في الحدث الادبي والفني

129- مهرجان "الحبوبيّ" الخامس في الناصريّة ..... منذر عبد الحر
131- في بغداد.. ذبل الزيتون وغاب العطر النبيل ..... حفل تأبين الشاعر جمعة الحلفي

دراسات نقدية

136- التحليق البانورامي للذات أحادية واستلابا في (حماقة ماركيز) ..... د.نادية هناوي
148- الرجع البعيد ،بين تقنية الإيحاء وعملية التطهير ..... صباح هرمز

شعر

157- تعودُ سعيداً .. وتبكي ..... ابراهيم البهرزي

نص مسرحي

159- (البديل) ..... سالم الزيدي

متابعات

166- في الصحافة الثقافية العالمية ..... ترجمة : جودت جالي
181- مكتبة المجلة (غائبون في قصر الملك) لمصطفى محمد غريب.

لوحتا غلافي العدد : للفنان هاشم حنون

كلمة العدد

انتخابات 2018 ... تفاؤل الارادة و تشاؤم العقل !

يوم 12 آيار 2018 سيكون موعدا آخر لملايين العراقيين، لممارسة حقهم في اختيار ممثليهم الى البرلمان الجديد. ومن المؤكد ان الانتخابات البرلمانية القادمة تتمتع باهتمام كبير لجملة اسباب وعوامل من بينها:

• أولا: ستكون السنوات الأربع القادمة مقررة في رسم وصياغة شكل ومضمون وطبيعة الدولة العراقية حيث تدور معركة متعددة الصُعد حول ذلك.

ثانيا: ان مستقبل بلادنا وأحوال شعبنا سيعتمدان الى حد كبير على الحلول والمعالجات التي تقدمها برامج مختلف القوى والأحزاب والائتلافات التي تخوض الانتخابات وعلى قدرتها وكفاءتها وصدقيتها في الإيفاء بالتزاماتها ووعودها، في حال فوزها.

• ثالثا: محدودية ما تحقق من منجزات على مختلف الأصعدة خلال الدورة الحالية للبرلمان، والدورات التي سبقتها أيضا، مما يلقي على البرلمان القادم اعباء اضافية الى جانب الحالية:

فالمواطن لا تزال تحاصره الخدمات العامة المتردية، وعدم توفر السكن، والفساد المالي والإداري المستشري في مفاصل الدولة، وتفشي البطالة، خصوصاً بين الشباب والنساء، وتعاظم الفقر، والتمييز وعدم الإنصاف، وضعف الكفاءة وغيرها الكثير من المظاهر المصاحبة لنهج المحاصصة الطائفية/الاثنية.

- غياب الرؤى والستراتيجيات والسياسات الموحدة للدولة في مجالات التنمية والسياسة الاقتصادية والمالية.

- جميع هذه الإخفاقات باتت ترهق المواطن وتستنزف صبره وتشيع في نفسه الإحباط وتخلق حالة من السخط المتنامي، والتطلع الى التغيير.

• رابعا: الحراك الواسع وإعادة الاصطفاف التي شهدتها الحياة السياسية وإعلان العديد من القوى مغادرتها لمواقع الطائفية السياسية نحو الخطاب والمشروع الوطنيين، بغض النظر عن صدقيتها من عدمها، يؤشر إلى إقرار ضمني بهذا الاخفاق ومحاولة للنأي عن تحمل مسؤوليته رغم ان الحراك وإعادة الاصطفاف ما تزال غير نهائية بل وقابلة للتوقف او للارتداد في أية لحظة.

الاستعصاء السياسي المتكرر يعيد انتاج الأنساق السياسية القائمة

وعندما نتحدث عن الانتخابات القادمة وكيف ستكون مساراتها، علينا ان نتذكر ان المعلم المميّز للمشهد السياسي الراهن في بلادنا هو أنه تتنازعه حالات متكررة من الاستعصاء السياسي ناجمة بالأساس عن الصراع المحتدم بين القوى المتنفذة حول السلطة والثروة والنفوذ؛ وحول شكل ومحتوى الدولة العراقية الجديدة التي بدأت بالتشكل بعد 2003/4/9، مما جعل ويجعل من هذا المشهد مجالا مغلقا الى حد ما، يعيد انتاج نفس الأنساق السياسية القائمة.

ويعود الاستعصاء المتكرر، إلى جملة عوامل من بينها عاملين مهمين للغاية هما:

1. غياب الإرادة السياسية لدى القوى المتنفذة؛
2. غياب اعتماد مبدأ اقتسام السلطة على قاعدة الديمقراطية والمشاركة الحقيقية في صنع القرار، بعيدا عن نظام المحاصصات الذي يحدد الادوار سلفا وبـ "القسطاس".

"ديمقراطية" معطوبة أم حقيقية؟ هذا هو السؤال الاستراتيجي

لهذا فقد أعطت التطورات السياسية التي عرفتها البلاد منذ 2003/4/9، وعبر كل التجارب الانتخابية والاستشارية،

ديمقراطية ناقصة، مشوهة، مبتورة لأن طبيعة وبنية السلطة في العراق والتوازنات التي تحكمها تجعل منها غير قابلة للتداول بالمعنى الديمقراطي الصحيح، فالديمقراطية تقوم اساسا على فكرة المواطنة وليس على اساس الهويات الفرعية.
وهنا ونحن نتحدث عن الانتخابات مجددا، لا بد من التذكير بحقيقة أن البلاد واجهت منذ عام 2003 سؤالا استراتيجيا مهما ذي شقين:

- هل المطلوب **بناء "ديمقراطية" معطوبة** من خلال اعادة هيكلة الحقل السياسي ولكن من دون اجراء تغيرات جذرية فيه، أي الابقاء على نظام المحاصصة مع اجراء بعض الرتوش عليه ؟
- أم **بناء ديمقراطية حقيقية** تنطلق من تأسيس دولة المواطنة المتساوية، الدولة المدنية الديمقراطية العصرية ؟

هذه هي الاشكالية الكبرى التي يتعين التوقف عندها ونحن نتحدث عن الانتخابات ومعاركها المفتوحة في ظل الازمة التي تعيشها البلاد.
التحضيرات لهذه الانتخابات قد انطلقت، وحسب المفوضية العليا المستقلة للانتخابات فإن عدد المرشحين الكلي بلغ 6904، و 25 تحالفا و 63 كيانا انتخابياً، يتنافسون على 329 مقعداً برلمانياً. ولا نبالغ اذا قلنا ان معظم هذه التحالفات/الاحزاب تنقسم الى: طائفية و قومية و عشائرية وإن إدعت خلاف ذلك !
وفي اطار التحضيرات للانتخابات، شهدت الفترة الاخيرة حراكا متزايدا واصطفافات متواصلة واستقطابات افضت الى نشوء ائتلافات وكتل جديدة وإعادة بناء كتل سابقة وترميمها. غير ان حركة معظم التشكيلات الفعلية تبين ان العديد من الائتلافات التي تشكلت لم تتغير جذريا من حيث جوهر الاهداف والبنية الطائفية والقومية رغم بعض الاضافات والترقيعات.
تتيح الملاحظات السابقة بلورة جملة من الدروس والخلاصات من بينها وأهمها أن مشروع الدولة الحديثة، المدنية الديمقراطية العصرية، لا يزال مطروحا للتنفيذ باعتباره المخرج الوحيد، الممكن والمقبول، من الأزمة البنيوية الراهنة التي تواجهها بلادنا. فقد دلّلت تجربة السنوات الماضية انه لا وجود لوحدة وطنية حقيقية وثابتة خارج مشروع هذه الدولة.

لا فكاك من نظام المحاصصة إلا ببديل عابر للطوائف يكسر احتكار السلطة

وبينت تجربة السنوات الخمسة عشرة الماضية انه لا فكاك من أزمة نظام المحاصصة الطائفية والاثنية إلاّ بتغيير ميزان القوى السياسي في المجتمع، لصالح **بناء نظام عابر للطوائف** وخنادقها المتقابلة، الذي سيخلق الشروط لإقامة الدولة المدنية الديمقراطية العصرية على اساس المواطنة والحريات والعدالة الاجتماعية. فالكتل السياسية النافذة التي تتقاسم السلطة والمغانم، لا مصلحة موضوعية لها في انهاء نظام المحاصصة أو الشروع بالخروج منه، رغم معرفتها بمساوئه وانتقادها العلني له نهارا وتتوافق على ترسيخه ليلا.
وطبيعي ان تحقيق هذا البديل يحتاج الى أفق أوسع والى قوى جديدة وتحالفات واسعة تكون قادرة على كسر الاستقطاب الطائفي/المحاصصي/الاثني الذي اصبح عائقا امام بناء الدولة المدنية الديمقراطية العصرية، واحداث تغيير حقيقي في تناسبات القوى الفعلي.
عند صدور هذا العدد، 396، ستكون ماكنة الحملة الانتخابية قد انطلقت وستستمر لمدة شهر واحد، وفي 2018/5/12 ستجري الانتخابات البرلمانية، وبعد ان تضع اوزارها سيتبين عندها "الخيط الابيض" من "الخيط الأسود" وسنكون حينها عند مشهد جديد فيه "فائزون كبار" و "خاسرون كبار". وربما ستفرز صناديق الاقتراع واقعا جديدا سترتسم ملامحه، ومن المؤكد أن صورته النهائية سيعكسها الاتفاق على تقاسم السلطة بين الفائزين في هذه الانتخابات، علما أن هذا الاتفاق لن يكون سهلا بل معقدا وسيشهد لحظات استعصاء قد تطول أو تقصر. وسيكون بحاجة الى اكثر من " قابلة مأذونة"، محلية واقليمية ودولية، كي يرى النور.
ولابد من التنويه ايضا الى انه وبغض النظر عن ما ستتمخض عنه جولة انتخابات 2018 ، **فإنه لا "الكبار" سيقبلون اختزال دور طالما امتلكوه ولا "الصغار" سيستسلمون للدخول في مرحلة الموت السريري**، لذا فإن **معركة** "الفائزين الكبار" **ستكون في قادمات الأيام هي الأشد**. وبالمقابل فانه وفي إطار عدم تحقيق نصر انتخابي "جارف" **يمكن توقع تحالفات ميدانية بين خصوم الأمس**.
ويحدونا الامل بان تتوج جهود القوى المدنية والوطنية والديمقراطية، باختلاف قوائمها وائتلافاتها وشخوصها، بتحقيق نتائج تليق بتاريخها وحاضرها، في دفاعها الثابت عن قيم الحرية والكرامة ومكافحة الفساد وتحقيق العدالة الاجتماعية والديمقرطية وبناء دولة المواطنة المتساوية. كما نتطلع الى مشاركة نشيطة للنخب الثقافية

ملف الراحل الكبير الدكتور
فالح عبد الجبار

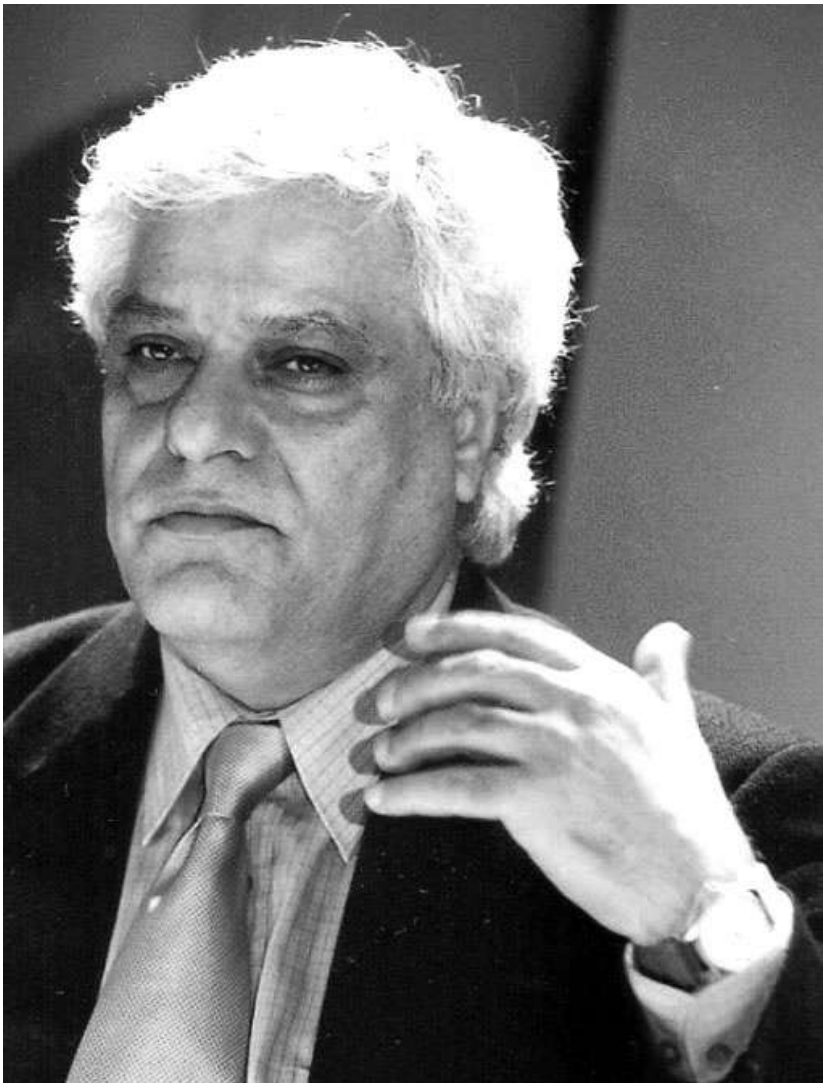

ملف الراحل الكبير الدكتور فالح عبد الجبار

ولد د.فالح عبد الجبار في بغداد عام 1946، وفي شبابه خلال منتصف سبعينات القرن الماضي، عمل في جريدة "طريق الشعب" محرراً في قسم الأخبار الدولية، ثم سكرتير قسم الشؤون العربية والدولية، ولاحقاً سكرتيرا للتحرير. غادر عبد الجبار العراق في بداية عام 1979 الى براغ، بعد الحملة الشرسة التي قامت بها أجهزة السلطة الدكتاتورية لتصفية كوادر الحزب الشيوعي العراقي. ثم انتقل إلى بيروت، ومنها التحق بصفوف حركة الأنصار التابعة للحزب، حيث ناضل في جبال وسهول ووديان كوردستان بسلاحه وكلماته وصوته.

وفي اواسط الثمانينات، غادر الفقيد كردستان متنقلا في عدد من المحطات منها (سوريا، لبنان والمانيا)، وفي مطلع التسعينات استقر في العاصمة البريطانية لندن، حيث نال شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع من كلية بيركبك بجامعة لندن في العام 1999.

وشغل الراحل العديد من المواقع الأكاديمية المهمة، كان آخرها مدير معهد الدراسات العراقية في بيروت، وعمل سابقا محاضرا في جامعة (London Metropolitan University) ، كما قاد مجموعة بحث المنتدى الثقافي العراقي في كلية بيركبيك التابعة لجامعة لندن منذ عام 1994، وزميل باحث في جامعة أكستر.

كما عمل مديرا للبحث والنشر في مركز الدراسات الاجتماعية للعالم العربي، ومقرها في نيقوسيا وبيروت للفترة بين عامي 1983-1990.

وأخيراً، كان يترأس د. فالح عبد الجبار معهد الدراسات العراقية في بيروت، حتى وفاته المفاجئة في 26 شباط 2018.

تخصص الدكتور فالح بدراسة الفكر السياسي والاجتماعي في الشرق الأوسط، وتتناول أعماله: الدين، دور القانون، الصراع الديني والمجتمع المدني.

واجتهد في نشاطه البحثي والعلمي، وصدرت له مؤلفات عديدة، وترجمات لمؤلفات مهمة.. وابرز اعماله باللغة العربية:

الدولة والمجتمع المدني في العراق، الديمقراطية المستحيلة والديمقراطية الممكنة - حالة العراق، معالم العقلانية والخرافة في الفكر السياسي العربي، المادية والفكر الديني المعاصر، بنية الوعي الديني والتطور الرأسمالي (أبحاث أولية)، فرضيات حول الاشتراكية، المقدمات الكلاسيكية لنظرية الاغتراب، العمامة والأفندي: سوسيولوجيا خطاب وحركات الاحتجاج الديني، الحركات الشيعية في العراق، القبيلة والدولة، الدين والإثنية والتوجهات الايديولوجية في العراق (من الصراع إلى التكامل)، القومية: مرض ام خلاصة؟ في الاحوال والأهوال، المنابع الاجتماعية للعنف، ما بعد ماركس؟ التوتاليتارية. وآخر نتاجاته في عام 2017: دولة الخلافة: التقدم إلى الماضي

("داعش" والمجتمع المحلي في العراق)، كتاب الدولة.. اللوثيان الجديد، الاستلاب - هوبز لوك روسو هيغل فويرباخ ماركس، حركة الاحتجاج والمساءلة – نهاية الامتثال بداية المساءلة (بالاشتراك مع د.سعد عبد الرزاق).

وله من الترجمات: توماس سنتش: الاقتصاد السياسي للتخلف، موجز رأس المال، رأس المال، نتائج عملية الإنتاج المباشرة، ما العولمة: الاقتصاد العالمي وإمكانيات التحكم، الاستشراق والاسلام (ترجمة وإعداد)، غوتة - رحلة ايطالية 1786-1788.

ومن أشهر ترجماته هو مؤلف رأس المال الضخم، الذي عكف الدكتور فالح على ترجمته عن الألمانية طيلة 10 سنوات، حتى صدر في العام 2015.

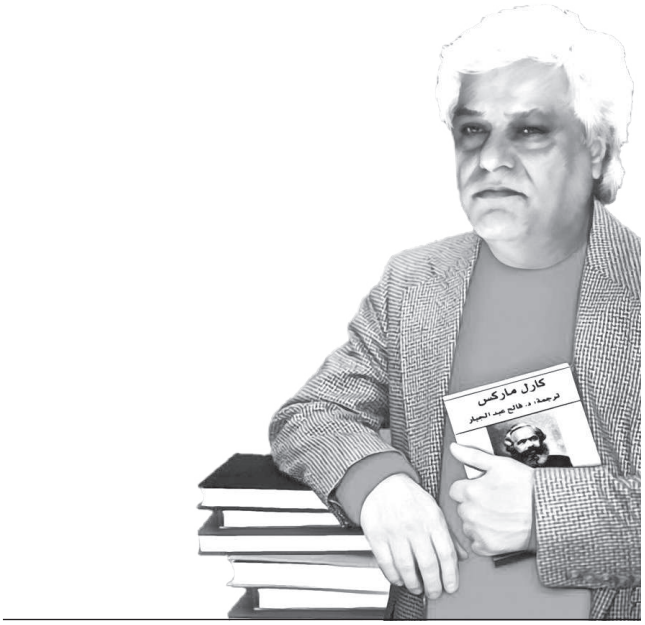

وللفقيد أيضاً، مؤلفات صدرت باللغة الإنكليزية، ومن أهمها:

"Ayatollahs, Sufis and Ideologues : State, Religion and Social Movements in Iraq"

"Tribes and Power: Nationalism and Ethnicity in the Middle East"

وهذا الكتاب اشترك في تأليفه الكاتب هشام داود

"The Shi'ite Movement in Iraq"

مجلة "الثقافة الجديدة"
الدكتور فالح عبد الجبار.. وداعا !

مرة اخرى وعام جديد أبى إلا ان يفتتح مواسمه بأخبار محزنة.

ففي فجر السادس والعشرين من شباط (الشهر المشؤوم)/ 2018 غادرنا في رحلته الأبدية المفكر وعالم الاجتماع والشخصية السياسية والأكاديمية المرموقة الدكتور فالح عبد الجبار، إثر ''جلطة قلبية''. هكذا إذن رحل بُغتة وهو في اوج نضجه الفكري وعطائه المعرفي يخوض معاركه من اجل التغيير والحداثة. لذا فان هذا الرحيل المبكر يشكل خسارة كبيرة للثقافة الوطنية والديمقراطية العراقية، ولنا نحن اصدقاءه وقراءه وأحبته الكثر.

ظل د. فالح عبد الجبار منذ عدة عقود يخوض معاركه الفكرية والبحثية دون كلل ولم يتعب من التفكير والاجتهاد في كل الميادين والمواضيع التي اشتغل عليها. وقد أدرك د. فالح، ومنذ وقت طويل،'' أن الثقافة بُعدٌ من أبعاد السلطة، وأن للمثقف، بوصفه حاملاً ومنتجاً للمعرفة، دوراً يلعبه في عملية التغيير، لكنه أدرك، في الوقت نفسه، أن النضال الثقافي وحده لن يحقق التغيير''، وهكذا افتتح الفقيد مسيرته الثقافية والفكرية والنضالية الوطنية في احضان الحزب الشيوعي العراقي.

لقد عرفنا نحن في مجلة (الثقافة الجديدة) الراحل الكبير د. فالح عبد الجبار، سواء في عمله في تحرير المجلة أو في كتاباته الثرّة التي كانت ينشرها في المجلة وفي أماكن اخرى، مفكرا أصيلا يعرف صنعته جيدا فلا يرتكن الى ''المسلمات'' والأجوبة الجاهزة، بل كان على الدوام - كمفكر وباحث وعالم اجتماع مرموق - يعيش قلق الأفكار ويطرح الأسئلة، باحثا عن المزيد من المعرفة. وكانت لعادة البحث الدائمة عند د. فالح لاكتشاف مناطق جديدة من المعرفة، في مختلف الحقول التي مرّ عليها، ودفاعه عن الفكر الحر النقدي، بعيدا عن الوصفات الجاهزة، أن قدم مساهمات نظرية جدية في الفكر والسياسة وعلم الاجتماع.. الخ. وقد ظلت تلك الأطروحات تثير المزيد من الحوار والنقد الاختلاف أيضا، لجديتها وأهميتها، لهذا يتعين وضعها في إطارها الصحيح. وبرحيله ينكس البحث العلمي الاصيل قامته، وبفقده نودع وبغصة عميقة في قلوبنا احد النجوم الكبيرة التي تلألأت لعقود في سماء السياسة والفكر والعلوم الاجتماعية، نودع مفكرا أصيلا وعالما كبيرا وباحثا جادا كان يمتلك الكثير من عمق المعرفة وجدية الأدوات المنهجية والتحليلية.

ان حياة الدكتور فالح، على امتدادها الواسع، كانت حافلة بالعطاء في العديد من ميادين المعرفة المختلفة، درسا كبيرا لأجيال عديدة

من اصدقائه وأحبته وتلامذته، وعزاؤنا ان الفقيد الكبير ترك لهؤلاء، وغيرهم أيضا، إرثا طيبا من المنجز البحثي والمعرفي، ومن المواقف الأصيلة والذكريات الطيبة والسلوك الإنساني الرفيع والروح الشفيفة سيظل يتحدث عنه، ويذكر به، ويبقيه حياً دائم الحضور بيننا. فقد كان باحثا ماهرا يعرف صنعته جيدا بما قدمه من إبداع أصيل ومنجز بحثي مهم، سيظل محفورا في الذاكرة الجمعية. ورغم رحيله المبكر والمفاجئ سيظل فالح يشاركننا جلساتنا وصخبنا وأحلامنا وآمالنا واختلافاتنا حول الطرق الجديدة غير المطروقة... فالاختلاف كالحراثة في الأرض، تجرحها سكة المحراث ولكنها تمنحها العافية والغلال.

فالح... نحن أحبتك ورفاقك وأصدقاءك، في رحيلك الأبدي نضع باقة وردة حمراء على مكتبك، وفي هذه اللحظات نودعك وداع المحبين الخلّص، ونضع على قبرك باقة ورد ندية مثلك، نقية كنقاء قلبك العليل، لن نراك بعد اليوم جسدا، لكنك ستعيش معنا في كل لقاء وفي مختلف المواقع، أو في جلسات سمر، تحولها كعادتك الى مساحة حوار فسيح حول قضية جادة، مثيرا جدالا لا ينتهي حتى حول أبسط التفاصيل.

لن ننساك يا "أبا خالد" لأنّ الورد يظلّ يعبق برائحة الحياة ولا يشيخ.

وما عسانا ان نقول الآن سوى: فالح.. لقد خسر معك الموت لعبة المفاجأة.. ولكنك باق أنت بين أجمل مثقفي العراق الديمقراطي لا عراق الحروب والقيامات ومتاريس المتحاربين والمتحاصصين في ان.

(الثقافة الجديدة) وهي تودع د. فالح عبد الجبار، تعزي زوجته الرفيقة د. فاطمة المحسن وأبناءه وأسرته وجميع اهله ورفاقه وقرائه ومحبيه، مثلما تعزي نفسها بهذا المصاب الكبير، راجية للجميع الصبر والسلوان.

الذكر الطيب دوما للفقيد الكبير د. فالح عبد الجبار !

وداعاً أبا خالد! فبعدك لن يكتمل النصاب.

(الثقافة الجديدة)

2018/ 2/ 26

نعي المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي
المفكر فالح عبد الجبار.. وداعا!

ينعى الحزب الشيوعي العراقي، بأسى وأسف عميقين، الشخصية الوطنية المرموقة، المفكر والباحث اللامع الدكتور فالح عبد الجبار، الذي توفي هذا اليوم على غير انتظار في العاصمة اللبنانية بيروت.

كان الفقيد علما من اعلام الفكر والثقافة العراقيين والعربيين التقدميين المعاصرين، وواحدا من مشاعلهما المتوهجة، يضج بالحيوية والنشاط، ولا يكف عن الغور في حياة مجتمعنا وسبر اعماقها، باحثا عن مخارج لمآزقها وحلول لأزماتها، وكاشفا بتواضع العالم عن الجديد دائما في هذه الميادين، وبما يقدم عونا ثمينا للساعين الى معالجة معضلاتها، والى خير الناس ورقي البلاد.

وليس سرا ان الفقيد افتتح مسيرته الثقافية والفكرية والنضالية الوطنية في احضان الحزب الشيوعي العراقي، وبدعم منه غير محدود ولا منقطع. وفي ذلك ما يفسر اسباب بقائه قريبا من الحزب على الدوام، بل ولصيقا به حتى آخر ايامه.

لقد صدمنا الرحيل المفاجئ والمحزن لأبي خالد، وصدم معنا الكثيرين من عارفيه ومقدري علمه ومعرفته الثرّة، وإنجازه الفكري والثقافي الغزير والرفيع، ومتابعي نشاطه المدني الوطني الديمقراطي والاجتماعي التقدمي الدائب، واخلاصه لقضية وطنه وشعبه وحرصه عليهما، وعلى سلامتهما وحريتهما وكرامتهما ومستقبلهما.

كبيرة هي خسارتنا وخسارة بلادنا برحيل الاستاذ فالح عبد الجبار!

تعازينا الحارة الى ابنائه وأسرته جميعا، والى سائر رفاقه وزملائه وأصدقائه وتلاميذه ومحبيه الكثيرين جدا.

ستبقى ذكراه مضيئة في قلوبنا، ويبقى الإرث الفكري والثقافي التقدمي الذي تركه لنا يسهم في انارة عقولنا، ويبقى عنفوانه الذهني محفزا لتفكيرنا وتطلعنا الى غد عراقي لا ريب فيه، واعد وصاعد على الدوام.

المكتب السياسي
للحزب الشيوعي العراقي
2018/ 2/ 26

كلمة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي في حفل تأبين الفقيد فالح عبد الجبار*

الأصدقاء والرفاق.. الضيوف الأعزاء:
نعزيكم وعائلة فقيدنا الكبير وأنفسنا، وكل شغيلة الفكر والمثقفين، وسائر الوطنيين ومحبي الحياة .. نعزيكم باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي.
نلتقي هنا في يوم حزين.. يوم فقدان وأسىً.. لنودع رفيقاً وصديقاً ومعلّماً، شكل رحيله الصادم خسارة فادحة.
نلتقي هنا لنمجد المثقف الوطني والثوري، والباحث الألمعي، والعالم الجليل الدكتور فالح عبد الجبار.
في باب الشيخ ببغداد، وفي العام 1946، أبصر النور وليدٌ قدّر له أن يكون شاباً متمرداً، متحدياً الظلام وثقافته السائدة، ومختاراً، غير هيّاب، طريق الكفاح تحت أسمى راية.. راية حزب الشيوعيين العراقيين.. نصيراً مقداماً في مقارعة الدكتاتورية، وصحفياً وكاتباً بارعاً، وعالم اجتماع مرموقاً، وثورياً ينهل من ينابيع وتيارات الاطاحة بعالم رأس المال واقامة العدالة على الأرض.. إنساناً ظلت يده، حتى لحظات حياته الأخيرة، متشابكة مع أيادينا، نحن الشيوعيين، وهي تمسك بمشعل التنوير والتغيير.
فالح عبد الجبار.. أيها العارف بأزمنتنا.. الواهب دروبنا أغنية لمّا تكتمل.. القائل قولاً جميلاً في زمن غابت فيه الكلمات النيّرة، وساد فيه الابتذال، وخيّم فيه الدجى..
أيها المضيء مسالك حياتنا الوعرة ومنعطفاتها الشاقة.. العابر جسور التحدي، وزناد عقلك يقدح أسئلة حارقة حول مصائرنا ومستقبل البلاد..
أنت الذي رأيت.. وكنت عميقاً في رؤيتك.. سرت معنا، وأنت عارف أيّ حزن يبعث هذا المسير..
وفي كل تلك الصفحات المضيئة كنت واثقاً من أن سماء أخرى ستزيح غيوم هذه البلاد، وتأتي بمطر طالما انتظرناه.. تلك الصفحات التي ابتدأت يوم كنت في عنفوان شبابك، فاخترت طريق اليسار، وانتميت الى الحزب الشيوعي.. كنت في "طريق الشعب"، وفي اعلام الحزب صحفياً جديراً بمهنتك.. وفي ذرى جبال كردستان نصيراً باسلاً.. وفي "الثقافة الجديدة" محرراً دؤوباً.. وفي رابطة الكتاب والصحفيين والفنانين الديمقراطيين العراقيين مؤسساً مثابراً.. وفي لندن أستاذاً في كلية بيركبيك العريقة وفي كليات وجامعات بريطانية أخرى.. وفي بيروت مؤسساً ومديراً لمركز الدراسات العراقية.. وفي كل المواقع، وما أكثرها، كنت متميزاً.. دؤوباً في البحث والتأليف.. من ثورة القرنفل في البرتغال حتى الديمقراطية المستحيلة

في العراق.. ومن (دولة الخلافة...) حتى (منظومة العشائر ...). وبين إنجاز وإنجاز بقيت ولّاداً لفكر ثاقب ظل يسبر أغوار الحقيقة عن مجتمعنا وأزماته والخروج من أنفاقه.. أية مسيرة ملهمة، من العمامة والأفندي حتى رأس المال!

في تأمل الواقع والآفاق كنت تلاحق الظواهر الجديدة بفكر جدلي، وأنت تسير بعنفوان شاب يسابق الحياة.. وأثناء كل ذلك كنت تجد الوقت للصداقات والحوارات.

فالح عبد الجبار، يدك ستظل تحمل مشعل التنوير، ونحن نمضي معاً، بخطى واثقة، في دروب الأمل، صوب تلك الأيام التي حدثتنا صفحاتك المنيرة عنها.

فالح عبد الجبار، نحن الشيوعيين نعلم أن مجداً يليق بك.. وقد أخبرتنا البصائر والقلوب أن ذكراك ستبقى حية تلهم أجيالاً من الثائرين، وهم يمضون بحلمك المؤجل نحو تلك الضفاف.. ضفاف غد العراق الوضاء.. عراق فالح عبد الجبار.

*** ألقاها الرفيق رضا الظاهر عضو اللجنة المركزية للحزب**

نعي المكتب السياسي للحزب الشيوعي الكردستاني - العراق

ينعى المكتب السياسي للحزب الشيوعي الكردستاني رفيقا عزيزا ومبدعا ومفكرا كبيرا وصديقا وفيا لشعبنا الكردستاني، فالح عبد الجبار، الذي وافته المنية صباح هذا اليوم في بيروت، إثر نوبة قلبية. يعتبر فالح عبد الجبار من المفكرين الماركسيين الذين كتبوا في مجال علم الاجتماع والسياسة والاقتصاد، وقد أغنى المكتبة الاشتراكية عبر دراساته العميقة المتسمة بالبعد النظري بالارتباط مع واقع المنطقة سواء في العراق وكوردستان والشرق الاوسط عموما، مركزا على الخصوصيات التاريخية لهذه المنطقة وخلفيات تطور الظواهر الاجتماعية فيها، وما يتعلق بمفاهيم الاثنية والقومية والدولة، والاسلام السياسي، اضافة الى اسهاماته العميقة من خلال عرض فرضياته عن الاشتراكية في زمن انهيار الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية، باعثا الامل كغيره من المفكرين الماركسيين الثوريين بضرورة دراسة التجربة وتقيمها، ومؤكدا أن الرأسمالية ليست نهاية المطاف، واضاف الى المكتبة الماركسية ترجمته الغنية والدقيقة لمؤلف (رأس المال) لكارل ماركس.

اضافة الى مساهماته في ميادين الصحافة في بداية السبعينات في بغداد، شارك فالح عبد الجبار في صفوف بيشمركة الحزب الشيوعي في جبال كوردستان مناضلا ضد الديكتاتورية، وكرر موقفه المبدئي من حق شعبنا الكردستاني في تقرير مصيره، في المساهمة الفكرية التي عقدت بداية شهر ايلول 2017 في السليمانية في الندوة المقامة بمناسبة الاستفتاء في كوردستان، وذلك في دراسته حول بناء الامة وبناء الدولة، حيث طرح بشكل اكاديمي وجهة نظره، مبينا في مناقشاته الاخيرة حول هذا الموضوع بانه سيكون ــ ومهما كانت النتائج ــ مقاتلا في الجبهة الامامية مع البيشمركة دفاعا عن كوردستان.

لك المجد ايها الرفيق العزيز، ولرفاقك واصدقائك وعائلتك العزة والفخر.

المكتب السياسي
الحزب الشيوعي الكوردستاني ـ العراق
26 شباط 2017

تعزية رئيس الجمهورية د. فؤاد معصوم

بعث سيادة رئيس الجمهورية الدكتور فؤاد معصوم رسالة تعزية يوم الاثنين 26 /2 /2018، الى عائلة المغفور له، عالم الاجتماع والشخصية الوطنية الدكتور فالح عبد الجبار. وفي ما يأتي نص الرسالة:

الى السيدة فاطمة المحسن وعائلة الفقيد المغفور له، عالم الاجتماع الدكتور فالح عبد الجبار المحترمين،

تلقينا بحزن عميق نبأ رحيل الشخصية الوطنية والباحث وعالم الاجتماع المرموق الدكتور فالح عبد الجبار.

واذ ننظر باعتزاز الى مسيرته المديدة في العمل السياسي والفكري، وإلى انجازاته القيمة متجسدة في كتاباته السياسية والاجتماعية خلال فترة هامة من تاريخ العراق المعاصر، ودأبه على نشر وترجمة العديد من النصوص والدراسات الفكرية المتميزة، فاننا نتقدم بأحر مشاعر العزاء لكم وكل العائلة الكريمة ومحبي الراحل وعارفي مكانته، سائلين المولى القدير أن يتغمده برحمته الواسعة، وأن يلهم عائلته الصبر والسلوان.

مواساة وزير التعليم العالي

نعزي الوسط الأكاديمي والثقافي برحيل المفكر العراقي الدكتور فالح عبد الجبار الذي سطر علما ومصنفات مهمة في المتن الاجتماعي والسياسي.

ونعرب عن مواساتنا الحارة لمحبيه وأسرته بهذا المصاب، ونسأل الله أن يلهم ذويه وافر الصبر وحسن العزاء.

إنا لله وإنا إليه راجعون

الدكتور عبد الرزاق العيسى
وزير التعليم العالي والبحث العلمي

نعي وزير الثقافة

تلقينا ببالغ الحزن والأسى نبأ وفاة المفكر العراقي الكبير فالح عبد الجبار الذي حفلت مسيرته العلمية والثقافية بالتألق والإبداع، حيث ترك لنا ارثا زاخرا بأبحاثه الخاصة بدراسة الفكر السياسي والاجتماعي في الشرق الأوسط، من خلال أعماله التي تناولت، الدين، دور القانون، الصراع الديني والمجتمع المدني وغيرها الكثير. وبرحيله خسر الوسط الثقافي احد عمالقته الكبار ولكنه سيبقى خالدا بيننا بأعماله وإبداعه.

أنا لله وأنا إليه راجعون. العزاء لأسرة العالم الكبير وللوسط الثقافي، داعياً الله أن يتغمده برحمته الواسعة ويدخله فسيح جناته ويلهم أهله الصبر والسلوان.

فرياد رواندوزي
وزير الثقافة والسياحة

الديمقراطي الكردستاني يواسي

عزى المكتب السياسي للحزب الديمقراطي الكردستاني، بوفاة عالم الاجتماع الدكتور فالح عبدالجبار، عبر برقية جاء في نصها:

الى عائلة المغفور له بإذن الله، عالم الاجتماع والمفكر العراقي الكبير المرحوم فالح عبدالجبار

بقلوب حزينة تلقينا خبر وفاة المفكر وعالم الاجتماع العراقي فالح عبدالجبار عن عمر يناهز 72 عاما، اثر وعكة صحية مفاجئة. ونحن اذ نعزي أنفسنا برحيل علم جديد من أعلام الفكر والثقافة الانسانية وصديق وفي للشعب الكوردي المناضل، ندعو من الله عز وجل أن يرحم فقيدنا ويرزقه جنة الرضوان ويلهم أهله وذويه الصبر والسلوان...

المكتب السياسي
للحزب الديمقراطي الكوردستاني

تعزية الاشتراكي اليمني

عزى الامين العام للحزب الاشتراكي اليمني الدكتور عبد الرحمن عمر السقاف بوفاة عالم الاجتماع العراقي والمفكر الماركسي فالح عبد الجبار الذي وافته المنية امس الاثنين.
وبعث الأمين العام للحزب الاشتراكي اليمني برقية عزاء ومواساة إلى أسرة فالح عبدالجبار، وفيما يأتي نص البرقية:
الأعزاء أسرة الفقيد فالح عبدالجبار
اسمحوا لي أن أتقدم إليكم بخالص العزاء والمواساة برحيل المفكر وعالم الاجتماع فالح عبدالجبار.
ونحن إذ نعزيكم وأنفسنا بهذا المصاب الأليم فإننا على ثقة ويقين بأن فكر ونضال الفقيد سيظل مشعلا متقدا ينير طريق المناضلين التقدميين والباحثين عن المعرفة العلمية والمتطلعين إلى العدل الاجتماعي والعيش المشترك في العالم العربي.
الرحمة والخلود للفقيد .

د. عبد الرحمن عمر السقاف
الأمين العام للحزب الاشتراكي اليمني
الثلاثاء 27 فبراير 2018م

تعزية اللجنة التنفيذية لرابطة الأنصار الشيوعيين العراقيين

في وقت نحن احوج به إليك... ترحل عنا تاركا غصة لا يمكن ان تزول
بمزيد من الحزن والاسى تلقينا اليوم 26 شباط 2018 نبأ وفاة رفيقنا النصير فالح عبد الجبار (أبو خالد) إثر حالة صحية مفاجئة لم تمهله طويلا. كان الفقيد احد مقاتلي قوات انصار الحزب الشيوعي العراقي ضد النظام الدكتاتوري الصدامي الفاشي في جبال ووديان منطقة كردستان، واعلاميا مفكرا ترك اثرا مهما في حركة الثقافة العراقية، كان الفقيد مثالا يحتذى به في اخلاصه لمبادئه وحبه للوطن.
تتقدم اللجنة التنفيذية لرابطة الأنصار الشيوعيين بخالص تعازيها القلبية لعائلة الفقيد وزوجته الرفيقة فاطمة المحسن وأبنائه وكل رفاقه ومحبيه بهذه الفاجعة الأليمة.
ارقد بسلام رفيقنا فالح عبد الجبار ..... لك المجد والخلود
اللجنة التنفيذية لرابطة الأنصار الشيوعيين العراقيين

أربيل في 26 شباط 2018

تعزية الاتحاد الديمقراطي العراقي في الولايات المتحدة

رحيل المفكر العراقي الدكتور فالح عبد الجبار
بمزيد من الحزن والأسى تلقت زميلات وزملاء الاتحاد الديمقراطي العراقي نبأ رحيل عالم الاجتماع العراقي فالح عبد الجبار، إثر اصابته بأزمة قلبية اثناء تسجيل برنامج تلفزيوني في العاصمة اللبنانية بيروت هذا اليوم.
وكان الدكتور فالح عبد الجبار قد زار زميلات وزملاء الاتحاد الديمقراطي العراقي في الولايات المتحدة الامريكية مرات عديدة، واقام له الاتحاد العديد من الندوات والمشاركات الثقافية على مدى سنوات عديدة.
وشارك الفقيد العزيز مع زملاء الاتحاد الديمقراطي العراقي بعدة مؤتمرات لدعم الديمقراطية في العراقي في مشيكان وواشنطن قبل التغيير.
الذكر الطيب الدائم للفقيد العزيز الدكتور فالح عبد الجبار، والصبر والسلوان لأهله ومحبيه.

تعزية تيار الحكمة الوطني

عزى تيار الحكمة الوطني بوفاة الباحث والمثقف العراقي المعروف {الاستاذ فالح عبد الجبار} إثر أزمة صحية حادة المت به.
المتحدث الرسمي لتيار الحكمة الوطني نوفل أبورغيف، قال في بيان صحافي "بمشاعر الحزن والأسف، تلقينا نبأ وفاة الباحث والمثقف العراقي المعروف فالح عبد الجبار، إثر أزمة صحية حادة، بعد رحلة طويلة قدم فيها نتاجاتٍ ثقافيةً وبحثيةً معروفةً طيلة مشواره الثقافي والمعرفي في الداخل والخارج قبل وبعد زوال الدكتاتور".
ان "الراحل الكريم ترك تراثاً مميزاً في الثقافة والقانون والديمقراطية والفكر الحديث، أضاف إلى المكتبة العربية حضوراً وأثراً شاخصين".
وتابع "بهذه المناسبة الحزينة نتقدم بأحر التعازي والمواساة الى الوسط الثقافي والفكري في العراق، وإلى أسرة الراحل وذويه، راجين لهم الصبر والسلوان".

شهادات وكتابات

خسارة لا تعوض

عبدالرزاق الصافي

نزل خبر رحيل الرفيق فالح عبدالجبار نزول الصاعقة على جمهرة أصدقائه ومحبيه ورفاقه، نظراً للمكانة التي يحتلها في قلوبهم، ولما كانوا ينتظرون ان يتم على يديه من انجازات ثقافية وفكرية في مجال علم الاجتماع. فقد كان في عز نشاطه العلمي والنضالي.

لقد بدأت مسيرة الفقيد في طريق الشعب منذ صدورها في 16 أيلول 1973 حتى إغلاقها في أيار 1979. فقد كان أحد ألمع محرريها.

وحين اضطر الحزب الشيوعي الى الانتقال الى المعارضة، إثر الحملة الوحشية التي شنها حكم البعث الفاشي المقبور في العام 1978 وما بعده. واللجوء الى الكفاح المسلح، لم يتخلف عن الالتحاق بفصائل الانصار الشيوعيين، وانخرط في صفوف الاعلام الحزبي في جبال كردستان ولم يكتف بالإسهام فيه بفعالية كبيرة، وانما شفع ذلك بنشاط علمي مرموق في مناقشة طروحات الاسلام السياسي اللاديمقراطية. وواصل ذلك في ما بعد، عند توقف الحركة الانصارية. وانتقل الى بريطانيا حيث كرس وقته لمواصلة نشاطه العلمي ودراسته الاكاديمية. وحصل على شهادة الدكتوراه بجدارة عالية أهلته لأن يكون أحد أنشط العاملين في مجالات الدراسات العليا في علم الاجتماع. واصبح قطباً مرموقاً فيه. وأغنى المكتبة العربية والانكليزية بالعديد من المؤلفات التي كتبها منفرداً او الندوات والدراسات التي شارك في اقامتها مع العديد من الكوادر العلمية المرموقة من عراقية وعربية وعالمية. وتبوأ مكانة مشهورة بينها.

وكأستاذ جامعي أسهم كثيراً في إفادة طلبته في مجال علم الاجتماع في بريطانيا في ما يتعلق بالوضع العراقي.

وكانت آخر مبادراته المبدعة في نشاطه العلمي إنشاؤه منظمة للدراسات الاستراتيجية في بيروت قامت بنشاطات مرموقة، وفي اعداد دورات علمية لكوادر عراقية. ولم تشغله كل هذه الاعمال والنشاطات عن متابعة ما يحدث في العراق الذي كان شغله الشاغل ودراسته وتقديم المساهمات العلمية والعملية الجادة لمعالجته.

ولا يسعني في هذه العجالة ان احيط بكل نشاطات الفقيد العلمية والنضالية الكثيرة التي تتيح لي القول بثقة وألم ان فقدانه خسارة لا تعوض.

تعازينا الحارة لزوجته السيدة فاطمة المحسن وابنته فيروز وولديه خالد وعلي ولكل محبيه ولرفاق دربه.

فالح عبد الجبار وآخر ما قال وما فعل

جاسم الحلفي

آخر كتاب

ليس مصادفة ان يكون آخر كتاب صدر للمفكر الراحل الدكتور فالح عبد الجبار، هو "حركة الاحتجاج والمساءلة.. نهاية الامتثال بداية المساءلة". فقد كان فقيدنا منشغلا بحركة الاحتجاج، متطلعا الى اسهامها في التغيير.

والكتاب عبارة عن بحث ميداني، قام على استطلاع لرأي المحتجين، بمشاركة فريق كبير من الباحثين الميدانيين الشباب. وكان لبعض الناشطين في تنسيقية "مستمرون" دور في انجازه، الى جانب الدكتور سعد عبد الرزاق.

خلص التحليل الى استنتاجات مهمة، منها الاجماع على اولوية الهوية الوطنية مقارنة بالهويات المذهبية والاثنية، والتأكيد في احد أهم فقرات الخاتمة ان الحركة انطلقت من "الاحتجاج على الخدمات الى مساءلة النظام السياسي برمته، في ربط محكم بين سوء الخدمات والفساد السياسي والمحاصصة الطائفية المتمترسة بالدين، مولدة زخما ينبئ بلحظة وعي جديد"، ويتطرق الى قدرة الحركة على فضح محاولات سياسيي المحاصصة والفساد، استغلال الهوية المذهبية، للتغطية على فشلهم السياسي والإداري والاقتصادي. ولم يخف الفقيد الراحل أمنيته بان تتبلور حركة الاحتجاج في فعل انتخابي كبير، غايته تغيير بنية النظام السياسي، واعادة بنائه على وفق المواطنة.

آخر تغريدة

آخر ما نشره الراحل على مواقع التواصل الاجتماعي كان رأيه في تحالف التيار المدني والتيار الصدري، وأجوبته المكثفة على الاسئلة التي تستحضر وقائع من الماضي، او افتراض وقائع ضد المدنيين ستحصل في المستقبل. قال: "وقائع الماضي لم تعد قائمة، ووقائع المستقبل لم تحصل بعد". وطرح سؤالا مفتوحا "كيف يبني المرء توجها سياسيا على هكذا فراغ - فراغ لا يقول لنفسه ماذا حصل بين الماضي والمستقبل؟" ودعا الى التفكير بعقلانية تنظر الى الصورة بكليتها لا الى جزء منها.

آخر نشاط

نشاطه الاكاديمي الاخير كان المشاركة في مؤتمر نظمته الجمعية اللبنانية للعلوم الاجتماعية بالتعاون مع الجامعة الامريكية في بيروت، ودام يومين، لمقاربة الحركات الاحتجاجية العراقية واللبنانية ودراستها. وقد تشرفت في

الاسهام معه في جلسة مشتركة، لتقديم بحثي بعد بحثه عن الحركة الاحتجاجية العراقية، يومي 25 - 26 كانون الثاني 2018.
لكنه لم يحضر الجلسة الاولى للمؤتمر، حيث انه خرج من المستشفى قبل يوم من ذلك، ولم يكن في وضع صحي مريح. وحينما التقيته، وكان بصحبته المسرحي جواد الاسدي والتشكيلي جبر علوان، تمنيت عليه ان يعتذر عن المشاركة في المؤتمر ويخلد الى الراحة. الا نه اصرّ قائلا ان حركة الاحتجاج العراقية وما تنطوي عليه من ابعاد سياسية واجتماعية وفكرية، هي املنا في اصلاح الاوضاع التي يعيشها الشعب العراقي. وان الحركة وهي تواصل نشاطها بتفانٍ، تجعل التفاؤل يتصاعد، والثقة تتعزز في قدرتها على ترتيب الأولويات، ورعاية المصالح العامة، والدفاع عن موارد البلد وثرواته الطبيعية، وعن حقه في تقرير مستقبله.

وداعاً فالح عبد الجبار

سلم علي

توفي صباح اليوم العالم والباحث العراقي البارز د. فالح عبد الجبار في مستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت إثر نوبة قلبية.
انها صدمة مؤلمة وخسارة كبيرة لا تعوض لكل رفاقه ومحبيه.. ولحزبنا الشيوعي العراقي الذي ارتبط به الفقيد منذ بواكير شبابه وبقي على صلة وثيقة به حتى رحيله المفاجئ.
تميز بجرأته الفكرية ومساهماته الفلسفية وابحاثه الرصينة التي ستبقى معيناً لا ينضب لكل المناضلين من اجل تحرير الانسان من أغلال الجهل والتخلف والاستغلال.
تعازينا الحارة لعائلته واولاده وللعزيزة فاطمة في مصابهم الأليم .. قلوبنا معهم.
الذكر الطيب دوماً لفقيدنا الغالي أبو خالد.

فالح عبد الجبار، الإنسان الطيب والمناضل الشجاع والعالم الرصين

د. كاظم حبيب

مات فالح على غير موعد، اختطفته يد المنون دون وداع، هكذا هو الموت..، يأتي على غير موعد، لا يعلن عن قدومه، زائر غريب ومضني لا يمكن ردّه..، جاء في وقت غير مناسب، لم يمهله لإنهاء الفكرة في المذياع، أتعبه موضوع العراق المنهك وهو يتحدث في فترة قصيرة عن تاريخ العراق المأساوي.. ها هو الموت يختطف من جديد صديقاً ورفيقاً ومناضلاً آخر.. يختطف الأحبة واحداً بعد الآخر.. سعدنا برؤيته على شاشة التلفزيون، وأنهكنا الحزن قبل ان ينهي الموضوع!!

كان فالح في قمة عطائه الإنساني، وفي حركة دائبة غير قادر وغير راغب على التوقف ولو لحظة واحدة ليريح قلبه المتعب مما جرى ويجري في العراق الجريح وفي المنطقة!! كان شعلة وهاجة ينير درب الآخرين ويشتعل ذاتياً.

التقيته قبل فترة وجيزة، تجولنا في شوارع برلين اخترنا مطعماً هادئاً، جلسنا وتحدثنا في همومنا المشتركة، وتحاورنا عن المشاريع الكثيرة الواعدة التي كان ينوي القيام بها وإنجازها، وتحدثت له عما أقوم به فيما تبقى من سنوات عمر الشيخوخة. اتفقنا على تنشيط فعاليات بعض منظمات المجتمع المدني التي نعمل فيها، وأن نكرس وقتاً أكثر لها. كان لا يهدأ.. في زحمة أعماله الكثيرة وسفراته المكوكية في أنحاء العالم، كان يحمل حقيبته الصغيرة وأوراقه وأقلامه ونظارته. منذ وفاته شلت يدي عن الكتابة عنه للقسوة المفاجئة، رغم معرفتي بقلبه العليل.. مات وهو لا يحمل غير أوراقه وقلمه، وفي قلبه يحمل زوجته العزيزة فاطمة المحسن وابنته فيروز وولديه خالد وعلي والكثير الكثير من الرفاق والأصدقاء والمحبين والمعجبين بكتاباته..

لقد عمل فالح بدأب العالم المفكر، ومنهجية الباحث الجاد والرصين، فهو شديد الذكاء، دقيق الملاحظة، سريع البديهة، قوي الذاكرة وموسوعي المعرفة مع اعتداد بالنفس. عمل فالح بإخلاص على وفق الحكمة المندائية القائلة "ويل لعالم غير منفتح على غيره، وجاهل منغلق على نفسه"!

كانت لقاءاتنا قليلة، ولكن كنا حين نلتقي تكون موضوعات البحث العلمي والمشاريع التي نقوم بها هي مادة الحديث، إلى جانب أوضاع الشعب العراقي والمنطقة وأوضاع العراقيات والعراقيين في الخارج ومشكلاتهم المعقدة بسبب تعقد أوضاع الداخل.

لقد كان رفيق درب نضالي طويل، كان منفتح العقل والقلب، يكره القيود على الفكر والممارسة، يريد أن يكون طائراً حراً يحلق في الأعالي، ليرى بأفق أوسع ما على الأرض وفي السماء، ثم يحط على الأرض، ليتلمس برؤية مباشرة وموضوعية وهادفة ما يمكن أن يكون نافعاً فيما يكتب وينشر.

عشنا فترة معاً، وفي موقع واحد، في الإعلام المركزي للحزب الشيوعي العراقي، ضمن حركة الأنصار الشيوعيين العراقيين في جبال وارياف وقرى كردستان العراق، كانت واحدة من مراحل النضال الصعبة ضد نظام البعث والدكتاتورية والحرب والعدوان، وفي سبيل عراق ديمقراطي مدني حر، وشعب ينعم بالحرية والرفاه، وقوميات تتمتع بحريتها وحقوقها الأساسية.

مات فالح مبكراً، خسرناه مفكراً ومناضلاً وصديقاً رائعاً.. أنجز أبو خالد العزيز الكثير وبقي الكثير الذي فكر وعمل على إنجازه.. ستبقى صورته في ذاكرتنا وستبقى كتاباته تساهم في إنارة طريق النضال لغد أفضل بالعراق والمنطقة.

التعازي القلبية للعزيزة فاطمة المحسن ولبقية افراد عائلته ورفاقه ومحبيه.

العمامة والأفندي.. والعمامة

ابراهيم الخياط

أول معرفتي بالدكتور فالح عبد الجبار كان بعد انتفاضة آذار الشعبية 1991، اذ تحررتْ مدائن كردستان فأخذني معه في آخر تلك السنة صاحبي عبد العظيم كرادي ونزلنا مدينة زاخو التي مكثتُ فيها لشهرين وزيادة، أقمتُ في مقر الحزب الشيوعي العراقي في تلك البلدة النائية.. النائية عن بعقوبة، وقد تكون بعقوبة هي النائية عن أبناء زاخو، ففي ذاك المقر الحميم تعرفت - أيضاً - على "أبو روزا ناصرية" رفيقاً أليفاً ينتظر مرة البريد القادم من الشام ومرات ينتظر بقية أهله ليلتحقوا به، أما د. فالح فقد ظهر لي على رفوف مكتبة المقر الزاخرة، أقول زاخرة وهي كانت بسيطة ومتواضعة ولكن كتبها كلها وهي قليلة كانت تثير الشهية القصوى للقراءة لأنها من مفقوداتي لعقد عنيف مضى.

تناولتُ كتاب د. فالح عن الحركات الشيعية المعاصرة في العراق وارتكنت لقراءته بخلوة فبدأتُ بمقدمته المثيرة التي يشكر فيها رفاقه الأنصار لأنهم أنقذوا أوراق مسودات الكتاب وأوصلوها عبر الجبال الجامدة والسيطرات الجبّارة حتى أتوا بها عبر الخابور الى الشام فبيروت ثم نيقوسيا حيث استقر هو أواسط الثمانينات.

ما أغراني للانكباب على الكتاب الذي

كان أقرب الى الكراسة هو تفاؤلي التام حدّ اليقين بسقوط نظام الطاغية فلذا كان عليّ أن أعرف وأتعرّف على الأحزاب والحركات التي ستأتي، وهذا الكتيب هو خير مفتاح لولوج مجاهيل الآتين.

ومن هذا الكتاب الكاتم جذبني سحر د. فالح جذباً الى ما يكتب وأصبحتْ له منزلةٌ عندي فبدأت أراه ورديا جديدا على الرغم أنّ د. علي الوردي لا يُقارَن لأنه كان مبذولا بعلمه وبلغته كما الماء للشاربين، وبعد 2003 تعرفت على د. فالح عيانا فازداد انجذابي إليه لأنه كان يرتجل ارتجالاً في الندوات العميقة فأراه محاضرا ومناقشا ومداخلا ومجيبا بثقة وثقى لما يحمل من علم وأدوات وتجربة بل تجارب.

ومن كتبه في ما بعد استهواني "العمامة والأفندي" لأنه كتبَ فيه التاريخ الذي لم تكتبه أقلام الحكومات ثم لأنه كان يحلل كل نأمة مهما صغرت في لجة الصراعات الاجتماعية السياسية المتقدة، كان يبدأ من حيث ينتهي المؤرخون فيستنتج.

"العمامة والأفندي"، كتاب يتناول بدايات تشكل الهويات المذهبية بُعيد تشكيل الدولة العراقية الحديثة، ويرى د. فالح أن ثمة قضايا خلافية مذهبية - دولتية هي التي أسهمت في خلق حراك سياسي مبنيّ على أسس طائفية، وهذه القضايا هي:

1. سياسية وتعتقد بسيطرة طائفة واحدة على مفاصل الدولة منذ العهد العثماني وإبعاد المكونات والطوائف العراقية الأخرى.

2. اقتصادية وتخص قانون الإصلاح الزراعي الذي أقرته حكومة ثورة 14 تموز عام 1958 وأثره السلبي على خزائن كبار الملاك والتجار وعلى صناديق الزكاة والخمس.

3. ثقافية وتشير الى حلول الفكرة القومية محل الفكرة الدينية بنسخة ساطع الحصري.

4. قضية التبعية التي تتعلق بحقّ المواطنة وإسقاطه بالتهجير والتسفير على أساس الولاء مرة لإسرائيل ومرات لايران طوال مراحل الحكم الملكي وحكم الأخوين عارف وحكم البعث الثاني.

5. إدارية وبدأت بقرار تجريد الوظائف الدينية من رجال الدين.

ويؤكد د.فالح بأنه منذ الخمسينات بدأت بواكير حركات الاسلام السياسي ردّاً على تنامي الحزب الشيوعي بعد إعدام قادته في شباط عام 1949 وسيطرة الحزب على الشارع، وبعد انتقال العديد من سكان الريف إلى المدن ودخولهم في التنظيمات السياسية التي صارت قنوات للتعبير عن طموحاتهم ورغباتهم في المشاركة بحكم البلد وفِي عملية التنمية ومعارضتهم لمخططات الحكومة داخل العراق وخارجه، كما أن القمع الذي تعرضوا له في الحقبة الملكية وتهميش مناطق الأطراف والتركيز على بغداد في مشاريع التنمية كان له دوره في انضمام هؤلاء الشباب للأحزاب اليسارية.

ويوضح د. فالح بأن المواجهة وصلت ذروتها بين نظام البعث والإسلام السياسي الشيعي في العام 1977 لعدة عوامل، منها: مقتل 15 ألف جندي من مدن الجنوب في المواجهات والمعارك مع الحركة المسلحة الكردية، الحملة القسرية لتبعيث الجامعات

العراقية، الجفاف الذي نتج عن إنشاء سد الطبقة السوري وضعف الموارد الزراعية ومستوى التزود بالمياه، كذلك محاولة سلطة البعث منع الشعائر الكربلائية ولكن تحدى أكثر من ثلاثين ألف شخص هذا المنع وشاركوا في الزيارة الأربعينية لتلك السنة، مشيا من النجف نحو كربلاء، وهنا حشّدت الحكومة شرطتها وجنودها ففتحوا النار على قوافل الزائرين.

وبعد أن يستعرض د. فالح ما جرى إبان الحرب العراقية الإيرانية وما جرى بعد غزو الكويت وعاصفة الصحراء وما جرى أثناء الغزو الأمريكي وما بعد الاحتلال، يستنتج بأن الاسلام السياسي الشيعي مرّ داخل العراق بثلاث مراحل؛ كانت الأولى محاولة خلق هوية دينية جامعة لكن سرعان ما تم وأدها بسبب عدم رغبة رجال الدين المشاركة في السياسة، ثم المرحلة الثانية وهي محاولة اكتساب الهوية المحلية بسبب الحكم العسكري للأخوين عارف وظهور النزعة الطائفية بخاصة في عهد عبدالسلام، وأخيرا اكتساب الهوية السياسية الواضحة بعد انتصار الثورة الإيرانية وإحياء فكرة تولي رجال الدين الحكم، فاكتملت خارج العراق تيارات دينية سياسية متماسكة مع بروز تيار الصدر الثاني في الداخل الذي اتسم بمعارضته للسلطة وإستناده الى قاعدة شعبية واسعة.

ختاماً، أظنّها هي الجلطة اللئيمة التي أخذت العالم والمناضل د.فالح مسرعا وإلا فهو ما كان ليغادر هذه الحياة دون أن يضيف كلمة أخرى لعنوان كتابه هذا ودون أن يضيف فصولا للمتن، أظنه كان بصدد أن يسميه: (العمامة والأفندي.. والعمامة).

وأخيرا، جاء د. فالح الى بغداده في تشرين الثاني 2017 وصادفت زيارته مع ذكرى الزيارة الأربعينية، ودعوناه الى جلسة هو إختار لها عنواناً: {بناء أو تفكك العراق في إطار نظريات سوسيولوجيا القوميات والأمم}، ومع انقطاع الطرق وتبخر وسائط النقل وتوقف الحياة بشكل شبه كامل في بغداد فإذا بمبنى الاتحاد بكل قاعاته وغرفه ومكتبته يكتظ بحضور نوعي لا نظير له حتى في أيام المهرجانات، واذا بي أرى د. فالح عبد الجبار وقد تحوّل من كاتب وباحث الى ساحر للجمهور وصار إسمه أسطورة عراقية.

الموت المعلن لفالح عبد الجبّار *

عدنان حسين

هذا موت لا يليق بالتأكيد، بعمرِ فالح عبد الجبار ولا يناسبه، إذْ يدهمه وهو في ذروة شبابه البحثي وفي عنفوان نضوجه الفكري، وثمّة ما كان في الانتظار ليكتمل ويُنجز في مشروع معرفي/ أكاديمي متميّز.

لكنّه موت، بصورته وصيغته المنقولة على الهواء مباشرة، يليق بفالح عبد الجبار، إذ يعصف به وهو يقف شامخاً عند منصّة المعرفة والعلم، يسترجع تاريخ وطنه وشعبه وينطق بالحكمة أمام كاميرات التلفزيون .. إنه موت معلن ومباشر، كبير الشبه بموت المحاربين الأشدّاء في ساحات الوغى، فلِما يزيد على نصف قرن كان فالح، في نشاطه السياسي والمعرفي، مقاتلاً جريئاً من أجل الحرية والمدنية والتحضُّر والديمقراطية.

قبل يوم من "حادث الاستوديو" الذي انتهت به حياة صديق العمر فالح عبد الجبار، كان يُخبرني في اتصال هاتفي بأنه يعدّ العدّة للسفر بعد يومين إلى بودابست، كيما يشارك في ندوة أو حلقة دراسية، ثم يعود إلى بيروت لينتقل بعدها إلينا هنا في بغداد.. كان، كعادته، شديد الحماسة لتتبّع اتجاهات المشهد السياسي العراقي وكتابة تقرير عنه عشيّة الانتخابات البرلمانية وغداة تفتُّت الكتل التي هيمنت على هذا المشهد وعلى العراق، لأربع عشرة سنة متّصلة، فكان أنْ تسبّبتْ بالكثير من المِحن والكوارث... سألني عن هذا وذاك من قادة الكتل وكيفية تأمين تنظيم اللقاءات بهم لزوم التقرير الذي كان سيُعدّه باللغتين العربية والإنجليزية، وتواعدنا.. لكنّه سيخلف الميعاد هذه المرّة على غير عادته.

منذ سنوات عانى فالح من تعب القلب، وفي السنة الأخيرة واجه أكثر من موقف كاد فيه أن يسقط مغشيّاً عليه.. لم يشأ فالح أن يرأف بقلبه المُنهك بجدّيته في البحث والتقصّي وبصرامته في التدقيق والتمحيص وبإخلاصه لقضيّة العراق... لم يرغب في أن يستمع إلينا ونحن نسأله، بحبّ وتوجّس، أن يخفّف الوطء بعض الشيء، من أجل قلبه ومن أجل مشروعه المعرفي ومن أجل محبّيه: فاطمة المحسن وابنته فيروز وولديه خالد وعلي ونحن، بيد أنه لم يُرد أن يتمهّل نزولاً عند أحكام العمر، فظلّ، حتى في أوقات وعكاته الصحية المتواترة، يعمل مثل بلدوزر لا ترتاح إلا قليلاً لتعاود عملها الشاقّ الدؤوب بحيوية متصاعدة ومتواصلة.

يترك لنا فالح عبد الجبار مكتبة عامرة بالمؤلفات والمترجمات الرصينة التي ستبقي عليه حيّاً، مراجع ومصادر موثوقة للباحثين وطلّاب المعرفة والمؤرخين.

ويترك لنا فالح سيرة إنسانية ووطنيّة غنيّة: كاتباً وصحفيّاً نشرت كتاباته الصحف والمجلات الرصينة في العراق ولبنان ومصر وبريطانيا والولايات المتحدة ودول أخرى، فضلاً عن مؤلفاته في السياسة وعلم الاجتماع. ولم يتوانَ فالح أيضاً عن الالتحاق بحركة المقاومة الفلسطينية في أواخر ستينيات القرن الماضي وكذلك في الثمانينيات التي أمضى بعضها نصيراً شيوعيّاً في كردستان العراق.

ما أوجع موتك المبكّر .. صديقي فالح عبد الجبار!

*** المدى**

العدد (4144) 27 /2/ 2018

خسرنا فيه باحثا ومفكرا متميزا

د. سعد عبد الرزاق

فالح شخصية متميزة للغاية. تعرفت عليه في لندن عندما شكلنا "المنبر الثقافي" في بداية تسعينات القرن الماضي، ويرجع له وحده الفضل الأول لكل نشاطاتنا في المنبر، وهي نشاطات عديدة تتعلق بندوات حول اهم القضايا العالمية في ذلك الوقت، وقد ابتدأها بندوة "ما بعد الماركسية"، التي صدر عنها كتاب باللغتين العربية والانكليزية. وبالرغم من امكانياتنا البسيطة، فقد تمكن المنبر من القيام بكثير من النشاطات المهمة. وفي عام 2007 طلب مني فالح ان اشاركه في برنامج معني بتأهيل خريجي البكلوريوس والماجستير من الجامعات العراقية، حيث كانت الفكرة أن هؤلاء الخريجين يعانون من نقص في المنهج العلمي للدراسات الاجتماعية والانسانية. وهكذا قمنا بوضع برنامج واسع استمر ثلاث سنوات، وحقق نجاحاً كبيراً. وخلال هذه الفترة تعرفت على فالح عن قرب. كان يتمتع بنشاط مفرط ومواصلة في تتبع القضايا الفكرية الاساسية التي تواجه العراق والعالم الثالث، ومحاولة تحليلها وتفسيرها.

وكانت هذه تأخذ منه معظم ساعات النهار، ولا أبالغ إذ قلت أنه كان يتواصل في دراسة هذه القضايا لأكثر من 10-12 ساعة في اليوم. وربما تثبت ذلك المؤلفات العديدة التي خلفها .

لقد خسر الفكر الاجتماعي العراقي باحثاً ومفكراً متميزاً، في فترة دقيقة تحتاجها بلادنا لتحليل وتفسير الكثير من القضايا التي تخص مجتمعنا وعلاقاته المعقدة.

وخسرت انا صديقاً وفياً ليس من السهولة تعويضه.

مفكرا... كان جديرا بحياته

د. احمد علي ابراهيم
مجلس السلم والتضامن

رأى طريقه تمتد امامه فمشاها دون خشية وحمل في كفه جمرة روجه فأرهقها..
كان شاهدا على عصره، فعاشه في لجة الصراع، فثمة وطن يزحف للمنفى ومدينة تصطنع لها نهارات وهي تعيش في ليل حالك. ترك بغداد الاسطورية وهي تتجه الى مكمن اعده الدكتاتور، ففلت من قبضته الى ساحات النضال الوعرة، ومنها الى مشارف المدن التي استقبلت وعيا وثقافة احلاما تتسع للمنفى بتجليات الحضارة بكل ما فيها من حداثة، وعنده تحولت افكاره الى ومضات من النور والامل يبعثها كاتب، بعد ان تحولت البندقية لديه الى قلم مسحور.
ذهب ساعيا الى الحقيقة والنجاة بالعقل معا كمن يرغب في تخليص مصيره من خضم عالم تتوارى فيه الحرية خلف استار الضرورة، منبئة بتشكل وعي جديد مستنير بأفكار التنوير الداعية الى أولوية الانسان وحريته واستقلاله.
في كل كتاباته كان محرضا، فهو كعالم للاجتماع يجد في الممارسة الاجتماعية قاعدة معيارية في السلوك ولأنه اكتشف الانساق الثقافية في المجتمع، ظلت تجدد نفسها، وهي قادرة على لجم الأفكار التي تريد الخروج من اسوارها، لان الأفكار النهضوية لن تكون قادرة على التحقق دون رأي عام مستنير. من هنا تناول عبد الجبار قضايا المجتمع المدني وطور مفهومه للطبقات الاجتماعية، ولذلك كرس جهده اعواما طويلة لترجمة رأس المال لكارل ماركس واستمد من جدلية هذا المفكر العظيم رؤيته النظرية فاصدر "ما بعد الماركسية".
مجدد وجد في الدولة ايديولوجيا صادمة لأنها ليست من عالم الحداثة، واكتشف أن الوطنية العراقية بما تمتلكه من ثراء نضالي، انفصلت عن هذه الدولة فما عاد الناس يمتثلون لأوامرها.
الاحتجاج لديه لا يستند الى معطيات واقع فقط انما الى رغبة كانت تبحث عن الخلاص بعد ان اندمجت الدولة في المشروع الديني، وحولت الايمان والشعائر والطقوس من مسألة ضميرية الى شأن بوليسي، ووجد في ملامح بعض التوجهات الدينية كالمهدوية على انها حركات احتجاج مطلوب اخراجها من مساراتها كنزوع يستنزف المشاعر الى رحابة العقل حيث تصبح العدالة مشروعا واقعيا وانسانيا.
لا يمكن الاحاطة بنتاجه الفكري الذي اغنى عقول متابعيه قبل المكتبات العربية والعالمية بموازاة ما فعله الراحل علي

الوردي، وهو بحق واحد من ابرز علماء الاجتماع المعاصرين واغزرهم انتاجا وارصنهم فكرا وانشطهم بحثا. ليس غريبا فقد كان يحمل في قلبه المتعب هم وطنه ومعاناة شعبه، منذ ان عرفته البندقية مناضلا مقاتلا، ومنذ ان خط قلمه اول كلمة من عصارة فكره ووجيف قلبه، حتى كانت اخر نبضة من قلبه استنزفت خلف شاشة اعدت وهو يقدم الاجوبة ويثير الاسئلة، فكانت لحظة توتر المشاعر لحظة اختفاء صوت كبير ونجم ساطع.. لكن الافذاذ لا يموتون.

الفكر الاجتماعي العراقي.. في حداد مفتوح طويل! *

الدكتور فارس كمال نظمي

في هذه الساعات القاتمة، تظل كلماتنا باردة ومعانينا موحشة أمام نبضات شرايين فالح عبد الجبار التي لا تزال دافئة تريد التشبث بلغز الحياة التي غادرها مبكراً، ليترك ظلاله عميقاً في أسلوب تفكيرنا حيال الجدليات المتشابكة للواقع العراقي .

فلا أظن أن أي باحث اجتماعي مهموم بأوجاع العراق، إلا وشعر صبيحة هذا اليوم 26 شباط 2018 أن جزءا ثميناً من ذاكرته المفاهيمية والرؤيوية قد مات أو فُـــقِد أو تيتّم بشكل أو بآخر عند سماعه نبأ رحيل فالح عن عالمنا، عن عراقنا الذي لا يزال يحق له أن يفاخر - من بين أشياء قليلة باتت تستحق التفاخر- أن فيه ثمة مفكرين قادرين على استيعاب مآسي بلدهم وكوارثه في نماذج فكرية متينة وهادئة ومنفتحة ومشبعة بفضيلة الأمل وأنوار المستقبل، على غرار ما فعل هذا الفاعل الاجتماعي العميق طوال رحلته العقلية المضنية، من الخلايا الحزبية الحالمة بالتغيير إلى الأكاديميات المتقصية لشروط التغيير.

فالح عبد الجبار كان يعمل بطاقةٍ مؤسسية لا بطاقةٍ فردية، إذ ظل حريصاً طوال مشواره الفكري أن لا يتصدى إلا للقضايا المجتمعية الملتبسة ذات الجذور المتعددة المستويات، وذات المخرجات العملية المتداخلة الدلالات في آن معاً. ولذلك ملأ زمانه، وسيظل يملأ زماننا الحالي والقادم، لأنه ببساطة "جازفَ" بمقاربة الكليات السوسيوسياسية، ونجح في تأطيرها عقلياً في كل مرة، حتى حين كان يوغل في الجزئيات والتفاصيل. حقق كل ذلك مرة واحدة ودفعة واحدة: التأليف

فالح عبدالجبار يشارك في تظاهرات ساحة التحرير أواخر العام ٢٠١٥

الفردي، والمداخلات العامة، والبحث الجماعي، وتأسيس المشاريع الأكاديمية، وإطلاق مشاريع النشر والترجمة.

فالح عبد الجبار ظل يسارياً وهو في أقصى حالات نقده للماركسية وانفتاحه على مدارس علم الاجتماع الأخرى، إذ لم يغادر أبداً فرضية أن الفكر العلمي الأكاديمي ليس ترفاً معرفياً محايداً، بل له غائيته الساعية لتغيير التاريخ إلى وضع أكثر عقلانية في علاقة المحكومين بالحاكمين، وفي اعتماد أسس منصفة لإعادة توزيع الثروة، وفي إمكانية أن يتدخل (أي الفكر العلمي) دوماً لبلورة وعي سياسي جماعي متقدم عبر التأثير في العوامل المادية المنتجة لذلك الوعي، لا سيما من خلال التأثير الإيجابي في نسق العلاقة بين السلطة والمجتمع.

فالناس قابلون دوماً للتغيير بفعل السياقات المستجدة، أي مرشحون دوماً لإعادة إنتاج ظروف حياتهم بما يجعلهم أقرب إلى إشباع حاجاتهم المشروعة المستلبة، وهنا على الفكر العلمي أن يسهم في استكشاف هذه السياقات والعمل على إنضاجها.

وهو في يساريته هذه ظل عقلانياً وامبريقياً، على نحو فريد، إذ زاوج بهدوء وسلاسة بين التفكير العلمي والنزعة الأخلاقية دون أن يُفسِد أياً منهما، بل تلاقحا حد التماهي. فكانت بصمته التي ستبقى ماثلة في الثقافة العراقية: إنه المفكر المهموم بقضايا المستضعفين، دون أن يفقد ارستقراطيته الأكاديمية.

رحل فالح عبد الجبار تاركاً أسئلة طازجة كثيرة كان قد وعدنا بتقديم إجابات وافية عنها عبر مشاريعه التي لم تعرف الكلل أو الإحباط يوماً، إذ غادر مسرعاً منصاعاً لفكرة الموت البيولوجي السقيم والعبثي.

وإذا كان قد ترك شيئاً جوهرياً لا يصدأ في عقول مجايليه وتلاميذه وقرائه، فإنه سيحقق حيزاً مؤكداً وثابتاً له أيضاً في ذاكرة الباحثين الشباب القادمين ممن سيجدون في مؤلفاته ومحاضراته ومقابلاته المتلفزة رصيداً مدهشاً لا ينضب، يتعلمون منه كيف يمكن استيعاب مجمل التطور الاجتماعي الغامض التكوينات والغايات، ببضعة مفاهيم آسرة كان وحده يجيد مزجها ببعضها على نحو تفسيري يبطل سحر المعطيات الكلية المعقدة.

أقولُ أخيراً.. وبهدوء وحزن وإشراق.. أن رحيل قامة لا تتكرر كفالح عبد الجبار قبل أوانه، مغترباً خارج وطنه رغم التصاقه الروحي به، ودون إسناد أو تقدير كافيين من مؤسسات بلده، تجعلني أسترجع بأسىً القيمة الكبرى التي لطالما التصقت بكبار المفكرين الاجتماعيين: قيمة الوفاء لمجتمعهم وناسهم وذكرياتهم الأولى رغم كل شيء. وببساطة، كان فالح وفياً لأفكاره وللعراقيين الذين أحبهم كثيراً، ولذلك فإنه ككل الكبار رحل ليبقى أبداً..!

*** نقلا عن صفحة الكاتب في الفيس بووك**

لم يمهلني موتُه العاجل أن ألتقيه للمرةِ الأولى!

فارس حرام

كان أوّل اتصالٍ مباشر منه (خارج حدود تعليقات الفيسبوك المتبادَلة والإيميلات الجماعية) عندما بعثَ برسالة إليَّ قبل سنتين يطلب فيها سيرتي لغرض ترشيحي وزيراً للثقافة في مشروع حكومة التكنوقراط الذي لم يرَ النور، هكذا ومن دون مقدمات!

رسالة أخرى أرسلها بعد شهورٍ يدعوني فيها الى مؤتمر عن الاحتجاج في العراق يقام ببيروت، وقد أخبرنا حينها أنه سيحضر المؤتمر قادماً من أربيل، ولكنّ عارضاً صحيّاً منعه عن المجيء فخسرتُ فرصتي بلقائه الأوّل. ثم توالت الرسائل بيننا، وهدايا كتبه وبحوثه. حتى فاجأني قبل شهور قليلة بصوته في الهاتف ذات صباح، يدعوني فيه الى حضور جلسته في اتحاد الأدباء ببغداد، وكان ذلك الصباح من أجمل الصباحات التي لا تُنسى، فكتبتُ منشوراً خاصاً بهذا الاتصال في الفيسبوك أعتذر فيه عن الحضور لسبب قاهر. وهكذا خسرت من جديد فرصة لقائه الأوّل. والآن أخسر هذه الفرصة نهائياً. يا لها من خسارة مضاعفة. خسارة عالم جليل وضمير حيّ وعقل مضيء، ثمّ خسارة شخصيّة سأبقى أتحرّق بسببها ما حييت.

ما أفجع خسارتنا بك أيها العالِم الدكتور فالح عبد الجبار.

نقلاً عن صفحته في "فيسبوك"

مناضل حقيقي

فيصل لعيبي

غاب مناضل حقيقي وكاتب أصيل وباحث اجتماعي ثوري معتبر ومقاتل في صفوف الأنصار الشيوعيين ضد أعتى دكتاتورية عرفها العراق في القرن العشرين. رحل الصديق، صاحب الترجمة الأكثر دقةً ووثوقاً لأعظم سِفر ثوري في العصر الحديث (رأس المال) لكارل ماركس وصاحب الدراسات المهمة في القضية القومية والمسائل العرقية والدينية والطائفية في العراق والمنطقة. مات الصديق فالح عبد الجبار أبو خالد وفيروز وعلي. أحر التعازي لأميرة أم أولاده ولأولاده ولفاطمة محسن رفيقة أيامه الأخيرة ولكل من عرفه وجلس معه واستمتع باحاديثه وتمعن بأفكاره وتصوراته. وداعاً فالح. لقد خسرناك ونحن في اشد الحاجة اليك، في هذا المنعطف الخطير الذي يمر به العراق.. سيكمل رفاقك وأصدقاؤك الخلص السير في طريقك التنويري والإنساني النبيل.

كابوس الموت يقتنص الحكمة !

عماد جاسم

كلما أوهمنا أنفسنا باقتناء شيء من الفرح، من امل التغيير ورؤية الحياة التي نتمنى، يباغتنا الغياب ويسرق أيقونة للتمدن وللفكر الحر المتعقل، من كنوز بلادنا المنتفخة بالغباء!

هو الموت يفجعنا برحيل مفكر من الطراز الرفيع، (فالح عبد الجبار) الذي اصر ان يبقى وفيا لفكره التنويري المتجدد، وفيا لفكرة التضامن الانساني، وفيا لحب البلاد. أنشد للحياة، احتفل بمنجزه العميق، مبحرا في دروبه الوعرة، شارحا طبيعة التطور المجتمعي، وطارحا اسئلة الوجود ومقدما تحليلات انسانية واجتماعية عبر بحوثه وكتبه التي تستند الى معرفة شمولية ولعقل حكيم متوازن، بارع في استنطاق المعنى فكانت مؤلفاته منارات للتعرف والتعريف على مجتمع يحتاج امثاله ليستدل على دروب الخلاص من (عمامة) التراجع ومُذكّرا بتاريخ المدنية (والافندية).

مع فالح عبد الجبار وعنه .. في براغ

رواء الجصاني

رحلت الشخصية الوطنية العراقية المميزة: فالح عبد الجبار بتاريخ الاثنين 26\2\2018 ، وفور انتشار الخبر الأليم، انهمرت المواساة ومشاعر الحزن، كما الذكريات والاستذكارات، وما برحت، وستستمر، وذلكم هو ديدن الاوفياء من المعنيين والاصدقاء والاقران، كأبسط تعبير عن التقدير والاجلال لباحث ومؤرخ ومفكر، يشهد له المخالفون والمختلفون معه، وربما قبل غيرهم، بالكفاءة الاستثنائية..

ومن المفترض - بل والمطلوب على ما ندعي - ان تكون هناك وهنا توثيقات وتأرخة عديدة لعطاء الفقيد الجليل، وكذلك عن سيرته ومغترباته، وبشكل رئيس في بيروت ودمشق ولندن، فضلا عن براغ، وهي التي ما تسعى اليه هذه السطور العجلى، مساهمة في ذلك النهج ..

وبعيدا عن بغداد ودمشق، واللتين تشاركنا فالح وانا في صداقاتها وذكرياتها، منذ اواسط السبعينات، اخترت براغ دون غيرها من مغتربات (فالح) لأسجل بعض ما لدي عنه وله، لأنها محطته الاولى، أو تكاد، في مسارات المنفى الاضطراري الذي امتد عنده – وعندنا - لأربعة عقود بالتمام والكمال... وكذلك لأن عطاءه في هذه المدينة العريقة، غير معروف، او غير موثق بتعبير ادق، عند المتابعين والمعنيين.... كما يأتي التوثيق (البراغي) ايضا لان علاقاتنا وصداقتنا قد ترسخت وتنوعت هناك اكثر فأكثر، كما سيرد الحديث .

ففي عام 1979 يصل فالح من بيروت، ومعه (أميرته) مع براعمهما الثلاثة (خالد وفيروز وعلي) الى براغ، التي كنا قد ولجناها قبله بفترة قصيرة، ليعمل – رسمياً- مترجما ومحررا في القسم العربي بمجلة (قضايا السلم والاشتراكية) .. ولكنه ليتفرغ - عملياً- لمهام ونشاطات الاعلام الخارجي (المركزي) للحزب الشيوعي العراقي، قبل ان تتحول تلك المهمة الى بيروت، ثم دمشق لاحقا .

وفور حلول فالح في براغ ضمتنا الهيئة المسؤولة عن ذلك الاعلام، بمسؤولية الراحل الجليل ثابت حبيب العاني (ابي حسان) ومعنا شمران الياسري (ابو كاطع) المعطار، النقي، وآخرون.. وتولى فالح المسؤولية الاولى في التحرير والصياغات، وكنت مكلفاً بالشؤون التنفيذية لتلك الهيئة.. وصار كعهده: شعلة من العمل والتميز في الاداء والعطاء (1).

ثم يبدأ تالياً، بعد فترة وجيزة ليس إلا، الاسهام في التحضير لإطلاق رابطة الكتاب والفنانين والصحفيين العراقيين في الخارج... ولذلك التقينا ثانية في مهام جديدة، اضافية، وقد كان لفالح عبد الجبار، دوره المميز هنا ايضا، بل وفي صميمه، وفي ما يخص براغ واوربا بشكل رئيس...

وهكذا راحت النشاطات السياسية والثقافية والاعلامية، الحيوية تترا، ولتتعزز بعلاقات شخصية وعائلية حميمة، كان ركناها الآخران: صديق عمر فالح، عبد الاله النعيمي، وكذلك صديقنا المشترك الحميم: حميد برتو.. وكنا نجد فسحاً هنا، واخرى هناك، في محطات استراحة انسانية، وان كانت شحيحة، في ''معمعان'' العمل التنظيمي، والفعاليات السياسية والوطنية.. وكم كنت احسد (فالحاً) في فلاحه بجمع كل تلك الحيوية العملية والحياتية، ومحبة الاخرين، وديته مع الجميع، وقدرته على احتواء وادامة الصلات مع ذلك الكم من الاصدقاء والمحبين ... ويكفي الاستطراد هنا بالإشارة الى ان شقته كانت مضافة لعشرات من المثقفين والسياسيين وغيرهم، ممن زاروا براغ، لعمل او سياحة او مهمات ..

لقد جمع فالح عبد الجبار، طيلة وجوده في براغ ، بين جديته العملية، وطبيعته وسجيته الانسانية - وانا شاهد عيان هنا - فهو محاور ومتابع وحريص في اطروحاته السياسية والفكرية امام، ومع الجواهري وزكي خيري ومحمود صبري، وغيرهم.... مرة في السياسة المباشرة، واخرى في الجوانب الفكرية، وثالثة في الشؤون الثقافية. ولعلني أفيدُ أزيّد لأذكر وأستذكر، محاورته للرائد محمود صبري، ومعه يحيى بابان – جيان، ومجيد الراضي، حول ''واقعية الكم'' والتي نُشرت لاحقا في اصدار خاص ربما هو الاول، والاسبق من نوعه ..

كما ثمة لقطة اخرى ذات شأن وصلة، وهي علاقة فالح مع الجواهري في براغ، الذي كان معجبا به، ومطمئنا له، وذلك ما أجزم انه كان وراء طلب الشاعر الخالد منه، لاحقا في دمشق، لمتابعة اجزاء مهمة من شؤون تحرير وصياغة مذكراته – الجواهري- ذات الجزأين، وقد سبق ووثقت عن ذلك في كتابات سابقة ..

وإذ يطول الحديث وتنهمر الذكريات عن الفقيد العزيز، وحوله ومعه، أعود الى بعض إشارات ومؤشرات عن العلاقة الصداقية مع فالح، وكذلك الاجتماعية، التي توطدت عبر امسيات، ثنائية أو أعم! و(مؤامرات) خفيفة حينا، أو (مغامرات) وجدانية احياناً أخرى !!. ألم أقل انه كان يعطي لكل حال حقها، ولكل أوان حاله!!!. وتلكم هي مميزات ليس من السهولة جمعها في وقت واحد ..

وبعد عامين في براغ، يستدعى فالح الى دمشق، للمشاركة في الاعلام المركزي للحزب، ومن بعدها الى كردستان حيث بؤر وتشكيلات الانصار الشيوعيين، ثم يعود الى دمشق، لتتوالى اللقاءات، والجلسات معه، واصدقائنا المشتركين، مرات ومرات ومرات. لنتعاطى السياسة، والثقافة وما بينهما، كثير كثير !.

ثم تلعب الجغرافيا دورها، كما ظروف اخرى، فننقطع حينا ونتواصل في آخر، وحتى نلتقي مجددا في اربيل عام 2000 في مهرجان الاحتفاء بمئوية الجواهري الكبير، وكان الرجل امينا في الحفاظ على مثابرته وتميزه، بل وبعمق يتزايد، بالتزامن مع اتساع المعرفة، وتضاخم الجهد الفكري..

لقد كان آخر اتصال هاتفي مع فالح قبل اشهر قليلة، حين كنت اهيئ لإصدار الكتاب التوثيقي عن الذكرى السنوية العشرين لرحيل الجواهري، وقد اعتذر بكل تواضع عن المشاركة هذه المرة لوعكة صحية، وانشغالات - كما وتجبجباً من ان لا تكون

مساهمته بالمستوى اللائق ومناسبة مهمة كهذه كما اوحى واستنتجت-(2). وقد أكد انه سيعمل على مادة (دسمة) بحسب تعبيره، للذكرى الحادية والعشرين لرحيل الجواهري في تموز 2018 ... ولكنه رحل قبل الاوان، ليتركنا نبحث نحن عن مواد نكتبها عنه، وفيها بعض التباهي ايضا – ولمَ لا !- بعلاقات جميلة وذكريات حميمة مع انسان تميز بالمعرفة والوعي، وذي مواهب لا يباريها غير قليلين ... وداعا فالح!

(1) كان من ابرز ما اصدرت تلك الهيئة - وبالرونيو حينها- مجلة / نشرة "رسالة العراق" لتوزع اوربياً، ولتعاد طباعتها بشكل انيق وبالالوان في بيروت، وتوزع بشكل اوسع..

(2) صدر الكتاب/ الكراس، عن عشرينية رحيل الجواهري في مطلع آب 2017 بمشاركة اربعين مبدعا ومثقفا وسياسيا، وصمم غلافه الاول الفنان البارع فيصل لعيبي، وقد كان مقدراً ان تكون المشاركات فيه أكثر لولا أن البعض قد (ظنّوا) فـ (ضنّوا)!

رحيل فالح عبد الجبار العلامة البارزة في علم الاجتماع العراقي

فاضل السلطاني

برحيله المفاجئ صباح أمس (الاثنين)، يختتم فالح عبد الجبار، الصديق والزميل، رحلة طويلة تزاوج فيها النضال السياسي المبكر مع البحث الدؤوب في طبيعة المجتمع العراقي، وتشكيلاته القبلية والاجتماعية والمعقدة، ومساره السياسي الذي لا يقل تعقيداً. ولفهم كل ذلك، تسلح فالح عبد الجبار نظرياً بالفكر الماركسي عبر مصادره الأساسية. فصرف 20 عاماً في ترجمة رأس المال عن الإنجليزية، مقارناً إياها بالنص الأصلي بالألمانية، التي بدأ يتعلمها من أجل هذا الغرض. وبهذا الإنجاز، واصل عبد الجبار رحلته الفكرية الطويلة، لتتوالى كتبه في علم الاجتماع، مثل «الدولة والمجتمع المدني في العراق»، و«الديمقراطية المستحيلة والدولة الممكنة»، و«معالم العقلانية في الفكر العربي» و«المادية والفكر الديني المعاصر»، وكذلك كتاب «دولة الخلافة: التقدم إلى الماضي («داعش» والمجتمع المحلي في العراق)»، الصادر نهاية العام الماضي الذي رأى فيه أن «الدولة الفاشلة في العراق هي أساس نمو الحركات التكفيرية واستشرائها»، وكتاب «العمامة والأفندي: سوسيولوجيا خطاب وحركات الاحتجاج الديني»، الذي قدم فيه قراءة للحراك السياسي لدى الشيعة

في العراق ضمن سياقاته الاجتماعية والثقافية والآيديولوجية، وربطه بمحطّات أساسية في التاريخ المعاصر.

وتوج كل هذا الجهد الميداني بدراساته النظرية مثل «فرضيات حول الاشتراكية» و«المقدمات الكلاسيكية لنظرية الاغتراب»، وآخر كتبه في هذا المجال «الاستلاب»، الذي صدر قبل شهرين فقط، واضح فيه تطوره النظري والفكري الباهر. وقد تناول فيه تاريخ مفهوم الاغتراب، ودلالاته ومعايناته عند هوبز، ولوك، وروسو، وهيغل، وفويرباخ، وماركس. ومن المعروف، أن هذا المفهوم ارتبط بهيغل وأكثر بماركس، لكن عبد الجبار أعاد بداياته إلى اللاهوت البروتستانتي، أي بدايات القرن السادس عشر (من لوثر إلى كالفن). وبيّن كيف أن استخداماته تشعبت وتنوعت على مدى قرنين من تطور الفكر الفلسفي والاجتماعي والأوروبي، ابتداء من توماس هوبز وجون لوك، مروراً بجان جاك روسو، ويوهان فيخته وفريدريك شيلنغ، وصولاً إلى هيغل وماركس. وبيّن لنا الراحل كيف تبلور هذا المفهوم بروح احتجاج ونقد للإنسان في إطار الدين - اللاهوت دفاعاً عن الإيمان، ثم خرج من جبتهما، لا لشيء إلا ليعود هذه المرة في زمننا المعاصر بروح احتجاج ونقد للدين واللاهوت دفاعاً عن الجوهر الإنساني المستلب.

وانشغل في الفترة الأخيرة بدراسة «أنثروبولوجية» موسّعة ترصد منظومة العشائر في العراق ومدى تأثيرها على المشهدين الاجتماعي والسياسي في العراق.

ما كان لفالح عبد الجبار أن يحقق كل ذلك، لولا تكريس نفسه شبه الكامل للعمل منذ وقت مبكر جداً في حياته. وكان معروفاً بجديته منذ عمله في جريدة «طريق الشعب» عام 1974، حيث عمل سكرتيراً للقسم السياسي فيها، واشتهر بتحليلاته السياسية العميقة، المحلية والأجنبية، التي كان يوقعها باسم

«أبو خالد»، تيمناً بابنه الكبير. وهناك تزاملنا وتصادقنا، وتقاسمنا الانتماء والقلق والخيبات ثم المنفى الذي اختتمه فالح صباح أمس بالموت. كان قد بدأ بكتابة القصة القصيرة مبكراً في الستينات، وهي قصص لم ينشرها ربما لعدم قناعته بها، وكان مثابراً على حضور اللقاءات المسائية لتلك الحلقة الذهبية، قارضة الكتب، المهووسة بالقراءة العميقة، أدباً وفلسفة، وبالسياسة أيضاً، التي لم تترك أحداً إلا ومسته في تلك السنوات المضطربة من تاريخ العراق الدامي.

ثم حسم فالح أمره مبكراً. وجد نفسه في البحث الاجتماعي والنظري، وخصوصاً الماركسي، وانتمى للحزب الشيوعي العراقي. ومع اشتداد القمع البعثي الرهيب لليسار العراقي، غادرنا كما المئات من المثقفين اليساريين، أو المحسوبين على اليسار، في أكبر موجة هجرة ثقافية، ربما بعد هجرة المثقفين الألمان أثناء الفترة النازية.

استقر الفقيد أولاً في بيروت حيث عمل في بعض الصحف الفلسطينية، وأسهم هناك في تأسيس رابطة الكتاب والصحافيين العراقية، التي أصدرت مجلتها المركزية «البديل»، التي أصبح عضواً في هيئة تحريرها .ولعبت هذه المجلة دوراً مهماً في فضح النظام العراقي آنذاك، وتوثيق الصلة مع المثقفين العرب الذين أسهموا في الكتابة فيها كأدونيس وغالب هلسا وفيصل دراج وغيرهم.

ثم جاءت هجرة أخرى، بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982، إلى دمشق، حيث التقينا بعد مغادرة منفاي الجزائري إلى العاصمة السورية، لتوالي المنافي المشتركة... ثم إلى لندن، حيث تزاملنا من جديد أثناء عملنا في جريدة «الشرق الأوسط». ومرة أخرى عاد الفقيد إلى لبنان، ليؤسس مركزاً للبحث، الذي أحبه وكرس حياته له.

في كل ظروف ذلك الوطن المستحيل والمنفى، التي عطلت وأعاقت كثيرين عن متابعة وتطوير نتاجاتهم الأدبية أو الفكرية، ظل فالح يعمل وينتج ويطور نفسه، منتصراً بذلك على المنفى... والموت.

فالح عبدالجبار "الوداع الأخير" *

د. علي المرهج

يمكن أن تكون للكلمات أجنحة حينما يرسمها مُحترف القول والخطاب ليرسمها أجنحة للحب ترفرف في سماء التجلي الروحي، لترفع المُخاطبين في مسرح الحياة الدنيا ليهيموا في آفاق السماوات لينهلوا من منابع التسامي الدينوسيوسي للخروج من عتمة العالم الأرضي لشق شفق السماء وتجاوز المعنى والقصد في كتابات عقول المُغربين من كبار الشعراء والفانين والعلماء والمفكرين أمثال فالح عبد الجبار، لإنتاج معنى لحياة أخرى لمتألق هام عشقاً في الوطن ورسم لوحة حب لوطن تآكلت أطرافه من فرط الحالمين بإغتصاب الحياة، ونسيان "المكاريد" الذين ورطتهم السماء لتجعلهم أرقاماً في صناديق إقتراع المُتخمين.

وأنا لست ممن يُتقنون العزف على وتر الشجن ورسم لوحة الحزن والوداع أو الفناء، ولا أعرف مخاطبة الجمهور بـ "حديث النهايات" بعبارة علي حرب، ولا أُتقن إستحضار أو كشف ترنيمة العشاء الأخير، كما فعل "جيوفاني ماريا بالا" مهندس الكومبيوتر والموسيقي، حينما كشف عن موسيقى النسق الموسيقي الذي يحكم لوحة دافينشي "العشاء الأخير". ولو كنت شاعراً أو تشكيلياً لجعلت من نوبة فالح عبدالجبار المُفاجئة على شاشة التلفاز، مُعلقة تُعلّق على جدار الأمل العراقي الذي ضيعه غباء العقل السياسي العراقي، التي جعلت من فالح عبدالجبار وكبار أمثاله، يسكنهم الوطن ولا سُكنى لهم فيه.

كان فالح عبدالجبار يحمل الوطن في شغاف القلب الذي يُعاني النوبة، فيتيه قلبه يصيح "عراق"، فـ"الشمس أجمل في بلادي من سواها، والظلام، حتى الظلام، هناك أجمل، فهو يحتضن العراق"، وا حسرتاه، فالعراق ظلامه يحتمله السياب، وقلب فالح عبدالجبار يصيح من أثر النوبة: أهيم في هوى العراق، "نوبه شمالي الهوى، نوبه الهوى جنوبي"، فلم يكن شمال الوطن بأفضل حال من جنوبه، ولم يكن فالح بأفضل حال منهما. فكان العقل فاعل وضاغط على القلب، فوصل حال العراق لأن يكون غربهُ أسوء حالاً من شرقه، بعد سقوط نظام صدام، ولأن قلب فالح عبدالجبار نابض بحب العراق بجهاته الأربع، فحينما تهاوت أرض العراق إصفر وجهه حينما ضعف قلبه "الحكومة"، ولأن صدمات الشحن المدني والمعرفي التي وجهها فالح عبد الجبار وكثير من مثقفيه لم تُجد نفعاً، ولم تستطع إرجاع نبض العراق بما هو مُتمنى، حينذاك لم يستطع تحمل قلب فالح قوة الصدمات، فكان الوداع الأخير.

كان فالح عبد الجبار يحلم ببناء مجتمع مدني لا أثر فيه ولا وجود لتداخل الديني بالسياسي، مجتمع خال من شرور الديكتاتورية والنزعة الشمولية بكل تمظهراتها: في السياسة، أو الدين، أو المعرفة، أو الآيديولوجيا، فهو وإن كان يساري الهوى، إلّا أنه يساري يحلم بوجود

مجتمع ديمقراطي، وفق النموذج البريطاني ''الإشتراكية الديموقراطية'' أو ''الديموقراطية الشعبية'' على غرار ما أنتجه ''حزب العمال البريطاني''، وربما يكون هذا التأثر ناجم من دراسته في بريطانيا وتدريسه في جامعاتها. رافضاً لكل النزعات ''التوتاليتارية'' التي مثلتها الأنظمة الإستبدادية: الستالينية، والنازية، والفاشية، ومثيلاتها في العالم العربي، على رأسها نظام البعث الفاشي الذي حاربه سنين طوال منذ أن خرج من العراق عام 1978، مع بدايات بزوغ نزعة البعث الديكتاتورية وهيمنة (السيد النائب صدام حسين) على نظام الحكم في العراق، وتهميش دور الرئيس ''الأب القائد'' ''أحمد حسن البكر''!

شكلت رؤيته هذه إمتداد لرؤية ''جماعة الأهالي'' و''الحزب الوطني الديموقراطي'' في العراق، أو هي إمتداد لرؤية محمد حديد وعبدالفتاح إبراهيم في ''الديموقراطية الشعبية''.

حلم فالح عبد الجبار ببناء مجتمع مدني لا ديني، يفصل الدين عن السياسة، يحترم حقوق الأقليات، وحقوق الإنسان، وحقوق المرأة في الحياة والحرية والتعليم. لقد كان يحلم بـ ''إنتصار المواطن'' على السلطة، وحماية الأقليات وسط الأغلبية ''المسلمة'' في المجتمع العراقي، إلَا أن العراقيين ربطوا مصيرهم بالعمامة وبرجل الدين، فسلموه أمرهم وجعلوا زمام المُباردة بين يديه، فتلقفها معممو العقول، فصمدوا وتناسلوا، لأنهم ورثوا أغلبية ساذجة يسودها التخلف والتجهيل بفعل الأنظمة ''التوليتارية'' المُتعاقبة، فكان الأغلبية ممن يؤمنون ببسيط القول وأكثره سذاجة، لأنه يُداعب وجدانهم ولا يُخاطب عقولهم، وهم بذلك راغبون وإليه مُنصتون ولقائله مُصدقون ومُطيعون، يُصور لهم جنات الخُلد وهم فيها ينعمون، فيه جواري وغلمان مُخلدون، فأي مجتمع أفضل من هذا يرومون! فالويل والثبور لكل من زين لهم الحياة الدنيا وهم بلمذات الآخرة يحلمون.

فصدق من قال ''رحل الأفندي وبقيت العمامة''، فلقد رحل فالح عبدالجبار، وبقيَ كل عتاة الفساد في أرض السواد. إن هذا لمن سُخريات القدر!! وصدق من قال بـ ''معجزة الإمامة وشعوذة الأفندي''! فقول الأفندي اليوم شعوذة، لأن في الشعوذة، إحياء لعقول العامة وتحريكا، وهو يبتغي تسكين لها وإبعاد عن منطق العقل في التشكيك، لأن في العمامة مُعجزة في تسكين الناس وتعليم الطاعة، وفي شعوذة الأفندي خروج عن يقينيات التسليم وتحريك للعقل ودعوة لإتباعه. وليس من السهل في بلاد رجال الكهنوت أن يكون للأفندي حضور وفعل بقدر فعل التخدير الديني ووعوده لبسطاء الناس وهم الأكثرية بحياة النجاة والملكوت.

العمامة ليست مُقدسة بذاتها، فهناك ممن لبسوا العمامة وهم لطريق المعرفة من السالكين، فماذا نقول عن الطهطاوي، أو الأفغاني، أو محمد عبدة، أو الكواكبي، أو النائيني، فقيمة العمامة من قيمة صاحبها، لا يرتقي الشخص بالعمامة إلَا في أوساط السذج من القوم، فالفرد هو من يجعل للباس قيمته، وإن يُخدع بعض الناس بلباس شخص فإلى حين، فحتى الأفندي، فهو لا يخدع الناس بملبسه، فرُبَ صاحب عمامة أكثر مدنية من أكثر مُتبجحي لبس الأفندي، ولكن الذي يقصده فالح عبدالجبار بـ لفظتي ''العمامة والأفندي'' هو أن هناك من يرجع بالناس إلى زمان ماض لا قُدرة له على التعايش مع الحاضر،

ولا طاقة تفسيرية عند أصحابه على التوليف بين مخزون الماضي ومُعطيات الحاضر، وهذا هو ما يقصده فالح عبدالجبار بصاحب العمامة، إن لبس كل لباس الأفندية أو تخلى عنه، وهو بقوله هذا قريب من فهم رفعت السعيد حينما كتب كتابه "عمائم ليبرالية"، أي أن من يتلبس عقله بلباس المدني، فهو أفندي، وإن يكن قد لبس العمامة، ومن يتلبس عقله بلباس السلفية، فهو مُعمم وإن لبس لباس الأفندية. وإن يكن في الغالب الأعم أن لبس العمامة في مجتمعنا العربي الإسلامي من قبل أي شخص ما يفرض عليه نمطاً أو شكلاً من أشكال الإنتماء للمؤسسة الدينية ببعدها القُدسي وإمتدادها التاريخي عند الرسول وأصحابه وآل بيته، ولربما يكون من يلبس العمامة خال تماماً من هذه القُدسية.

*** عن صحيفة المثقف**

فالح عبد الجبار 1977 - 2018

ابراهيم الحريري

ركنت دراجتي على الحائط. حييت موظفة الاستعلامات. تريثت. تشاغلت. كنت اطيل التحديق في عينيها الآسرتين. لاحظت. ارتبكت، ثم ابتسمت. لعلها كانت تنتظر كلمة غزل. ترددت. كنت تأخرت. اسرعت ارتقي السلم الى غرفة العربية والدولية.

كل شيء في مكانه, حميد بخش في الزاوية يدقق ما كتبه المحررون. في الزاوية المقابلة له فالح عبد الجبار، يتابع بشغف انباء ثورة القرنفل في البرتغال. ينتف سالفه الأيسر بحمية حتى لتحسب انه سيقتلعه, على الطاولة المجاورة كان ثمة قلم يتحرك. انه عبد الإله النعيمي، انزلق تحت الطاولة ولم يعد يبين منه غير قلمه!

دندنة، دمدمة فوق طاولة تتوسط الجانب الأيمن من الغرفة. كانت رجاء الزنبوري تردد احدى المقطوعات الكلاسيكية.

تغادر رجاء. يحتل مقعدها سليم حمدان. كاتب العمود بتوقيع "دان"

جلبة عند الباب. ينفتح وينغلق. ينفتح مرة اخرى. يطل متأرجحا رشدي العامل. تعجب كيف يكتب عموده الرشيق، يوقعه باسم "احدهم".

اتخذ مكاني ايسر البوابة، اردد لأزمتي الشهيرة: أكو الله! يرفع الجميع رؤوسهم ضاحكين، اشرع في الكتابة. انتهي. ارفع رأسي.

لم يكن في الغرفة غيري،

لم يكن ثمة احد.

اين غادرت يا ابو خالد؟

اين غادرتم جميعا؟

لماذا تركتموني وحدي؟

بغداد

مساء 26 /2 /2018

فالح عبد الجبّار.. مشرّح الثنائيات العراقية!

خليل صويلح

يمثّل المفكّر العراقي فالح عبد الجبّار (1946 - 2018) حالة استثنائية لصورة عالم الاجتماع العربي المواكب بجرأة ونزاهة وعمق تحوّلات المجتمع العربي في انهياره التدريجي نحو الهاوية. من الشغف بالماركسية وترجمته «رأس المال»، اضطر تحت ضغط مطارق التخلّف العربي أن ينقل مشاغله الأممية إلى تشريح القبيلة والعشيرة وصولاً إلى المذاهب الإسلامية. وهو بذلك يغلق الدائرة التي افتتحها مواطنه علي الوردي، رائد علم الاجتماع العراقي. كأن كل الحراك اليساري الذي شهده العراق والمنطقة في خمسينيات القرن المنصرم وما تلاه، عاد إلى نقطة الصفر بسطوة الانقلابات العسكرية والاستبداد والحركات الإسلامية.

هكذا وجد هذا المفكر نفسه أمام أسئلة تحتاج إلى تفكيك وحفريات عميقة لحراثة الأرض الأولى مجدّداً، بأدوات معرفية هي حصيلة اشتغالاته الأكاديمية من جهة، وانخراطه بالمشروع اليساري العراقي، من جهةٍ ثانية. بدا أن الجلطة الدماغية التي باغتته أول من أمس، على الهواء مباشرة، أثناء مقابلة تلفزيونية، نتيجة طبيعية للأهوال التي عاشها الرجل. ذلك أنّ العراق الحلم تلاشى إلى كابوس، فكان عليه أن يشرّح أحوال خريطة البلاد الممزّقة، في إعادة نظر شاملة، بدءاً من العلمانية التي يؤمن بها، والحركة الشيوعية العراقية، متهماً اليسار بالانفصام عن الواقع والتعالي عليه، والاندحار خلفاً، من دون أن يفقد الأمل تماماً بديمقراطية قيد النضوج. كما سيتوقّف مليّاً حيال صعود الحركات الجهادية ومآلها وأسبابها في كتابه «دولة الخلافة: التقدم إلى الماضي». وإذا به يعيد سبب صعود هذه الحركات المتطرفة إلى «الدولة العربية الفاشلة» ببرامجها التنموية المحتضرة، وحصار المجتمع المحلي بين صعود الإسلام السياسي وهيمنة التيارات التكفيرية بصورتها العسكرية أو السياسية، ومعرّجاً على عناوين أساسية مثل «اختلال بناء الأمة وتعدد الهويات والنزاع»، و«التاريخ اللاتاريخي ودولة اللادولة»، و«الحياة اليومية في مجتمع الخلافة»، و«المال المقدّس والمال المدنّس»، بالإضافة إلى شهادات ومقابلات ميدانية عن «الولاء والاستتابة وإعادة التثقيف»، ومحنة المجتمع المحلي أمام كل هذه المعضلات. وتالياً، فإن فكرة التطرف «مثال لتسييس وأدلجة الهويات الجزئية المعتمد على خزين تاريخي.»

التفت إلى إخفاقات العراق الجديد وهزائم الديمقراطية وأسباب العنف الطائفي. لم يعد سؤال «ما بعد ماركس» ملحّاً، أمام سؤال «العمامة والأفندي»، في قراءة موسوعية تنطوي على أبعاد سوسيولوجية

للنهوض الشيعي في عراق القرن التاسع عشر، وصولاً إلى الصدام مع الديكتاتورية البعثية، لنجد أنفسنا أمام تراجيديا تتفرّع نحو التاريخ العراقي بشموليته، بوصفه حركات احتجاج مستمرّة، بين ما هو مقدّس ودنيوي، وفضاء متناقض تختلط في نسيجه العتبات المقدسة، وبورجوازية المدن، وطبقة المثقفين، وزعماء القبائل والعشائر، في صراع المصالح والإيديولوجيات.

غادر فالح عبد الجبار العراق في أواخر السبعينيات إلى لندن، بحثاً عن أوكسجين آخر، فدرس علم الاجتماع، لكن كتابته لم تنغلق على ما هو أكاديمي صرف، إنما انفتحت على مشكلات وهموم وأسئلة الشارع العراقي العريض، مازجاً في متنها الصرامة العلمية بما هو يومي وملحّ وخلّاق، كأنه لم يغادر العراق في غليانه وجحيميته وآماله.

هكذا التفت تدريجاً إلى إخفاقات العراق الجديد وهزائم الديمقراطية وأسباب العنف الطائفي. في كتابه الأخير «كتاب الدولة.. اللوثيان الجديد» (2017)، يستكمل حراثة ما بدأه الباحث حنا بطاطو في تحليل المجتمع العراقي، معزّزاً البعد النظري لمفهوم الدولة المتوحّشة وطبقاتها، أو الدولة التنين التي تفترس أبناءها، وذلك التناغم بين الريعية النفطية والدكتاتورية. وهو بذلك يستكمل بتعميق أشمل ما عالجه في كتابه «التوليتارية». ورغم أن «سوق الأفكار العربية مغلق» حسب قوله، إلا أن صاحب «الديمقراطية المستحيلة» لطالما وجد منافذ للسجال والحضور الحيوي، متكئاً على ثقافة عميقة، ولغات متعددة مثل الألمانية والإنكليزية، ومواكبة دائمة للمشهد الثقافي

والفكري، ناعياً تراجع علم الاجتماع العربي الذي انكفأ عن مقاربة الأسئلة الراهنة في المجتمع بضغط ايديولوجيات متنافرة وعدم تطوّر بنية المدارس والجامعات. ما أدى عملياً إلى انطفاء شعلة الفكر التنويري لمصلحة التفكير الطائفي.

تكمن أهمية فكر فالح عبد الجبار في انتباهاته الحادة إلى الثنائيات التي تتحكم بآليات التفكير العراقي، والعربي عموماً، مثل «العقلانية والخرافة»، و«القبيلة والسلطة». وفي ما بعد الاحتلال الأميركي للعراق، أضاف إلى هذه الثنائيات «العقال والخوذة»، كأن كل تمظهرات المجتمع المدني تبخّرت من الشارع تماماً. وما يميّز مثل هذه القراءات، تجاور أكثر من سردية في بناء محكم وأصيل ومشبع معرفياً وتاريخياً. يقول في تحليله لمنظومة العنف: «العنف في المجتمعات الحديثة هو عنف الدولة لأنها هي التي تحتكر وسائل العنف مثل الجيش والشرطة والسجون وكل وسائل القوة، ولانها جهاز يحتكر السلاح بحسب تعريف عالم الاجتماع الالماني ماكس فيبر، والدولة عندما لا تكون ممثلة لسكانها تكون علاقتها بالمجتمع علاقة قمع وعنف. لذلك كانت هنالك جرعات مستديمة من عنف الدولة تجاه المجتمع، وهذا العنف يتشربه المجتمع ويكمن فيه، إذ إنه لا يتسرب بل يكمن في المجتمع ويحاول أن يجد له منافذ أو قنوات للخروج.»

ويعيد عالم الاجتماع ورئيس «مركز الدراسات العراقية» في بيروت، هذا الانسداد التاريخي للخرائط العربية، إلى استيقاظ الهويات الصغرى وتفاقم الصراع والتعصّب المذهبي والفكري بقوله «العلمانيون لا يدرسون التراث، والفقهاء لا يدرسون العلوم الحديثة، وكلاهما يتطرف في تعامله مع النص الديني»، مؤكداً على هوية ثقافية كونية تنبذ التفكير المغلق: «لا أفهم كيف أن الأرض لا تدور حول الشمس، أو تقديس الشخصيات المتوفاة، وصولاً إلى قدرة التشفي ببولها أو بقايا جثتها؟ كيف يمكن لجسده بالمعنى الفيزيائي الطبي أن يكون خالياً من البكتيريا والجراثيم والفيروسات؟ هذه هلوسة وجنون.»

رحل فالح عبد الجبار وهو يردّد «التركيز على اختصاص ضيق هو انعزال»، لذلك ترك نوافذه مفتوحة على حرية السجال.

الاخبار اللبنانية، العدد ٣٤٠٦ الثلاثاء ٢٧ شباط ٢٠١٨

فالح عبد الجبار اختار وطنه للكتابة لا للإقامة

بيروت - حازم الأمين

مات فالح عبد الجبار مساء أول من أمس في بيروت لا في بغداد ولا في لندن. فالح بقي منشغلاً بوطنه العراق على الرغم من أنه، وخلافاً لآخرين قرروا العودة بعد سقوط صدام حسين عام 2003، قرر أن لا يعيش فيه. ربما شعر بأن هذا ليس عراقه، وبأن هذا العراق هو موضوع لبحثٍ ولدراسة، لكنه لا يصلح اليوم لأن يكون موضوع حياة. مات في بيروت، المدينة التي كان وصلها في أواخر السبعينات ثم ما لبث أن غادرها إلى مغتربات أوروبية، ليعود إليها بعد عام2003 لأنها أقرب إلى بغداد التي بقيت مادة توتره ومولد طاقته إلى العمل وإلى مؤلفاته وكتبه عنها. كتب بالإنكليزية مؤلفات نشرها في لندن، وأخرى بالعربية، من بينها: «الديموقراطية المستحيلة – حالة العراق»، «معالم العقلانية والخرافة في الفكر العربي»، «الدولة والمجتمع المدني في العراق»، «العمامة والأفندي.»

في ربيع 2003 التقيت في بغداد فالح عبد الجبار، وكنت قصدت المدينة كصحافي لتغطية الحرب وما أعقبها بعد سقوط صدام حسين، وكان فالح جاءها كعراقي غادر بلده في أعقاب هجرة الشيوعيين العراقيين القسرية، وبرفقة فالح كانت الكاتبة فاطمة المحسن زوجته ورفيقة الهجرة والحزن العراقيين. يومها بدا لي فالح، المؤرخ والباحث والكاتب، صحافياً أيضاً، ذاك أننا ترافقنا معاً في رحلات إلى مدن الفرات الأوسط في العراق، أنا بهدف رصد ما أحدثه سقوط النظام في هذه المدن، وفالح لرصد ما تبقى من بنى عشائرية ومذهبية بعد سنوات القمع البعثي. كان في هذه الرحلات صحافياً أكثر مني، ذاك أنه انشغل كباحث بما يشغل الصحافيين، وراح يرصف لنا الوقائع الصغرى بصفتها مؤشراً لتحولات كبرى ليست بعيدة عن الحدث. زرنا، فالح وأنا، في حينه مقتدى الصدر في منزله في النجف، وفالح إذ راح يعاين وجه الوريث، لم يتردد بسؤاله عما اعتقد فالح أنني تعثرت بالسؤال عنه.

والأيام التي أمضيناها في بغداد وكربلاء والنجف أشعرتني بأن للرجل همة الصحافي ومنهج الباحث وعقل المؤرخ، وهذا ما مكنني أنا رفيقه في تلك الرحلات من كتابة سلسلة من التحقيقات عن الظاهرة الصدرية بصفتها حدثاً لم يكن في متناولنا نحن الذين عرفنا العراق من خارجه. وفالح الذي كان مهجوساً بالعشيرة والقبيلة بصفتهما الركيزة النواة في الظاهرة السياسية العراقية، كان هو من فسر لنا الصدرية بصفتها ظاهرة الأفخاذ العشائرية النازحة من أقصى الجنوب العراقي، كالناصرية والعمارة والبصرة، إلى بغداد، فأقامت في مدينة الصدر (مدينة صدام سابقاً)، وألف لها السيد محمد صادق الصدر (والد مقتدى(كتاب «فقه العشائر»، الذي

مثل وفق فالح دستوراً للعلاقة بين العشائر والمرجعية الشيعية.

ولعل فالح الذي انتقل من الماركسية إلى الليبرالية من دون أن يكون هذا الانتقال صدامياً، احتفظ من ماركسيته بحس الباحث الاجتماعي، وتخفف من البعد الحداثوي التبسيطي الذي سقط فيه غيره من المنتقلين إلى الليبرالية. فالطوائف والقبائل بقيت في صلب اهتمامه بصفتها وحدات سياسية ارتبط بها الكثير من الأحداث السياسية. المجتمع، وفقه، ليس ترسيمة نظرية حديثة بل هو هذه الوقائع الثقيلة، وهو عندما توجه إلى بغداد فور سقوط صدام تقدم حس الباحث في خطوته حسّ المبعد عن وطنه، فكان متحفزاً لرصد ما فاته من انهيارات.

وفي غمرة عودة الباحث إلى وطنه في ذلك العام، اصطدم مع غيره من العائدين بعراقٍ آخر غير الذي غادروه، فيومها كان فالحٌ وفاطمة والراحل جلال الماشطة عادوا إلى بغداد لملاقاة من غادروهم، فإذا بهؤلاء وبعد سنوات البعث والحرب والحصار أناس آخرون. صديقتهم في الحزب وفي جريدة الحزب وصلت إلى الفندق لملاقاتهم ليكتشفوا أنها محجبة، ويومها ردت على دموعهم بأن ذكرتهم بأنهم غادروها، وأن الحياة في ظل الحصار لم تعد ممكنة من دون حجاب.

الحياة، عدد الثلاثاء، ٢٧ فبراير/ شباط ٢٠١٨

قراءة تأمل منتخبة.. (في الأحوال والأهوال) للمفكر العراقي فالح عبد الجبار

مقداد مسعود

(نداء أو ابتهال من أجل التأمل في أصول العنف).. هكذا يصنّف المفكر العراقي فالح عبد الجبار، كتابه (في الأحوال والأهوال).. والكتاب يتكون من مبحثين:

* معاينة تحولات الذات
* معاينة تحولات العالم

وهناك ملاحق تلي المبحثين، سيقتصر اشتغالي على المعاينة الأولى.

(*)

في المعاينة الأولى يتناول المفكر فالح عبد الجبار: (انشطار وتمزق وتحول البنية الثقافية – الاجتماعية العربية في القرن العشرين).. أما في المعاينة الثانية فيكون الشغل، حول (انشطار وتمزق وتحول بنية العالم المحيط بنا)، ثم يحاول المفكر عبد الجبار: تأثيل اتصالية تشارك بين المعاينتين، فيتوصل الى اتصالية متباينة؛ فهي مرة مضمرة وأخرى صريحة..

والسؤال السيسولوجي هنا هو: هل يقصد المفكر فالح عبد الجبار: إن تجميع العالم الذي يؤسسه المجتمع لا بد أن يتم أيضا عبر اللغة باعتبارها رامزة، على وفق أداة تؤثر في ما هو خارج عنها، أي أن هذا التجميع يكون أيضاً، وعلى الأخص متجسدا ومنجزا داخل اللغة ذاتها – بشهادة الفيلسوف كورنيليوس كاستورياديس .-

(*)

التطور بنسخته العربية يختزل الزمن الأوربي (فقد انضغطت هذه الانتقالات في أقل من قرن قياسا الى أوربا – عدة قرون – فباتت النظم المعرفية المتعاقبة في الزمان متجاورة في المكان/ 17) هنا يتم حرق المراحل التاريخية، كما علمتنا المادية التاريخية .وهنا سيكابد المكان العربي كثيرا وتكون النتيجة (توترات وانشطارات وتشظيات متشعبة داخل البنية الاجتماعية – الثقافية..)، ومنها ينبثق سؤال أزمة الهوية: مَن نحن؟ بتوقيت افتضاض عزلة الكيانات القبلية والطوائف القديمة والكيانات الحديثة المسماة: الدولة القومية .

من هنا يحق للروائي عبد الكريم العبيدي أن يصرخنا أجمعين (كم أكره القرن العشرين)، فهو قرن الحروب الكونية وغير الكونية، والحروب الأهلية وإنقلابات بساطيل العسكر والمستعمرات المسلفنة جمهوريا. ومسالخ الديمقراطيات.

القرن العشرين: جسرٌ يمتد من الأمبراطوريات المقدسة الى حداثة الدولة المركزية ومنها الى الدولة القومية التي استبدلت المواطن المجرد بالرعية، مع الحفاظ على مفهوم المبايعة وتراجع مفهوم الانتخابات.

(*)

المفكر فالح عبد الجبار، ينضّد تراتبية حقلية خماسية لتوترات المعاينة الأولى المنشغلة بتحولات الذات: يرصد في الحقل الأول التوتر البنيوي الثقافي العام من حيث وجود (أنماط ثقافية، متعددة، متصادمة، متراكبة /23) وهذه الأنماط في احتراب دؤوب من أجل صيانة القار ثقافيا، الراسخ في أنظمة السلوك الجمعي: ميثولوجيا/ اجتماعيا.. بالمقابل هناك الحقل الثاني للتوتر المنشغل بمنتوجه الحداثي للثقافة وهو إنشغال مؤسساتي/ ثقافي، سيؤدي الى سيادة مطلقة للمؤسسة على حساب الفرد المثقف، المصاب بالتشظية والتجزئة.. أما الحقل الثالث فهو صعود الثقافات الدنيا، من خلال عنكبوت التقانة من جهة، والمدعوم بمتغيرات المجتمع المؤدية الى التسارع الجمعي.. وهنا نلاحظ أنّ عنكبوت التقانة أنهت مثنوية النخبة/ الجماهير، وأوصلتنا إلى مجتمعية تداولية، الأفراد ليس رعايا بل مواطنون؛ فعنكبوت التقانة نقلت الاقتصاد من العضلة الى المعرفيات. وبشهادة دانيال بيل (الدولة أصغر من أن تحل المشكلات الكبيرة وأكبر من أن تحل المشكلات الصغيرة).

أما الحقل الرابع فهو أرجحة الثقافة بين

تسليع السوق ---------- احتكار الدولة المؤدي إلى -------- مأسسة الثقافة الحديثة

هنا يتضاءل دور المثقف ويتشظى وأحيانا يتقهقر، فهذا التقسيم للعمل المعرفي يجسد جورا باهضا، وهكذا تتنامى وتتسع وتتعملق سلطة المعرفة المؤسساتية التي ستنتج ثقافات التسلية المرئية عبر الفضائيات

كما ترتبط الثقافة ارتباط وثيقا بالسوق كبضاعة. وهناك الجانب الثاني من العملة ذاتها.. (أن صناعة المعلومات أو صناعة الثقافة، حسب اقتراح أدورنو وهابرماس: تشكل الآن القطاع الرابع الجديد، الذي تتجه إليه الرساميل وقوى العمل المتخصصة على نحو متزايد/ 58).

ومن أزمة الهوية العربية: يتشكل/ يتوتر، الحقل الخامس: مَن نحن وإلى أين؟ ويرى المفكر فالح عبد الجبار: إن هذا التوتر الخماسي متداخل ومترابط أوصلنا الى العنف الثقافي بين الأطراف الثقافية.. هنا يتوقف المفكر عبد الجبار عند مفهومين مترابطين فيما بينهما : مفهوم الثقافة ومفهوم المثقف. وينقل لنا المفكر عبد الجبار (160 مفهوما متباينا للثقافة/ ص25) ثم يعيننا بمقترح مفهومي وهو كالتالي (.. ثمة إمكانية لتعيين مفهومين للثقافة، الأول عام واسع، فكري – مادي أي يشمل المنتجات الفكرية والوسائط التكنولوجية، والثاني خاص، أضيق، يختص بمنتجات الفكر وحده).

(*)

أتوقف عند الثقافة الأبجدية وهي التمرحل الثاني بعد الشفاهية التي تعد التمرحل الأول ومرحلة الأبجديات هي من أخصب المراحل المعرفية فهي (التي أنتجت الأديان الشاملة والفن والأدب والفلسفة/ 30) وفي هذا السياق يلتقط المفكر عبد الجبار فيلسوفا عظيما مثل هيغل الذي يرى في هذا النسق الثلاثي: الفن – الدين الفلسفة: تطور الروح المطلق عبرلحظات تطورية من الوجود المحض، إلى الجوهر، وصولا الى المفهوم، ويرصد هيغل (تحول الروح عبر دين الفن عن صورة الجوهر ليدخل في صورة الذات، لأن دين الفن ينتج شكل الروح، فيضع هذا الدين إذاً في داخله الفعل أو الوعي – الذات / 718 - هيغل/ فنومينولوجيا الروح).

لكن أوربا نفسها سرعان ما خذلت: قمة الميتافيزيقيا الموضوعية - هيغل؛ ففي 1861 انحسرت سعادة الفلسفة حتى موطنها ألمانيا. - بشهادة أريك هوبزباوم/ ص448 - عصر رأس المال. هيغل الذي اكتشف مثلث الديالكتيك في: جدل الفكر – جدل الطبيعة – جدل الإنسان، ولم ينتصر لهيغل سوى رأس البروليتاريا: كارل ماركس حين أعلن (إنني أعلن على الملأ أنني واحد من تلاميذ هذا المفكر العظيم/ هوبز باوم).

(*)

ويرى المفكر فالح عبد الجبار، أن لبنية الثقافة الأبجدية أبطالها (الشاعر، الفقيه، والفيلسوف)، وأن التوتر في الثقافة الأبجدية يكشف عن بنية متفاعلة/ متصادمة ولا فرق بين مصير سقراط ومعركة الغزالي/ ابن رشد، وفي هذه اللحظة التاريخية يرى فالح عبد الجبار (لقد تحورت بنية الثقافة الأبجدية في تاريخ الرقعة العربية بانهيار حقلها العقلي، أو انتهاء النظر الفلسفي، وبقاء ما اصطلح عليه بالمعرفة النقلية: توقف النظر الفلسفي، توقف علم الكلام، زوال الصوفية الفلسفية، ثم يشخص السبب كالتالي (لا يرجع ذلك كما نعتقد، الى خصوصية جوهرية، لا عقلية في الثقافة العربية – الاسلامية الكلاسيكية، بل فرضية أخرى ترى في حروب الحضارات: دمار بغداد، (كدمار أثينا، بالنسبة للحضارة الاغريقية)، زعزعة الاستقرار بفعل التعاقب المدمر للسلالات (غزوات القبائل البدوية).

(*)

في حين يذكر المفكر فالح عبد الجبار، سقراط وابن رشد، فهو يميز بين نظامين معرفيين: الأول، نظام معرفي يقوم على قاعدة العقل البشري ـ سقرط. أما ابن رشد: فنظام معرفي يقوم على الوحي . نلاحظ أن المفكر عبد الجبار: لا يجغرف المعرفيات. بل يشخصن هويتهما المعرفية: سقراط جهويا ينتسب للعقل البشري. أما ابن رشد فينتسب للوحي، وهذا هو الانتساب العام، لكن ابن رشد مرحليا ينتسب لحقبة (العقل المستقيل في الإسلام؟)، أما حصر كل ما جرى للعقل العربي الإسلامي بسبب غزوات القبائل البدوية، فغير مقنع. وهنا أقترض من المفكر جورج طرابيشي وأقول "إن مأساة أفول العقلانية العربية هي مأساة داخلية، ومحكومة بآليات ذاتية، وغير قابلة للتعليل بأي، حصان طروادة، أيدلوجي أو ابستمولوجي متسلل من الخارج/ 424 - جورج طرابيشي).

يتفق المفكر فالح عبد الجبار مع الذين سبقوه في هذا المضمار حول انهيار الحقل العقلي وانتهاء النظر الفلسفي وبقاء ما اصطلح عليه بالمعرفة النقلية: وتوقف النظر الفلسفي، وتوقف علم الكلام وزوال الصوفية الفلسفية. ان هذا الرصد الدقيق، أعني هذا المتغير الفادح الذي يطلق عليه المفكر فالح عبد الجبار (تحور بنية الثقافة الابجدية في تاريخ الرقعة العربية) سيطلق عليه المفكر طرابيشي: (تحول) وهو (تحول من إسلام الرسالة الى اسلام التاريخ، أي من الإسلام الذي كان الرسول بموجبه مشرّعا له، إلى الإسلام الذي صار الرسول بموجبه هو الشارع)، والفرق بين الإسلامين أعني إسلام الرسالة وإسلام التاريخ، يكاد يقترب من القطع المعرفي، فقد انتقل الاسلام نقلة لاهوتية. يرى المفكر طرابيشي إن الإسلام انتقل (من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث). وما جرى من غلبة إسلام الحديث، هناك من يرى فيها رؤيته للصيرورة التاريخية التي هي (ليست وليدة الأحداث التاريخية المعزولة، بل وليدة نسيج حدثي واجتماعي، أي مسار تاريخي كامل/ 87 - العفيف الأخضر - إصلاح الإسلام)، وسبب الانهيار العقلي الذي يرصده المفكر فالح عبد الجبار، تراها قراءتي المنتجة، اتصالية تباين عقلي بين (عقل يتعقّل النصوص وعقل يُعقلن النصوص).. والمسافة شاسعة بين العقلين.

*** فالح عبد الجبار/ في الأحوال والأهوال/ دار الفرات/ بيروت/ ط1/ 2008.**

العالم حي لا يندرس ذكره (فالح عبد الجبار)

ماجد زيدان

سمعت عن عالم الاجتماع فالح عبد الجبار وقرأت له في بغداد عندما كان يعمل في طريق الشعب، والتقيته وعرفته عن قرب في دمشق، المنفى قربني منه كانسان اكثر. في نشاطه المتنوع والغني دائما تجده حاضرا امامك في اي محفل او منتدى ثقافي يعقد انذاك، يناقش بحيوية ويطرح افكاره بجرأة، وامتلك قدرة كبيرة على الاقناع في ساحة سمتها الصراع الفكري والسياسي بين قواها المعارضة في سنواتها الاولى رغم الغربة، فجاء مؤلفه الذي صدر عن (مركز الابحاث..) في عام 1983 بعنوان "المادية والفكر الديني المعاصر - نظرة نقدية"، ليكون سلاحا بيد اليساريين والديمقراطيين في مواجهة الاسلام السياسي الذي كان يجهد للنيل من القوى الاخرى!

عندما عملت في ادارة مجلة "النهج" ومركز الابحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي كانت لديّ صورة مغايرة عنها، وتغيرت منذ اليوم الاول، فهذه المجلة الواسعة الانتشار والرصينة، كانت الاكثر طباعة لاعدادها وتوزع في بلدان عديدة العمل، كله يرتكز على دعامتين، هما الماهر الحاذق ـ ماهر الشريف عضو ل.م حزب الشعب الفلسطيني، والكاتب فالح عبد الجبار، وليقع لاحقا جله عليه لانشغال الشريف بمكتب حزبه. كان كتلة من النشاط وشعلة متوهجة ليس على صعيد المعرفة وانما على نسج العلاقات مع الكتاب والباحثين، وولى عناية خاصة بالشباب منهم، ونشر للعديد منهم مقالات ودراسات بل وكتب في المركز وخارجه بتوصية منه.

مرة سألته من اين تجد الوقت لكل هذه الاشياء، وكيف لا تنسى، قال اعرف كم مرة قلت لكم عن اشياء ولم تعملوها وكان مصيبا. آنذاك كانت مديرة المكتب طيبة الذكر السيدة الرفيقة ليلى محكومة بالتوجيهات و"الجود من الماجود"، دائما تجيبني على الطلبات "غلس".. وعندما سافر الى لندن ذكرنا مازحا بذلك. قريحته منفتحة على اقتراحات وافكار تطويرية، ولكنها تصطدم بالواقع والامكانات.

قال ان يوم عمله يستمر من الصباح الى ساعة متأخرة من الليل، ويقرأ يوميا ما بين 400 - 500 بين مقال ودراسة وبعض الفصول من كتب الى جانب ما يكتبه.

فالح كان متقشفا في حياته، قريب من نهاية الشهر، يقف بباب الغرفة قائلا: خلي نروح على واحد نستدين منه، ولا يطالبنا بالتسديد، وليس هناك من هو اكبر من دائن المرحوم غانم حمدون.. يذهب.. تشيعه ليلى بابتسامتها، لانها لا تدفع الرواتب الا في اليوم الاخير من الشهر.

تمتع بصفات الحنية عندما عملت في المجلة، اكد على الاستفادة من خبرة الشهيد ابو فرات ''هادي صالح'' في المسائل الطباعية، وكان على علاقة مميزة به، ورثاه لاحقا في جريدة الحياة اللندنية في صورة من صور الوفاء للعاملين والمعارف معه.

لاحظت ان الكثير من الكتاب والباحثين ينادونه بلقب دكتور، حتى مرة في ندوتي مجلة النهج الموسومة اكتوبر، وتجديد العالم عام 1987، والاخرى ''البريسترويكا'' عام 1989 يراجعه المنتدون بشأن مداخلاتهم لتواضعه وتبسطه ويناقشونه في طروحاته المتميزة وينادونه باللقب العلمي وينفي ولكن لا فائدة لما يتمتع به من ثقافة وذكاء، يمازحهم ابو نبيل قائلا: تره هو صف ثالث متوسط ما مخلص واني صف خامس ما مخلص.

ذهب فالح الى لندن، واستقر هناك. كنا نتابع اخباره وانتاجه والتحولات في افكاره، وعندما يزور كوردستان استفدنا من وجوده، فكانت تجتمع اللجنتان المركزيتان للاستماع الى جديده ورؤيته للتطورات الفكرية والسياسية (حشع ـ حشك). كم اسهم في ندوات عقدت في الاقليم والقى دراسات فيها تميزت بالابتعاد عن المباشر والاستفادة من التاريخ والتجريد النظري لايصال افكاره في تجنب للتقاطعات والانتقادات التي قد لا يقدر الهدف منها البعض والحث على ما يجب ان يكون عليه الاقليم.

لم يقتصر نشاطه على الكتابة والبحث وانما نقل المعرفة الى الاجيال الجديدة وتدريبها؛ ففي كوردستان شارك ببناء برامج من خلال معهد الديمقراطية وحاضر فيها ... الى ان تمكن من تكوين مركز دراسات عراقية الذي تدرب به عراقيون من كلا الجنسين لغاية الان يشيدون بتجربتهم فيه.

حقا، ما تركه العالم فالح عبد الجبار ''ابو خالد'' اثرى المكتبة العربية والعالمية والعرفة عموما.. نم قرير العين، لن يندرس سيكون موضوع دراسة واستشهاد وبحث ويشار اليك والى هذا النتاج بالبنان وسيتذكرك محبوك والمثقفون بما يلق.

فالح عبد الجبار في ذمة التأريخ

صادق محمد عبد الكريم الدبش

رحل غريبا عن وطنه مكللا بأكاليل الغار..
وتشدو حوله طيور السلام لتحمل لبلده وشعبه!
بشراكم اليوم!...
عاد الطائر المحلق بعيدا!!!.. بعد رحلة دامت أربعة عقود!..
ليقطع تذكرة العودة الأخيرة!..
مجدا لذكراك د. فالح أيها المبدع والمثقف.. أيها الإنسان
عزاء وصبرا لأهلك ومحبيك، ولرائدي وحاملي مشعل التنوير والثقافة..
نقول للملايين!.. إن نجما هوى في بلاد سومر وأكد وأشور وحمورابي وجلجامش والحلاج والمتنبي وعلي الوردي وعلي جواد الطاهر وكامل شياع وغانم حمدون!..
يلتحق بهذه الأقمار المنيرة بشكل سرمدي ودائم، وما بقيت على الأرض حياة!..
نعم، ترجل اليوم عن صهوة الفكر والعلم والبحث!..
المتمرد على واقعه الباحث عن كل ما يساعد على تلمس سبل الحياة الأجمل والأسعد!..
رحل بكل تواضع وهدوء ومن غير ضجيج وبهرجة ومراسم!..
ليودع العالم وهو في أسمى حالات الانبهار والتألق والبحث والتنوير!..
عن مكنون فكره وجهده وبحثه، واجتهاده وابداعه وعطائه!..
وما أعطاه من عصارة تفكره وفكره المتوهج البديع!..
في لحظاته الاخيرة من على احدى الوسائل الإعلامية!..
يقول كفاني ما ذهبت اليه.. فقد أزف موعد الرحيل!..
دعوني احط الرحال وأذهب للسكون!..
يؤلمني الوداع والنظر في عيون من أحب وهم كثر!..
قال أحبكم وهو في سكرة الخلود.. همسا وإيماء وبسملة وتهجد!..
لكن لم يسمعها سواه.

الراحل فالح عبد الجبار في المجر

د. علي الخالدي

من الأمور التي تفرض نفسها على الذاكرة، ولا تنسى هي رفقة العمل المشترك التي لازمت تواجد الاكاديمي والمفكر الذي رحل عنا فجأة فالح عبد الجبار. فبرحيله هذا ترك فراغا من العسير تواجد من يسده. لقد كرس طيب الذكر حياته الحافلة بالبحث والتنقيب في علم الإجتماع السياسي، فخرج بدراسات واضحة المسار لإرتباطها بفكر الطبقة العاملة العراقية.

في عام 1975 حل في بودابست في دورة صحافية قصيرة، أصر بها هذا الكاتب المرموق، على العمل بصفوف منظمتنا رغم قصر اقامته التي كانت تعيق الإلتحاق بها. لقد كرس الراحل إقامته في المجر لمواصلة شق طريق البحث ورصد الظواهر السياسية في العراق بالإرتباط مع المتغيرات في حياة الشعوب على الصعيد العالمي، ولقصر إقامته تحفظنا على رغبته في مواصلة نشاطه الحزبي في منظمتنا رغم ما كان يحمله من ترحيل .

لقد استغربنا من تواضعه وإلحاحه للعمل في خلية، واتذكر ما كان يريده من نشاط وتحمس حزبي، لنشر الفكر الماركسي بين أوساط الحزبين. وبصورة خاصة حديثي الإنتماء، حيث كان صاحب مقولة لا تزال ترن في أذني، أن حتمية الماركسية ليست متماهية مع حتمية الظواهر الفلكية. إنها لن تتحقق إلا بإرادة الإنسان وجهاديته، دون تفلسف بالأمور. من هذا المنطلق كان يصر على ممارسة حقه في العمل الحزبي مؤكدا رغبته في العمل ضمن خلية أصدقاء، لأن ذلك كما قال يبيح له إمكانية نشر وعي الطبقة العاملة الكادحة ودورها التاريخي الذي عليها أن تلعبه لإنقاذ نفسها والبشرية جمعاء في فكر رفاق المستقبل، لأنهم كما يقول بأيديهم سينتشر الإيمان بالمبادئ الفكرية للطبقة العاملة. ولن توقفهم الإجراءات الهمجية ولا قوة السلاح .

لقد تحقق ما اراد بجانب، منتهزا فرصة تواجده القصير في المجر (بضعة أشهر) ليستغله في ترجمة كتاب عن تجربة الطبقة العاملة المجرية (لم تسعفي الذاكرة تذكر عنوانه) إلى العربية، وصدر كتابه في بغداد على ما أتذكر .

كنا نتحايل عليه لنقتنص من وقته الذي أزحمه بالبحث وقراءة ما تقع عليه يده من كتب في مكتبة المنظمة، للقائه والتشبع بما كان يتحدث به من امور دنيوية تزيد معلوماتنا النظرية، كان معشره محبب لكل من التقاه.

آخر لقاء عائلي معه في سوريا ونحن عائدين من صنعاء، ومستعدين للذهاب إلى ليبيا للعمل. ألح به علينا أن نحدثه عن الشعب اليمني في الشمال، وعن مشاهداتنا وعن مظاهره الإجتماعية، وشغل باله عما ذكرنا

له من زيارتنا لقرية يهودية قرب صنعاء، وطالبنا بمعاودة الزيارة لإستكمال حديثنا، لكن الوقت لم يسعفنا.

إن رحيله المفاجئ يعد خسارة ليس للحزب الذي علمه كيفية شق طريقه في البحث العلمي، وإنما خسارة للحركة الوطنية العراقية، فقد فقد شعبنا باحثا وعالما اجتماعيا وسياسيا ذا خصال عراقية النهج والسلوك، وما تركه سيكون معينا يغرف من تعرف عليه، ما يُقوّم من مداركه في محاربة الخمول وروح القناعة والإستسلام، والإطلاع على أسلوبه الفريد الذي امتاز به في مخاطبة الناس على قدر عقولهم كما كان يقول.

الصبر والسلوان لأفراد عائلته ومحبيه والعزاء لشعبنا لهذه الخسارة الفادحة

بمشاركة سياسية وثقافية وجماهيرية مميزة
الشيوعي يؤبن الباحث الكبير فالح عبد الجبار

أقام الحزب الشيوعي العراقي، عصر الخميس الماضي في بغداد، جلسة تأبين للباحث والشخصية الوطنية الفقيد د. فالح عبد الجبار، الذي فارق الحياة صباح يوم 26 شباط الماضي، إثر تعرضه الى جلطة قلبية مفاجئة.

حضر الحفل الذي أقيم على قاعة منتدى "بيتنا الثقافي" في ساحة الأندلس، سكرتير اللجنة المركزية للحزب الرفيق رائد فهمي، والسكرتير السابق الرفيق حميد مجيد موسى، وعدد من قياديي الحزب، إلى جانب وزير الموارد المائية د. حسن الجنابي، الذي ألقى كلمة تناول فيها إلى جانب القيمة العلمية والأكاديمية للفقيد، محطات يومية عكست علاقته به.

كما حضر الحفل رئيس حزب التيار الاجتماعي الديمقراطي د. علي الرفيعي، وعدد من الشخصيات الوطنية والديمقراطية والثقافية.

الكاتب رشيد غويلب الذي أدار الحفل، استهله مشيرا إلى الخسارة الفادحة، والفراغ الكبير الذي تركه رحيل الفقيد. ثم دعا الحاضرين إلى الوقوف دقيقة صمت إكراما للراحل وغيره من الراحلين الذين فقدتهم الأوساط الثقافية والفكرية والعلمية خلال الأسابيع والشهور الفائتة.

وقدم غويلب خلال فقرات الحفل، عرضا مختصرا لمحطات من حياة الراحل ولأبرز

مؤلفاته وترجماته.

بعد ذلك ألقى عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي، الرفيق رضا الظاهر، كلمة اللجنة المركزية (تجد نصها الكامل في مكان اخر من هذا الملف - المحرر)، وقال في بدايتها "نعزيكم وعائلة فقيدنا الكبير، وكل شغيلة الفكر والمثقفين، وسائر الوطنيين ومحبي الحياة".

وأشادت الكلمة بالفقيد باعتباره باحثا تنويريا كبيرا، وسلطت الضوء على سيرته النضالية في صفوف الحزب، والتصاقه به حتى آخر أيامه، فضلا عن عمله في جريدة "طريق الشعب" ومجلة "الثقافة الجديدة"، وضمن حركة الأنصار الشيوعيين العراقيين المسلحة في جبال كردستان. كما تناولت الكلمة النشاط البحثي والأكاديمي المتميز للفقيد في الجامعات البريطانية والعديد من عواصم ومدن العالم.

بعدها قدم عضو المجلس المركزي للاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، الناقد علي الفواز، مداخلة تحدث فيها عن المنهجية النقدية التي اعتمدها الفقيد في اشتغالاته الفكرية، مشيدا بجرأته وصراحته في طرح كل ما هو جديد، وفي تناول الملفات الاجتماعية والسياسية المثيرة للجدل.

فيما ألقى د. احمد ابراهيم كلمة المجلس العراقي للسلم والتضامن في المناسبة، والتي ألقت الضوء على الجهد البحثي والفكري للفقيد ومساهماته في تناول مفاهيم مثل الدولة، القومية، والحركة الاحتجاجية.

من جهته، قرأ عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي وعضو هيئة تحرير مجلة "الثقافة الجديدة"، د. سوران قحطان، مقاطع ضافية من النعي الذي أصدرته هيئة تحرير المجلة عشية رحيل د. فالح عبد الجبار.

وتخللت الحفل مداخلات تناولت نتاج الراحل الفكري والأكاديمي، والمنهجية التي اعتمدها في بحثه الدائب والمتسع. فيما استعرض بعض المداخلات انطباعات شخصية عن الراحل، ناتجة عن المعايشة المباشرة والعمل المشترك. وقد ساهم في المداخلات كل من أستاذة علم الاجتماع د. لاهاي عبد الحسين، الشاعر شوقي عبد الأمير، أستاذ الفلسفة في الجامعة المستنصرية د. علي المرهج، أستاذ العلوم السياسية في جامعة الكوفة د. إياد العنبر وأستاذ الاقتصاد السياسي والباحث المعروف د. عقيل الناصري.

جريدة "طريق الشعب" ص الاخيرة
الثلاثاء 6/ 3/ 2018

مقـــــالات

التجديد في الاشتراكية كضرورة تاريخية في شروط العصر

كريم مروة

أشارك في هذه الندوة (*) في مئوية ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى بصفتي اشتراكياً منذ ما يقرب من سبعين عاماً. وبانتمائي إلى الاشتراكية من الموقع الذي كنت أعطيته لنفسي في شبابي الباكر كقومي عربي ديمقراطي النزعة، إنما كنت أدخل نفسي في المشروع الذي أعلنه ماركس، مشروع تغيير العالم باسم الاشتراكية. وبهذا المعنى فإنني إذ أشارك اليوم في هذه المناسبة التاريخية فلكي أؤكد استمرار انتمائي إلى قيم الاشتراكية ومبادئها الأساسية باسم ماركس وإنجلز ولينين، وأعتز بالإنجازات التي حققتها الاشتراكية باسم ثورة أكتوبر في المرحلة الأولى منها. لكنني في الآن ذاته أعلن بوضوح أنني ومنذ وقت مبكر، شخصياً وباسم الحزب الشيوعي اللبناني الذي انتميت إليه، بدأت وبدأنا نعلن اعتراضنا على ما ساد في التجربة الاشتراكية من خلل أساء إليها وإلى قيمها وإلى أبطالها الأوائل. وأعلنت في أكثر من مناسبة تقديري الكبير للقائدة الشيوعية التاريخية الشهيدة روزا لوكسمبورغ، تقديري لسيرتها البطولية وتقديري لجرأتها في نقد لينين حول الديمقراطية. وقد دفعت حياتها ثمناً لجرأتها على يد الفاشيين. وللقائدة روزا لوكسمبورغ شركاء، كل من موقعه، في تقديم آرائهم الجريئة في الانتماء الحقيقي إلى الاشتراكية بأهم صفاتها وأهم قيمها الحرية والعدالة الاجتماعية والديمقراطية والتقدم والطابع الإنساني الذي أشار إليه ماركس باعتبار أن الإنسان هو القيمة الأساسية في الوجود.

ومن المؤكد، استناداً إلى ما تعلمته من أفكار ماركس وإنجلز ولينين وبليخانوف وروزا لوكسمبورغ وغرامشي وجورج لوكاش وآخرين من كبار رواد الاشتراكية، فإن انهيار التجربة الاشتراكية بسبب الخلل البنيوي الذي ساد فيها على امتداد عقود طويلة لا يعني بالمطلق أن للتاريخ نهاية. فالتاريخ هو تواصل وتجاوز ومحطات فيها تقدم وفيها تراجع. لذلك، وأنا أشارك في الاحتفال بمئوية ثورة أكتوبر وبتقديري لدورها التاريخي وللإنجازات التي تحققت باسمها، فإنني أعلن أننا كاشتراكيين كنا وما زلنا وسنبقى مدعوين للاستفادة من الدروس التي أعطتنا إياها التجربة على امتداد ثلاثة أرباع القرن. وبالاستناد إلى هذه الدروس وإلى المراجعة النقدية الضرورية للتجربة واكتشاف عناصر الخلل التي قادتها إلى الانهيار نحن مدعوون إلى إعادة صياغة المشروع الإشتراكي في شروط العصر، وأن نأخذ في الاعتبار الاختلاف في هذا المشروع بين بلد وآخر مع تعظيم العناصر

المشتركة بين مختلف المشاريع الخاصة بكل بلد لتأسيس أممية من نوع جديد مختلفة اختلافاً جوهرياً في الشكل وفي المضمون عن الأمميات السابقة التي حملت اسم الاشتراكية. وقد كتبت الكثير في عدد من مؤلفاتي حول التجربة وحول إنجازاتها وحول عناصر الخلل فيها، وقدمت أفكاري حول ما أعتبره شروطاً جديدة تتعلّق بالعصر الذي نحن فيه ومختلفة في أمور عديدة عما كانت عليه الاشتراكية بما في ذلك بعض العناصر الأساسية فيها. وهو ما سأحاول تبيانه بعد قليل.

ومن أوائل ما سأشير إليه في مداخلتي ثلاثة أمور؛ الأمر الأول، هو التذكير بعناصر الخلل التي اكتشفتها من خلال قراءتي للتجربة في محاضرة ألقيتها في عام 1993. وعدد عناصر الخلل هذه خمسة عشر خللاً بنيوياً. الأمر الثاني، هو أنني استفدت من قراءتي لأفكار بليخانوف في وصيته التي نشرها في عام 1918 عام وفاته. إذ هو أعلن بوضوح استناداً إلى شروط العصر تقديره بأن الطبقة العاملة لم يعد دورها كما كان قد تصوره لها ماركس. إذ أشار بليخانوف إلى الدور البالغ الأهمية للتكنولوجيا وللأنتلجنسيا في صياغة المشروع الاشتراكي واستمرار الثورة باسمه. الأمر الثالث، يتصل بقراءتي لأفكار لينين في السياسة الاقتصادية الجديدة (النيب) التي أحدث فيها لينين تغييرات جوهرية في أفكاره وسياساته باسم الإشتراكية من موقع السلطة. وأهم ما استخلصه من التجربة في بداياتها أنه لا بد من إعطاء دور للرأسمال لإعادة بناء روسيا التي دمرتها الحرب والحرب الأهلية. واعتبرَ ذلك خياراً لا بديل منه. وعاد إلى ماركس الذي كان قد اعتبر أن الانتقال من الرأسمالية إلى الإشتراكية إنما يتمّ من أرقى مرحلة في تطور الرأسمال وأرقى مرحلة في تطور القوى المنتجة وأرقى مرحلة في نضال الطبقة العاملة باسم الإشتراكية. وقال لينين للشيوعيين بأنه لا خيار أمام سلطة العمال والفلاحين إلا دعوة الرأسمال لبناء روسيا بشروطه وليس بشروط السلطة، وأن على الشيوعيين بذل أقصى جهد لعدم السماح للرأسمال بإسقاط سلطة العمال والفلاحين. ودعاهم إلى استقبال الفشل إذا ما حصل في الصراع مع الرأسمال استقبال ذلك بدم بارد.

وكنت قد أعلنت سابقاً وأعلن اليوم بأن الستالينية التي سادت بعد وفاة لينين هي التي عطلت ما كان قد بدأه لينين في السياسة الاقتصادية الجديدة. وما أكثر ما اتصل بالستالينية من أخطاء معظمها كان بمستوى الجريمة.

في ضوء ما تقدم أود أن أتوقف بإيجاز عند بعض الأمور التي أرى أنها هي التي تعطي المعنى الأساسي لاحتفالنا بمئوية ثورة أكتوبر. وأول ما أريد أن أقوله من على هذا المنبر من دون مبالغة بأن ثورة أكتوبر عندما قامت في الشروط التاريخية التي لن أدخل في تفاصيلها، وهي شروط بالغة التعقيد والتناقض، كانت بذاتها الحدث الأكبر في القرن العشرين. وتركت بصماتها على القرن بالجانب العظيم المرتبط بالقيم الإشتراكية وبالإنجازات التي تحققت باسمها وبالأسماء الكبيرة التي أعطت للقرن صفته من جهة، والجوانب السلبية التي اعتبرتها في قراءتي للتجربة عناصر الخلل البنيوية التي قادتها إلى الانهيار بعد ثلاثة وسبعين

عاماً من قيام ثورة أكتوبر من جهة ثانية.
أعلن ذلك لكي أتحرر من الدخول في التفاصيل المتصلة بما اعتبرته منذ وقت مبكر بحدود معينة وبالتدريج تناقضاً كان يكبر بين القيم الأساسية في الاشتراكية، قيم الحرية والحقوق الأساسية للإنسان قيم التقدم والعدالة الاجتماعية، وبين الممارسة في الفكر وفي السياسة وفي المؤسسات وفي العلاقات بين الناس وبين الدول التي كانت بمجملها نقيضاً فظاً من وجهة نظري للقيم الآنف ذكرها.
لكن هذين الإقرارين من قبلي في هذه المناسبة بالذات لا يعنيان بالنسبة إلي بكاء على الأطلال. فكما أشرت في مطلع مداخلتي بأنه لا نهاية للتاريخ أود أن أؤكد بأننا إذ نحتفل بهذه المناسبة فإن المهمة الأساسية المطروحة أمامنا هي كيف نستعيد القيم الاشتراكية التي وضعها وأسس لها ماركس وإنجلز ورفاقهما في شروط العصر الجديد. وهي شروط تختلف اختلافاً جذرياً عن الشروط التي أعلن فيها مؤسسو الماركسية إشتراكيتهم على أساسها. وأذكر هنا بأن ماركس قد دعا في أكثر من مناسبة إلى عدم تحويل الأفكار إلى عقائد جامدة. واعتبر بأن للأفكار تاريخها. وأهمية التذكير بما أشرت إليه عند ماركس هي للقيام بما هو مطلوب منا في إعادة صياغة أفكارنا استناداً إلى التجربة وارتباطاً بشروط العصر. وهي صياغة تتطلب الإناة والتفكير العميق وقراءة الواقع على صعيد كل بلد وعلى الصعيد العالمي من أجل استخلاص ما هو ضروري لإعادة حركة التاريخ في الاتجاه الذي بدأه ماركس تحت شعار تغيير العالم باسم الإشتراكية.

واسمحوا لي هنا أن أقول بعض ما لا يحب أن يسمعه شيوعيون معاصرون. لكنني سأقول كلمتي وأتابع عملي الفكري والسياسي من الموقع الذي أنا فيه مستقلاً عن أي انتماء، يساري أو غير يساري، ومن دون انتماء إلى التاريخ الذي مضى والذي لا أتنكر له، لكنني أتجاوزه. اسمحوا لي أن أقول بأن انهيار التجربة الاشتراكية، بعد تلك العقود الطويلة وبما ترتب على ذلك الانهيار بسبب عناصر الخلل البنيوي فيها، لا يعني بالنسبة إلي على الإطلاق التنكر للقيم الأساسية في الشيوعية. بل إن المهمة الأساسية المطروحة أمامنا هي استعادة هذه القيم في صيغ معاصرة وبأفكار جديدة وبمهمات واقعية. فمن دون ذلك نكون أمام إحتمال تكرار التجربة. والتكرار كما أشار إلى ذلك ماركس سيكون بصيغة مهزلة أو كارثة. أقول ذلك لأنني آخذ في الإعتبار أمرين؛ الأمر الأول، هو أن كلمة شيوعية صارت مرتبطة بفشل التجربة. الامر الثاني، هو أنني أعتقد أن أحداً لا يستطيع في الظروف الراهنة أن يحدد لي ولسواي ما هو شكل النظام الذي يحمل اسم الشيوعية في عصرنا الراهن.
إن ما أعتبره ضرورة تاريخية الآن في ضوء ما نشهده من متغيرات لا حصر لها، باسم العولمة الرأسمالية البالغة في توحشها وباسم من يدّعون أنه خلاف ونقيض لها، وفي ظل الحروب الأهلية في بلداننا وما ولدته ويمكن أن تولده من ظاهرات غريبة عجيبة كظاهرة داعش التكفيرية المتوحشة، إن ما أعتبره ضرورة تاريخية في هذه الشروط التي أشرت إليها في عالمنا المعاصر هو العمل الدؤوب لتأسيس كتلة تاريخية جديدة متعددة

ومتنوعة تضع أمامها مهمتين مباشرتين طويلتيّ المدى والنفس مرحلة إثر مرحلة. وما يعنيني هنا بالذات هو ما يتصل ببلداننا العربية حاضراً ومستقبلاً. المهمة الأولى هي مناهضة العولمة الرأسمالية بعناصر التوحش المتزايدة فيها على الصعيد العالمي وعلى صعيد كل بلد بما في ذلك بلداننا. وهي مهمة ينبغي أن نتعامل معها بدقة. وأشير هنا إلى ضرورة أن نتخلى عن فكرة سادت في تجربتنا الإشتراكية وهي فكرة العداء المطلق للرأسمال. صحيح أن خصمنا هو الرأسمال. لكن من دون الرأسمال لا نستطيع أن نحقق التقدم. غير أن ذلك يتطلب منا أن نعمل بكل طاقاتنا لكي نفرض بالصراع الديمقراطي على الرأسمال القيام بواجبه في عملية التقدم ونفرض عليه في الآن ذاته التخلي عن كثير مما يتناقض مع مهمته التاريخية تلك باسم المصالح الخاصة وفي مقدمتها تحقيق الأرباح بأي ثمن. وانطلاقاً من هذه النقطة أطرح المهمة الثانية. وهي مهمة أساسية تتلخص في ضرورة العمل بواقعية ومن دون أية شعبوية ومن دون أية شعارات لصياغة برنامج عمل حقيقي للتغيير باسم الديمقراطية. وهو تغيير تلتقي حول الأهداف فيه القوى المتعددة والمتنوعة في تلك الكتلة التاريخية التي أشرت واستندت إليها. وأهم وأول ما يتضمنه هذا البرنامج للتغيير الديمقراطي هو العمل لإقامة أنظمة ديمقراطية تعددية في كل المعاني، وهو ما يعنيني في بلداننا على وجه التحديد. والإشارة هنا إلى صفة التعددية في النظام الديمقراطي هي جمع وتوحيد كل مكوّنات بلداننا على اختلافها من دون أي تمييز بين أكثري وأقلي، بين ديني وعلماني، وسوى ذلك لكي يصبح الإنسان هو الأساس متساوياً مع أخيه الإنسان في الحقوق والواجبات. المهمة الثانية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمهمة الأولى هي إقامة دولة مدنية حديثة دولة حق وقانون وحقوق إنسان ومواطنة، دولة تشكل بوظائفها الأساس في ممارسة النظام الديمقراطي التعددي وظائفه. والمقصود هنا بوظائف الدولة المدنية القائمة على أساس الفصل بين الدين والدولة هو اهتمامها بكل شؤون الحياة بتفاصيلها.

لكن لهاتين المهمتين التاريخيتين باسم التغيير الديمقراطي شروطاً ضرورية لا بد من توافرها. ملخص هذه الشروط من دون الدخول في التفاصيل هو العمل لخلق وعي في المجتمع بضرورة هذا التغيير. وهي عملية تعود إلى من يعتبرون أنفسهم بقدر أو بآخر طليعيين من أية مواقع ينتمون إليها. وأخص بالذكر منهم من يعتبرون أنفسهم أمناء لقيم الاشتراكية. وعندما تكتمل هذه العملية نصبح بالتدريج أمام مجتمع مهيّأ لتحقيق المهمتين الآنفتي الذكر. واسمحوا لي بأن أعطي للمثقفين النقديين على وجه الخصوص الدور المهم في هذه المرحلة التاريخية. وعندما يصبح المجتمع مؤهلاً لكي يلعب دوره من خلال مؤسساته المتعددة تكون قد بدأت تنضج الشروط للشراكة الحقيقية بين المجتمع بصفاته الجديدة والدولة بصفاتها الجديدة في إحداث التغيير المنشود.

وأود هنا أن أذكّر بالحركات الثورية التي كانت تونس الطليعية فيها. فهي كانت حركات، في أساس قيامها ولو بشكل غير مكتمل الوعي والشروط، البداية في تحقيق

مهمة التغيير. وعلينا أن نأخذ في الإعتبار أن الرد الهمجي على تلك الثورات الذي لم ينته حتى الآن إنما يؤكد أهمية تلك الثورات. ويؤكد في الآن ذاته ضرورة استخلاص الدروس منها ومن الرد عليها. وأضيف إلى ذلك بأنه آن الأوان، في المهمة التاريخية التي أشرت إليها، لكي نزيل بالتدريج وبالعمل المتواصل وبالنضال كل الشروط التي ساهمت في إقامة أنظمة الاستبداد في بلداننا وعطلت ما قامت من أجله ثورات القرن العشرين. وأؤكد في الآن ذاته أنه آن الأوان لكي ندخل من دون تردد في عملية التجديد في الدين الذي من دونه ستظل متوفرة شروط قيام ظاهرات من نوع القاعدة وداعش وسواهما. وأذكّر المؤمنين من على هذا المنبر بحديث نبوي شريف استقيته من كتاب "أين الخطأ" للعلامة الفقيه الشيخ عبد الله العلايلي "يرسل الله للمسلمين على رأس كل مائة عام من يجدد لهم دينهم".

وإذ أتوقف عند مسألة التجديد في الدين، ليس من موقعي العلماني وحسب بل من موقعي كمواطن، فلأنني أعتبر أن مهمة التغيير في بلداننا كما أشرت إليها إنما تعني جميع مواطني بلداننا من دون تفريق وتمييز من أي نوع بين مكوّناتها الدينية والإثنية والقومية والثقافية وسوى ذلك. هذا يعني بالذات أن على الجميع، بما في ذلك المؤمنون بأديانهم المختلفة متحررين مما ساد وما يزال يسود من بدع وخرافات لا علاقة لها بالدين، أن يلتقوا في تلك الكتلة التاريخية الضرورية لإحداث ذلك التغيير لأنهم جميعهم أصحاب مصلحة في تحقيقه. تلك هي مساهمتي في هذه المناسبة التاريخية.

* نص المداخلة التي ألقاها الاستاذ كريم مروة في ندوة عقدت في تونس (22-21 نوفمبر) تحت عنوان "مئوية ثورة أكتوبر والعالم العربي". نظم الندوة فرع تونس لمؤسسة روزا لوكسمبورغ ومقرها في برلين. عنوان المداخلة "التجديد في الاشتراكية كضرورة تاريخية في شروط العصر."

المرأة والزواج "اقتصادات الزراعة"

الاستاذ المتمرس الدكتور عبد علي حسن الخفاف

الدكتور عبد علي حسن الخفاف استاذ الجغرافية والدراسات السكانية في جامعة الكوفة/ العراق، وعميد كلية الآداب فيها للفترة 2004 – 2009 ورئيسا لأقسام الجغرافية في العديد من الجامعات لمدة 16 عاما. عضو هيئات تحرير العديد من المجلات الجامعية، وعضو الهيأة الاستشارية للعديد من الدوريات العلمية العراقية والعربية. ألف وترجم العديد من الكتب كما نشر الكثير من البحوث والدراسات. كما شارك في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية .أشرف الدكتور الخفاف على العديد من اطروحات الماجستير والدكتوراه. كما انه عضو الجمعية الجغرافية العراقية، واتحاد الجغرافيين العرب، وعضو اتحاد الأدباء والكتّاب العرب.

(الغرض)

تحاول هذه الدراسة ان تقدم الاجابة على السؤال: ما هي طبيعة الزواج في المجتمعات الزراعية المبكرة؟ فتشير الى العلاقة بين معرفة الزراعة والانتقال الى نمط تعدد الزوجات على ان هذا الانتقال يمثل الاتجاه العام للنمط الزواجي، فهو لا يعني اختفاء الانماط الزواجية الاخرى بالكامل.

(الثورة الزراعية)

معرفة الانسان للزراعة، ثورة اقتصادية اجتماعية، ومن اساسيات التقدم التاريخي، فهي الثورة الثانية بعد معرفة النار.

لا يتاح لنا في المستقبل المنظور أن نعلم متى ادرك الإنسان، لاول مرة، وظيفة الحبوب بحيث تحول من جمعها الى بذرها في الارض. يفترض البعض من الباحثين انه حين اخذ الإنسان في جمع الحبوب البرية كانت تسقط منه حبات وهو في طريقه من مكان ما الى حيث يقيم فكانت تنمو فنبهته أخيرا الى السر العظيم الكامن في نموها.

ألقى الناس من قبيلة "جوانج" البذور في الارض وتركوها تشق لنفسها طريقها الى الفضاء، وأما أهالي "بورنيو" فكانوا يضعون الحب في حفرات يحفرونها بعصى مدببة، وهم سائرون عبر الحقول فكانت هذه العصى هي أبسط ما عرفه الإنسان من ادوات الزراعة، أدوات الحراثة، وقد كان الرحالة في مدغشقر منذ خمسين عاما "الآن منذ مائة عاما" يرون النساء وقد امتشقن هذه العصي المدببة ووقفن في صف كأنهن الجنود، ثم تصدر لهن إشارة البدء، فيأخذن في حفر الأرض بعصيهن وقلب التربة ووضع البذور ثم تسوية التربة

باقدامهن، وبعد ذلك ينتقلن إلى خط آخر من خطوط الحقل. تطورت هذه العصي إلى فأس للحراثة، وبعد زمن ليس بالقصير تعلم الإنسان ان يستخدم الحيوان في ذلك، ويربط به المحراث فكان يضرب في الأرض أعمق مما كانت تضرب الفأس فانكشفت بذلك خصوبة الأرض الدفينة التي غيرت حياته كثيرا فكانت الثورة الثانية في مسيرة تقدمه الطويلة (1).

ويمكن أن نعتبر مجتمع الزراعة مجتمع رفاه مقارنة بمجتمع جمع القوت والصيد، ونعتبره مجتمعا بشريا بدأ يكتسب تدريجيا صفاته الإنسانية، وقد بدا حجمه الديموغرافي يكبر تدريجيا أيضا وذلك بفعل تطمينه بالطعام وبتنوعه النسبي الذي أدى إلى زيادة متوسط عمر الإنسان الذي يقدره الباحثون بحدود (25) سنة في العصر البرونزي(2).

لمعرفة الآثار الاقتصادية والاجتماعية للزراعة نشير إلى أنها أنهت عصور التنقل من مكان لآخر وأدخلت الإنسان في عصر الاستقرار، فهو بفعل الزراعة يحتاج إلى ان تتم عنايته بقطعة ارض محدودة.

بعدها يقوم بعملية الحراثة.

ثم عملية البذار.

ثم الانتظار حتى فصل النضج.

ثم عملية الحصاد.

هذه العمليات الزراعية تطلبت منه الاستقرار في المكان وبناء القرية التي صنعت المجتمع الذي يلزم ان تنتظم علاقاته "بتشريعات" وذهب البعض من أفراد هذا المجتمع لإعمال غير الزراعة، بفعل الفيض الغذائي الذي أنتجته الزراعة مما لا يستوجب ان يعمل الجميع في إنتاج الغذاء، وكانت من تلك الأعمال هي الديانة وخدمة الآلهة والمعابد وأعمال الفنون وفنون الحرف وغيرها. مع معرفة الزراعة عرف الإنسان "الملكية" ملكية الحقل وأدواته البسيطة، وملكية الحيوانات التي اصطادها وتلك التي رعاها وقام بتربيتها، وقد دفعته غريزة الملكية إلى ان يتملك المرأة (الزوجة) وأبناءه. أصبح هو صاحب المُلك وهو الوريث وهو الذي يورث لابنه الكبير، والورث يعني الحفاظ على المُلك داخل الأسرة. هذا الواقع الجديد قاد إلى إخضاع الرجل المرأة إخضاعا جنسيا، وهو بذلك لا بد له من أن يطالبها بالإخلاص له إخلاصا يبرر له أن يورث ما يملكه إلى أبناء تزعم المرأة له أنهم أبناؤه، هكذا تم للرجل الاعتراف له بأبوته، وبدأت الملكية تهبط في التوريث عن طريق الرجل (الأب)، وبذلك اندحر حق الأمومة أمام حق الأبوة فظهرت الأسرة الأبوية، أي التي يكون فيها اكبر الرجال سنا على رأسها، وهي الوحدة الاقتصادية والسياسية والشرعية والخلقية في المجتمع وانقلب حتى الآلهة، فبعد أن كانوا نساء في اغلبهم، انقلبوا رجالا ذوي لحى هم للناس بمثابة الإباء، تحيط بهم اعداد من النساء "حريم" كالذي كان يحلم به ذوو الطموح من الرجال.

كان هذا الانتقال من الأسرة الأمية، الأسرة بقيادة الأم، إلى الأسرة الأبوية التي يحكمها الأب، ضربة قاضية على منزلة المرأة "الأم" فأصبحت هي وأبناؤها ملكا لأبيها أو أخيها ثم ملكا لزوجها، أنها أصبحت تشترى في الزواج كما يشترى العبيد، وفي بعض المجتمعات، كما في غانة الجديدة وهبرديز الجديدة وجزر سليمان وفيجي والهند وغيرها كانت تشنق وتدفن مع زوجها الميت، أو يطلب منها ان تنتحر لتقدم على

خدمته في الآخرة.
وأصبح الرجل يمتلك كل الحق في ان يعامل زوجته وبناته كما يشاء، فيهبهن ويبيعهن ويعيرهن.
وقد احتفظ الرجل بحقه في ممارسة الجنس خارج أسرته بينما طولبت المرأة بالعفة التامة قبل الزواج وبالإخلاص التام بعد الزواج، وهكذا نشأ لكل جنس معيار خاص يحاكم به على عمله وسلوكه.
تستند الدراسات الانثروبولوجية في معرفة وتحديد المراحل الحضارية إلى دراسة المجتمعات القديمة عبر الآثار المادية وغير المادية التي تكشفها التنقيبات الاثارية، وبشكل خاص في حضارات وادي النيل، الحضارات الفرعونية، وحضارات وادي الرافدين، سومر وأكد وبابل وآشور. كما أن هذه الدراسات تستند إلى قراءاتها للمجتمعات المعزولة والبدائية في الوقت الراهن، في مجاهل إفريقيا والأمازون ومرتفعات الروكي والانديز ومجاهل جزر الشرق الأقصى واستراليا وصحارى افريقيا.
لقد كشفت الحفائر التي أجريت في العراق عن عشرات الآلاف من اللوحات الطينية المكتوبة، ويقدر ان 90% منها تناولت الحياة الاقتصادية والإدارية، والبعض منها تناول الأدب السومري الذي أفاد منه الاكديون والبابليون والآشوريون والأقوام التي جاءت بعدهم. ويرجح الباحثون أن السومريين بدأوا يسجلون أعمالهم الأدبية منذ حوالي عام 2500 ق.م، تناولوا الحياة الزوجية بالكثير من تفصيلاتها في أدب من الحكم والامثال فجاءت الحكمة السومرية لتصف الاعزب والذي يخاف من مسؤولية الزواج، وهي تقول: ان الذي ليس له زوجة أو ولد لا تحتمل انفه القيد وقد ترجم الاثاري الشهير "صوموبل كريمر Kramer-Samwel هذا النص: من لم يعل زوجة او طفلا فقد سلم أنفه من حمل المقود. وبرأيه ان هذا المثل يعكس نظرة السومريين الى ان الزواج مهمة ليست بيسيرة بل صعبة وثقيلة والمقود اشارة الى المقود الذي يربط بأنوف الاسرى (3) صحيح أن هذا المثل السومري ينتقد الإنسان الأعزب إلا انه من ناحية ثانية يعكس الموقف من ثقل الزواج. لقد عرفت حضارات العراق التي تمت الإشارة إليها "العائلة الأبوية" فهي حضارات الزراعة والري والتشريعات ومن ثم التكنولوجيا والأدب والعلوم. كان عقد الزواج يبرم بين الرجل، زوج المستقبل، وبين رجل آخر، هو أب أو الأخ الكبير أو ولي أمر زوجة المستقبل، من هذا الموقف حدد الباحثون كون العائلة العراقية القديمة هي عائلة أبوية (4) وجاء في احد الألواح أن الحكيم العراقي القديم يحذر الفتى من الزواج ببعض أنواع النساء ومنهن العاهرات المقدسات: لا تتزوج من العاهرات التي يقدر أزواجها بالآلاف والمرأة البغي المخصصة للإله والمرأة المحظية التي يعجب بها كثيرون لأنها في مصابك لن تسندك، وفي نزاعك تسخر منك ليس الاحترام أو الخضوع من خصائصها فحتى إذا كانت تسيطر على منزلك، فاطردها منه حيث أنها توجه اهتمامها إلى مكان آخر. (وبصيغة اخرى للترجمة) انها تحطم كل بيت تدخله ولا يفلح من يتزوجها (5)(6) .
يشير النص الى البغاء المقدس ويحذر من الزواج من المرأة التي لا تعرف الاخلاص واحترام بيت الزوجية*.

(حرية الاختيار)

نشير الى اسطورة جرت احداثها في مدينة ''نيناب'' التي اعتبرتها الاسطورة مدينة المدن وبلدة الامارة ولكن لم يتم تعيين موقعها في بلاد ما بين النهرين حتى الآن.

تذكر هذه الاسطورة انه في احد الايام اقيم احتفال ضخم في مدينة ''نيناب''، حضره ''نمشدا'' الإله الحارس لمدينة ''كازالو'' التي تقع الى الشمال الشرقي من سومر ومعه زوجته وابنته.

في اثناء الاحتفال قام ''مارتو'' بأعمال بطولية جلبت السرور ''لمنشدا'' فقدم ''لمارتو'' مكافأة على ذلك من الفضة واللازورد، الا ان ''مارتو'' رفض هذه المكافأة وطلب بدلها الزواج من ابنته، فوافق ''نمشدا''وكذلك وافقت ابنته وبسرور على الرغم من محاولة احد اقربائها الحط من شأن ''مارتو'' واظهاره بمظهر المتوحش، يسكن الخيام، ويأكل لحما غير مطبوخ، ولا يجد له مثوى حين يموت.

تؤشر لنا هذه الاسطورة السومرية الحرية الواضحة وغير المترددة في اختيار الزوج والزوجة وإذا ما قدمت لنا الاسطورة جانبا من حرية الفتى والفتاة في الطبقة العليا او النخبة فثمة نصوص تشير الى مثل هذه الحرية بين الطبقات الفقيرة، فلنقرأ هذا الحوار الذي حصل بين أخ وأخته:

الأخ لأخته: الا يستطيع أخوك ان يختار لك؟

الأخت: ما الذي يمكن ان تختاره؟

الأخ: انسان مثلي تماما، مثل أخوك.

الأخت: دعه يعيش كما أعيش، يعمل مثلما اعمل .....

الاعشاب؟ في الهواء..... دعه يأكل الزيت في الندى(7).

يؤشر لنا هذا الحوار موقفا لا نشهده في مجتمعنا العربي اليوم، وعلى وجه الخصوص لا نشهده في مجتمعنا العراقي، حيث ينزوي ويختفي الأخ، يوم تطلب يد اخته، فكأن الموضوع ''مخجل'' او يقلل من كرامة الأخ!

نحس ونحن نقرأ هذا الحوار ان الأخ يحاور أخته في قضية انسانية مطلوبة (وهي لا يمكن ان تكون معيبة او مخجلة)، وهو لا يحاورها على زواجها بل هو يطلب منها ان ترضى ان يختار لها، فتملي عليه شروطها بأن يكون زوج المستقبل بذات المستوى الذي تعيشه، وتريده يعمل مثلما هي تعمل. إذن المرأة كانت تعمل، وهنا المقصود بالعمل هو العمل المأجور! انها تختار الزوج وفق الشروط التي هي تراها، وهذه حرية واسعة للمرأة في اختيار الزوج.

ولا يقتصر الامر على السومريين؛ فقد ورد الكثير في الادب الاشوري مما يتعلق بالزواج والزوج والزوجة، ونسوق هذا الكلام المكتوب على لوحة امثال آشورية تحمل الرقم: AT 10251V

ان قلبي حكيم، ومشاعري سلوك، وكبدي ذو جلال ووقار، لا تتحدث شفتاي إلا بالأشياء الجميلة، فمن ذا الذي سيكون زوجي المختار(8).

لا ندري هل أن المتحدث رجل ام امرأة، وعلى كل حال يصف نفسه بالاعتداد بالذات، ويؤشر لنا النص حرية الاختيار.

تشير جميع المراجعات لتاريخ العراق القديم، باعتباره مثالا للتاريخ البشري القديم، الى تأثير الدين في المجتمع العراقي، لا سيما فيما يتعلق بالاسرة، فسادَ الاعتقاد بوجود عدد من الآلهة الإناث، وقد اختصت

بالإنجاب والإخصاب وغيرها، وقد جاء في احد النصوص المسمارية عن ذلك ما نصه:
يستطيع ان يتزوج الرجل عددا من النساء ولكن انجاب الاولاد نعمة لا تهبها إلا الآلهة.
وفي نص اخر نقرأ احدى الامنيات القديمة:
ليت اينانا تعطيك زوجة دافئة الاعضاء وتمنحك أولاد اقوياء وتفتش لك عن محل السعادة(9).
بفعل هذا الاعتقاد كان العراقي القديم يتضرع الى الآلهة لتنعم علية وترزقه بالأولاد، فاخذوا ينذرون ابناءهم، من الذكور ومن الاناث، للخدمة في المعابد، ومن مختلف الطبقات الاجتماعية، فشمل ذلك طبقة الامراء.
ومع العصور السومرية الاولى بدأت عادة تقديم الابناء الى المعابد نذورا للآلهة، وتوسع هذا السلوك كثيرا في زمن سلالة بابل الاولى وانتشار الملكية الفردية، وتنامي بعض العوائل الغنية وظهور الاقطاع اثر توزيع الاراضي التابعة الى الدولة على الافراد.
لقد نذر الملوك بناتهم، تحديدا، لخدمة العديد من الآلهة الكبار مثل ''انليل'' و''ايا ـ انكي'' و''اتو ـ شمش''. وقد احتلت الفتاة المنذورة من العائلة المالكة منصب الكاهنة الاعظم (بالسومرية Entu).
كذلك شأن العائلات الغنية تقدم بناتها وتنذرهن للآلهة، وعندما يكبرن يصبحن كاهنات من نوع ''ناديتو - بالسومرية - u.kuR-''.
فهناك ناديتو الإله شمش وناديتو الإله سين ومردوخ وغيرهم.
تحصل الفتاة المنذورة على مكانة دينية ومن ثم اجتماعية، كما تحصل على مردود اقتصادي تنفع به عائلتها.
وبعض الفتيات يصبحن كاهنات من نوع ''كاديشتو NU.GlG - بالسومرية''، وهذه الصفة تعني انها المرأة الخالية من الامراض او الشر، ولا يسمح لها بالانجاب الا اذا ما كانت متزوجة بصورة رسمية.
وثمة نوع آخر يطلق عليه الكاهنة ''كلما شيتو – بالسومرية NU-BAR'' وهي الكاهنة المنذورة لخدمة إله معين، وتعيش في بيت أبيها.
ولا تقتصر الخدمة في المعبد وخدمة الآلهة على البنات فقط، وانما تنذر بعض العوائل أولادهم الذكور ايضا.
ومن شيوع هذه الثقافة الدينية تنامت سلوكيات تقديم النذور، فنقرأ في احد النصوص المسمارية بعض النصائح التي يقدمها الأب الى ابنه، يؤكد له اهمية عبادة الآلهة وضرورة تقديم القرابين لها، وما ينتج عن ذلك من جزاء حسن من قبل الآلهة:
أعبد آلهتك كل يوم
عليك بالقربان والتبريكات
قدم قربانك عن طوع لآلهتك
وفي نص اخر:
القرابين تطيل العمر
والصلاة تغسل الذنوب
ان الذي يتقي الآلهة تصان كرامته
ونص اخر يتحدث عن الذرّية فيقول:
اما الذي ليس له ذرية، فلم يكن عنده شيء يأكله، عدا الفضلات التي ترمى في المزابل(10).
لا بد ان نشير الى كتاب القانون او القوانين الاشورية، وهو كتاب يعود الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وقد تم جمعه من عدة الواح ثم طبع في اكسفورد في عام 1925.
يشير هذا الكتاب الى وضع الزوجات والأولاد في الفترة (أ) وفي المواد 55 - 59

- 46 - 6 - 4 - كانت هذه المواد تشير الى ان العائلة، الزوجات والأولاد، هم ملك لرب العائلة.

لقد كانت سلطة الاب والزوج على اطفاله وزوجته لا تختلف إلا بشيء ضئيل عن سلطة السيد على عبده. فكان الأولاد والأرقاء يعتبرون من ضمن المال الذي يستطيع به المدين ان يسدد دينه.

ومع ذلك يلاحظ ان النساء كن يتمتعن بمنزلة معينة فهن محرمات على الأرقاء، وإنها لأهمية ليست بالقليلة ان يكون شرف المرأة الحرة، على عكس الرقيق، محميا من قبل القانون. وعلى هذا كانت المرأة الرق والعاهرة مهددتين بجملة من العقوبات، إذا ما وضعت الحجاب على وجهها، فالحجاب هو شعار المرأة الحرة (11).

ويسمح القانون الأشوري بتصرف الاب بابنته فهو يمكن أن يعطيها إلى معيل لها مقابل حصوله على النقد (ثمن الفتاة) في حين تكمن مصلحة المعيل في الحصول على أيدي إضافية للعمل في بيته، كما من حقه أن يزوجها إلى اي شخص ويستلم هدية الزواج (تدختو)، وهذه العملية لا تختلف الا قليلا عن كونها معاملة بيع(12). إن الفتاة المعالة تقترب لانِ تكون من الرقيق، وكان يطلق عليها اسم أَمَهَ ''اماتو Amatu بالأشورية'' والحقيقة يعرض القانون الأشوري – الفقرة (أ) – المادة الخامسة والأربعون، في تفاصيل كثيرة حول الزوجة التي يؤسر زوجها والزوجة الأرملة ويحدد مسؤوليات الحكومة تجاهها.

لعل أوفر المعلومات التي تتناول المجتمع العائلي وأكثرها تنوعا هي المعلومات التي وجدت في سجلات ''ارابخا'' الدولة الصغيرة المستقلة التي ظهرت في الألف الثاني قبل الميلاد، وكانت تقع على مجرى نهر العظيم، أحد رافد نهر دجلة.

كانت نساء ''ارابخا'' يتمتعن بحقوق ملكية مساوية، بصفة عامة، للرجال الذين كانوا يمثلون العائلة. وقد ظهرت النساء في العقود (عقود المعاملات) سوية مع ابنائهن او إخوانهن، فالمرأة لا تستطيع ان تصبح سيدة اهل بيتها إلا عن طريق بيان يصدره رب الاسرة وينقل به حقوقا اليها (13).

بشكل عام تكشف مراجعة مصادر التاريخ القديم حقيقة ان المجتمع السومري اكثر استعدادا من المجتمع السامي لاعطاء المرأة المسؤولية في الحياة العامة.

وتشير بعض الدراسات الى ان شريعة ''حمورابي'' قد اعطت المرأة في بلاد بابل حقوقا لم تحصل عليها ''المرأة الفرنسية مثلا'' الا في بداية القرن العشرين. ومن امثلة تلك الحقوق الحضور لأداء الشهادة في المحاكم القانونية.

لقد كانت قرينة الملك في المجتمع الاسيوي عضوا في مجلس الدولة وكانت توقع على مراسيم الدولة ولها حق التملك، كما كان لها عيالها الخاصون بها والذين اوكلت ادارة شؤونهم الى حاجبها الشخصي. ولم يكن هذا الحال مقتصرا على الشعوب الآسيوية وحدها بل تعداه الى اليونان البدائية حيث كانت المرأة تصرف أمر عيالها.

ويتضح هذا من قصة ''نوسيكا'' المذكورة في ''الاوديسا'' والتي جاء فيها انه عندما كانت الاخيرة تخبر ''اولسن'' عن السبيل الذي يسلكه لكي يحصل على المساعدة من أبيها الملك، طلبت منه ان يدخل القصر حيث سيجد اباها جالسا في احدى الغرف وهو

يشرب مع الآلهة، ثم قالت له بان عليه ألا يتوانى أو يتأخر عن ابيها، بل يمضي في طريقه ويرمي نفسه عند اقدام أمها التي لها القول الفصل (14).

امام هذه النصوص والمعلومات نلاحظ ان للمرأة مكانة داخل الاسرة وفي مختلف الطبقات، فهي تختار زوجها او تحدد شروطا لزواجها، وترتفع مكانتها في المجتمع لتكون راهبة وتكون آلهة، وفي نفس الوقت هي ملك ابيها ليتصرف بها ما يشاء: يقدمها منذورة أو يبيعها لتكون في ما بعد من الرقيق. والرجل يقدر ان يتزوج بأي عدد من النساء.

في مجتمع الجزيرة العربية قبل الاسلام وهو ما يطلق عليه العصر الجاهلي، عانت المرأة من تعدد الازواج فقد تجبر على زواج المشاركة، فيمارس معها الجنس بعدد من الرجال لا يزيد على العشرة رجال، وعند ذاك اذا ما حصل عندها الحمل والانجاب تحدد هي من سيكون والد مولودها! كما كان يمارس نكاح الاستبضاع، وهو نوع اخر من تعدد الازواج، فيأمرها زوجها ان تعاشر شخصا ما وتستبضع منه، يتصف هذا الشخص ببعض المزايا المرغوبة مثل الشجاعة والبسالة والكرم وغيرها فيعتزلها زوجها حتى يتبين حملها من الرجل الذي استبضعت منه، ويعد الطفل المولود مولودا لزوجها وليس للرجل الذي استبضعت منه (15).

يؤشر واقع المرأة في بابل وآشور والعرب قبل الاسلام (*)، حالات متقاطعة فهي آلهة وكاهنة ومنذورة وصاحبة عمل ورئيسة اسرة، وهي مملوكة لأبيها أو ولي أمرها يهديها أو يبيعها لمن يشاء ويتزوج عليها الرجل ان رغب.

اننا نرى ان حضارات العراق منذ 5000 سنة قبل الميلاد كانت تمثل مرحلة انتقالية من سيادة الأم في عصور ما قبل الزراعة الى العائلة الابوية؛ حيث بدأ يضعف تدريجيا موقع المرأة في الاسرة والمجتمع وتضعف مكانتها امام تركيز السلطات العائلية والمجتمعية بيد الرجل.

كما اننا نرى ان تعرض المرأة لعدد من الازواج في العصور ما قبل الزراعة لم يكن سوى نتيجة لقلة الادراك في ضرورة النسب، فكان واقعا تاريخيا لم يكن من صنع الرجل، فهو بالتالي واقع بعيد عن الجندر وبعيد عن المدنية وهو واقع فسيولوجي وليس واقعا اجتماعيا.

أخيرا، لا بد من التنويه الى ان تعدد الازواج الذي تحدثنا عنه هو في احد معانيه تعددا للزوجات.

انها عصور طويلة عاشها الانسان فطريا، وهو جزءا من الطبيعة، وهذا يعني ان سلوك الانسان (الذكر) في زواجه من اكثر من واحدة انتقالية الى عصر الثقافة، حيث بدأ يقيد نفسه وسلوكه بالكثير من القوانين التي تحولت الى اعراف.

يهمنا هنا ان نشير الى ان تعدد الزوجات قد حصل بتشريع وبقرار، وهو تشريع وقرار ذكوري بالطبع فكان وما زال الرجل هو المشّرع وهو الذي يسن القوانين.

المعروف ان حوض الرافدين وفي حضاراته، التي تعد حضارات البشر المبكرة، تم تشريع عدد من الشرائع مثل شريعة اورنمو وقد جاء فيها التشريع ضد الاغتصاب وتشريع اخر حول حق الزوجة بالإرث من زوجها، وشريعة اشنونا التي اضافت الى حقوق المرأة حق الحماية من الزوجة الثانية، وقد اكدت

شريعة لبت عشتار على حقوق المرأة المريضة والعاجزة وحقوق البنات غير المتزوجات، وفي الالفية الثانية قبل الميلاد عرفت قوانين حمورابي (1750-1793) ق.م التي احتوت على 22 نصا متعلقا بالمرأة من اصل 282 نصا. تناول القسم الثامن من الشريعة، المواد (127 - 195) وهي تبحث في شؤون العائلة وحقوقها وعلاقات افرادها في ما بينهم. لقد اعطت شريعة حمورابي حقوقا كثيرة للمرأة كان من بينها، حق البيع والتجارة والتملك والورثة والتوريث، كما كان لها الاولوية على الزوجة الثانية في السكن والملكية وحفظ حقوق الوراثة والحضانة والعناية عند المرض (16) وقد شهد العصر البابلي وصول الملكة ''سميراميس'' الى السلطة لمدة خمس سنوات كانت سنوات الرخاء الكبير.

الخلاصة :

اخيرا، نشير الى ان نمط تعدد الازواج قد انحسر كثيرا على خريطة العالم، وكانت اخر مناطقه الجغرافية هي هضبة التبت وبعض مجاهل افريقيا، وكان هناك يمارس عادة بين الاشقاء حيث يشتركون بزوجة واحدة، ما زالت تمارسها ايضا قبيلة الماركسان Ma-qussian في جزر جنوب شرق اسيا، وقبيلة توداسTodas في الهند فيعد هذا النمط من الزواج هو المفضل عند هاتين القبيلتين. بشكل عام لا يتضح سلوك النوع الاجتماعي (الجندر) ولم تتبلور معاملة النوع الاجتماعي طيلة هذه العصور.

(*) اول نصوص تاريخية وردت فيها مفردة عرب هي نصوص اشورية، وقد وردت بعدة اشكال (عربي – – urbi – Aribi- Ariba) وهي تعني سكان البادية والبدو سكنة الخيام واصحاب الإبل. اما الحضر فقد اطلقت عليهم اسماء أماكنهم او اسماء القبائل التي ينتمون اليها. بعد الميلاد توسع مدلول المفردة في المصادر اليونانية ''عارف – 1985 – 96'' عن: علي – 1968 – ج16-1.

المصادر حسب ورودها في البحث:

1 - ديورانت ، ول (1965) قصة الحضارة – م 1 – ج 1 (ترجمة زكي محمد نجيب)، جامعة الدول العربية.

المصادر والمراجع :

2 - الامين، محمود (2007) شريعة حمورابي (ترجمه) ط1 ، دار الوراق، لندن.

3 - ناد، فشر (1977) عالمنا المزدحم (ت. حسين احمد العليمي)، سلسلة اليوم والغد، القاهرة.

ديورانت، ول (1965) قصة الحضارة - م-1 ج1 (ط3)، ترجمة زكي نجيب محمود، جامعة الدول العربية، الإدارة الثقافية.

4- سليم، احمد امين (1985) الأسرة في العراق القديم، دار النهضة العربية، بيروت.

5- سركيس، عادل احمد (1967) الزواج وتطور المجتمع، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.

6- علي، عادل هاشم (2008) تقديم القرابين في المجتمع السومري، مجلة الاداب السومرية، العد 3/ السنه 2 / كلية الآداب/ جامعة ذي قار.

7- علي، جواد (1968) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج5 - ج6 ، بيروت.

8- كريمر، صموئيل نوح (1957) من الواح سومر، نرجمة طه باقر ومراجعة وتقديم احمد فخري، القاهرة.

9- كونتينو، جورج (1986) الحياة اليومية في بلاد بابل واشور (ت. سليم طه التكريتي)، ط2 ، دار الشؤون الثقافية، بغداد.

10- الهاشمي، رضا جواد (1985) القانون والاحوال الشخصية في العراق القديم، مجلد حضارة العراق،ج2، وزاره الثقافة، بغداد.

الهوامش

1 - ديورانت، ول (1965) قصه الحضارة - م1 - ج1 / ت. زكي نجيب محمود - جامعة الدول العربية/ الادارة الثقافية/ ص59.

2 - تاد، فشر (1977) عالمنا المزدحم/ ت. حسين احمد العليمي (سلسلة اليوم والغد) - القاهرة/ ص14.

3 - كريمر، صموئيل نوح (1957) - من الواح سومر/ ت. طه باقر ومراجعة وتقديم احمد فخري/ القاهرة/ ص221.

4- الهاشمي، رضا جواد (1985) - القانون والاحوال الشخصية في العراق القديم/ م حضارة العراق/ وزارة الثقافة والاعلام - ج2/ بغداد/ ص89.

5- سليم، احمد امين (1985) _ الأسرة في العراق القديم/ دار النهضة العربية/ بيروت/ ص33.

6- كونتينو، جورج (1986) _ الحياة اليومية في بلاد بابل واشور/ ت. سليم طه التكريتي/ دار الشؤون الثقافية/ بغداد/ ص451.

7- سليم، المصدر السابق/ ص 26.

8- سليم، المصدر نفسه/ ص26.

9- علي، عادل هاشم (2008) - تقديم القرابين في المجتمع السومري (مجلة الاداب السومرية - العدد 3 - السنة 2) كليه الاداب/ جامعة ذي قار/ ص19.

10- المصدر نفسه/ ص20.

11- جماعة من علماء السوفيت (1976) العراق القديم – ت.وتعليق سليم طه التكريتي/ وزارة الاعلام – سلسلة الكتب المترجمة (28) - بغداد - ص 341.

12- المصدر نفسه/ ص 343.

13- المصدر نفسه/ ص 383.

14- كونتينوا، مصدر سابق – ص 416.

15- سركيس، عادل احمد (1967) الزواج وتطور المجتمع – دار الكتاب العرابي للطباعة والنشر/ القاهرة/ ص 108.

16- الامين، محمود، (2007) شريعة حمورابي (ترجمة) ط1 _ دار الوراق/ لندن/ ص57.

الأسس المرجعية والوضعية للدولة المدنية مع إمكانية قيامها في العراق - المقومات والتحديات

أ.د. حاكم محسن محمد الربيعي

حاكم الربيعي دكتوراه في فلسفة إدارة الاعمال، عمل رئيسا لقسم إدارة الاعمال – كلية الإدارة والاقتصاد/ جامعة كربلاء لمدة ثماني سنوات، وعميد للكلية لمدة زادت على خمس سنوات. عضو الجمعية العربية للبحوث الاقتصادية في القاهرة وجمعية الاقتصاديين العراقيين والنقابة الوطنية للصحفيين العراقيين. شارك في العديد من المؤتمرات العلمية العربية والدولية، كما نشر اكثر من 80 بحثا ودراسة ومقالة في مجلات محلية وعربية ودولية، وله خمسة مؤلفات في حقل الاختصاص. اشرف الدكتور الربيعي على العديد من اطاريح الدكتوراه والماجستير، وهو عضو هيئة استشارية في مجلات عديدة.

مقدمة:

الحراك الشعبي الذي حصل في بعض الدول العربية، ولد اشكالات لهذه الدول واعتبره البعض مؤامرة وتخطيطا خارجيا لتفكيك الدول العربية الى دول صغيرة، فكانت البداية في تونس ثم مصر وليبيا واليمن وسوريا، وما زالت الصراعات قائمة في الدول الثلاث الاخيرة، وبسبب ذلك ذهبت ضحايا كثيرة. أما عن المؤامرة، نشير الى ما قاله الصحفي الصهيوني (عويديد) الذي كان يعمل في مكتب رئيس الوزراء في فلسطين المحتلة؛ اذ يقول "ان العالم المسلم العربي ليس هو المشكلة الاستراتيجية الكبرى التي سنواجهها في الثمانينات، فهذا العالم بأقلياته العرقية وانقساماته وازماته الداخلية المدمرة للذات بشكل يثير الدهشة.. لا يشكل خطرا حقيقيا على دولة اسرائيل على المدى البعيد"، ويستمر ليقول ان انواع المواجهات بين العرب وبعضهم البعض سوف يساعدنا في المدى القصير. ويتعرض الى الدول العربية واحدة واحدة؛ اذ يقول "العراق الغني بالنفط والممزق داخليا مرشح مضمون لأهداف اسرائيل وتقسيمه اكثر اهمية لنا من تقسيم سوريا؛ فالعراق أقوى من سوريا والقوى العراقية في المدى القصير هي التي تشكل التهديد لإسرائيل". ويستطرد ليقول ان المواجهات بين العرب تختصر الطريق الى الهدف الأكثر أهمية وهو تقسيم العراق الى طوائف على اسس دينية وعرقية امر ممكن، وهكذا تقوم ثلاث دول او اكثر حول المدن الرئيسة الثلاث.. البصرة – بغداد والموصل، وتنفصل المناطق الشيعية في الجنوب عن السنية والكردية في الشمال. ولم يتوقف عند ذلك بل استمر في التعرض للموقف في

الجزائر وشمال المغرب العربي والسودان ومصر وأقباطها (1).
والى الذين ينفون وجود المؤامرة، ماذا نسمي هذا التخطيط الاستراتيجي الذي يتحدث عنه في مقالته المنشورة عام 1982 في مجلة D-rection وهي من المجلات واسعة الانتشار التي تصدرها احدى المنظمات الصهيونية.
وعليه اذا كان هذا الصراع او التناحر الذي يحصل بين القوميات او المذاهب في البلد الواحد والذي يعول عليه الكاتب الصهيوني في تفكيك الدول العربية، ألا يمكن حله من خلال الدولة المدنية التي تضمن للجميع ممارساتهم وطقوسهم وعاداتهم بحرية تامة، وبسيادة القانون، وهي نوع من نظام ديمقراطي يضمن للجميع حقوقهم وفرض الواجبات كمواطنين في البلد الواحد والتعامل على أساس هوية البلد بدل الهويات الفرعية.
ولذلك جاء هذا البحث ليتناول مفهوم الدولة المدنية والأسس الوضعية والطبيعية لإمكانية قيام الدولة المدنية وأفكار علماء الاجتماع وغيرهم الذين تناولوا مفهوم الدولة المدنية بإسهاب، ولكنها في الوقت الحالي اكثر وضوحا قياسا لزمان من تطرقوا اليها قبل مئات السنين. فالأنظمة العربية الحالية وبغض النظر عن التسميات او التشخيص الذي يطلق على بعضها ان لم تكن جميعها بأنها انظمة دكتاتورية تسلطية. وما حصل من احداث يجب اخذه بنظر الاعتبار؛ فالسلطة والثروة هي ليس ملك الحاكم بل ملك الشعب، وبالتالي على ولاة القوم او الحكام أيا كانت الطريقة التي وصلوا بها الى الحكم، ان يحققوا العدالة الاجتماعية في توزيع الثروة والسلطة بما يضمن وحدة البلد ويرضي المواطنين.

اولا- مفهوم وطبيعة الدولة المدنية:

الدولة المدنية هي الدولة التي تفصل بين الدين وبين الدولة، وهكذا هي دول أوربا بشرقها وغربها وبذلك استطاعت ان تبتعد عن القيود والأسوار التي يفرضها الطرف الاخر(اللاهوت) تحديدا، وعلى وفق ذلك هناك قانون وسيادة لهذا القانون ينظم حياة الناس وعلاقاتهم الاجتماعية حسب نظام قائم، نظام يحقق للجميع الرضا، حيث حقوق الناس وحرياتهم في مأمن قانوني وتشريع ضامن وسلطة تفرض الحقوق والواجبات لكل مواطن في الدولة المعنية. ويمكن تلخيص اسس بناء الدولة المدنية على وفق ما يأتي:
1. نظام سياسي ديمقراطي: يقوم هذا النظام على اساس التعددية السياسية والحزبية من اجل اعتماد صيغة التداول السلمي للسلطة، اذ ليس هناك من يملك السلطة فهي سلطة الشعب والحاكم مخول بهذه السلطة، كما ليس هناك من يملك الثروة فهي ثروة الشعب وعلى الحكام التصرف العقلاني والرشيد بالأموال العامة.
2. الفصل بين الدين والدولة والتعامل مع المواطنين على اساس الهوية الوطنية للدولة التي ينتمي اليها وحيث ان الشعب في الدولة ذو اديان ومذاهب وقوميات متعددة، لذا لا يجب فرض الدين على احد، إلا بما يؤمن به ويجب ان يبقى الدين على مستوى الافراد وليس على مستوى الدولة (2).
3. تشريع دستور يتضمن اسس بناء الدولة المدنية الحديثة يطرح للمناقشة من قبل الشعب من خلال ندوات يديرها متخصصون بالقانون والاستماع الى رأي الناس وأخذه

بنظر الاعتبار، ولا لتشريعه بعيدا عن اراء الناس، مع سيادة القانون.

4. الالتزام بالمواثيق الدولية والاقليمية واقامة علاقات متوازنة مع الدول باختلاف نظمها السياسية والاقتصادية.

5. بناء جيش مهني وقوي لحماية امن الدولة الحدودي، وتأمين وفرض القانون لضمان امن البلد داخليا وخارجيا، ولكي تستطيع الدولة فرض سيطرتها على كافة انحاء البلد الذي تديره.

6. تحقيق العدالة الاجتماعية في توزيع الثروة واشغال الوظائف العامة، فكثيرا ما شكل هذا الموضوع مادة صراع بين مكونات المجتمع الواحد. فهي مفهوم اقتصادي واجتماعي تزول فيه الفوارق الطبيعية والاجتماعية بين الناس. كما تعني العدالة الاجتماعية بأنها تلك الحالة التي ينتهي فيها الظلم والاستغلال والقهر والحرمان من الثروة او السلطة او كليهما. وهي ايضا حالة يغيب فيها الفقر والتهميش والإقصاء الاجتماعي والوظيفي وهو ما يحصل في الوقت الحاضر لبعض الناس في مجتمعاتهم وهي ايضا حالة تمتع الناس بكامل حقوقهم، ويشعر فيها الناس بالإنصاف والتضامن والمشاركة الاجتماعية (3).

7. دعم وتأسيس الثقافة المجتمعية القائمة على استيعاب الآخر مهما كان دينه او قوميته او مذهبه ويكفي لهذا التعامل انه مواطن يحمل هوية البلد الذي يشترك فيه مع الاخرين من ابناء بلده، واعتماد هوية البلد.

ثانيا – الاسس المرجعية والوضعية

أ. الاسس الدينية: بدأت محاولة بناء الدولة ذات السلطة المطلقة المستمدة من الدين في الزمن الذي هيمنت فيه الكنيسة حيث اعتمدت الدين اساسا لفرض السيطرة والتسلط وقد تزامن ذلك مع الافكار التي كانت تؤسس وتدعم سلوك الكنيسة والمستمدة من فكرة الدين باعتباره الاساس الذي يمكن فرض السلطة من خلاله، باعتبار الحاكم مخولا من الاله، وانه مختار منه بشكل مباشر او غير مباشر. وفي الدولة الاسلامية كان الحاكمون يحكمون بالتوافق لكنهم يطبقون الشريعة الاسلامية، وبالتالي ليس هناك حاكم مختار. وقد تبنى بعض المفكرين السلطة الدينية ودافعوا عن الحق الإلهي للحكام من مختلف التسميات وكان (جان بوسيه) و(جان بودان) من هؤلاء، وقد ركز جان بودان، على انه لا يوجد اي احد اكبر من الارض، سوى الامراء السياديين وانه تم اختيارهم إلهيا ليحكموا في الارض، ويقودوا الناس وعلى الناس اطاعتهم، وبالتالي تقديم الولاء والطاعة. وعبر بوسيه عن فكرة سلطة الملوك الإلهية المطلقة بشكل صريح لذلك يقول ان سلطة الملوك مطلقة بشكل صريح، ولا يمكن لأحد ان يحاسبه او يعترض عليه. والدولة الدينية بهذا المعنى إذا زعم حكامها بأنهم وكلاء الله في الارض، عند ذلك لا يمكن مناقشتهم او الاعتراض عليهم.

ب – الاسس الطبيعية: تشير بعض الدراسات الى ان المجتمع مر بمراحل تطور متتالية وكل مرحلة هي الاكثر تطورا من سابقتها. وقد سميت المرحلة الاولى مرحلة المشاعية البدائية، كل شيء فيها مشاع حتى المرأة، وهذه المرحلة ليس فيها نظام او سلطة او كيان دولة، بل عاش الانسان خلال هذه المرحلة على طبيعته، ولا أحد يملك شيئا سوى ما يحصل عليه يديم به حياته ثم تلتها

مرحلة الرق، وهذه المرحلة كانت قائمة على استعباد الاخر. وفيها ظهرت نواة التملك حيث يشير احد المفكرين الى ان التراكم الرأسمالي ولد الرغبة والإرادة عند الانسان للتملك، ومن اجل الاحتفاظ بالملكية ذهب الانسان الى وحدانية الزواج. اما المرحلة التالية فكانت مرحلة الاقطاع، وفي هذه المرحلة هناك من يملك الاراضي الواسعة وهناك اناس يعملون لدى هؤلاء الملاك، لكنهم يعانون من الظلم والتعسف، حيث لا يحصلون على ما يقابل عملهم بشكل مكافئ، ثم المرحلة التالية كانت مرحلة الرأسمالية، تليها مرحلة الاشتراكية ثم المرحلة الاخيرة وهي مرحلة الشيوعية وهي مرحلة تقوم على اسس نظامية. اساسها الوعي والثقافة العامة، وهناك آراء تعيد نشوء الدولة الى النظريات الاربعة الآتية (4):

1 - النظرية الالهية: يعتقد اصحاب هذه النظرية بان الاله اختار الحكام ليكونوا مسؤولين عن ادارة شؤون الدولة, وفقا لذلك لا يمكن مناكدة أو محاسبة الحاكم أو الاعتراض عليه طالما انه مختار من الاله.

2 - نظرية القوة: مرجع هذه النظرية الى القوة. اي ان القوي هو الذي يسيطر على الاخر وهو الاخر الضعيف.

3 - النظرية الطبيعية: الانسان اجتماعي بطبعه، وبالتالي لا يستطيع العيش منفردا؛ إذ لا بد من التعاون مع الآخر ممن لديهم الرغبة في بناء الجماعات، وبالتالي الاتفاق على اختيار من يقود هذه المجموعة، وربما القيادة للشخص الأكبر سناً، باعتباره انسانا رشيدا، ويتصرف بشكل عقلاني, وربما يكون القائد هو الاقوى.

4 - نظرية العقد الاجتماعي: ترى هذه النظرية ان قرار الشعب في الاتفاق على تلبية طموحاتهم في قيام الدولة وبنائها وتجسد ذلك في اراء وطروحات روسو وهوبز واسبينوزا... الخ.

ج- العقد الاجتماعي من وجهة نظر رواده

1. جان جاك روسو: ينطلق روسو في تحديد الحالة المدنية للمجتمعات من الاساس المدني الذي اصبح عليه المجتمع ومن خلال العقد الاجتماعي، لأفراد هذا المجتمع, ومن خلال قناعة افراده بان التغيير والتطور في اكساب الفرد كعضو في المجتمع قوة جديدة، لا يمكن الا من خلال التضامن وتوحيد القوى القائمة وتوجيهها، وما كان لينشأ هذا المقدار او ذلك من القوى الا باتفاق اناس كثيرين، من خلال العدالة محل الغريزة في سيره، والتحكم بأفعاله، بما ينسجم مع الآداب العامة وبما لا يضر بمصالح المجتمع. وفي اشارته الى الحال المدنية يذكر روسو ان الانتقال من الحالة الطبيعية الى الحالة المدنية ادى الى تغيير حياة الانسان؛ حيث حلت العدالة محل الغريزة في سيرته وسلوكه الشخصي، وبالتالي المجتمعي. وكما يقول روسو اصبح الانسان اكثر ادبا وضبطا مما كان عليه خارج حدود المجتمع المنظم وحلت العدالة الاجتماعية (5).

2. باروخ سبينوزا: ولد سبينوزا سنة 1632 في مدينة امستردام في هولندا من عائلة برتغالية. درس انظمة الحكم، واجرى مقارنة ووجه انتقادات الى الانظمة الشمولية والتسلطية التي تقوم على اساس حكم الفرد. وأوضح ان النظام الديمقراطي هو اكثر النظم التي تتفق مع العقل والطبيعة، وما قام به هو ثورة في الفكر الديني والسياسي في الزمن الذي عاش فيه سبينوزا ودعوة الى

التطبيقات التي تتسم بالنور الطبيعي في مجالي السياسة والدين من اجل ان لا يخلط الناس بين البدع الانسانية والتعاليم الالهية او الخلط بين المصداقية الساذجة والايمان الصادق الصحيح. وفرق بين ما هو ديني يجب ان يكون اساسا وهو كذلك. وما يكون دنيويا: هو اساس كذلك. واوضح سبينوزا، ان حرية التفكير لا تشكل خطرا على الدولة وان القضاء عليها هو قضاء على الدولة. واوضح ان العقل اساس الايمان، وبالتالي العقل هو اساس كل نظام سياسي تتبناه الدولة؛ فإذا غاب العقل ظهرت الخرافة، وان سادت الخرافة غاب العقل, ويجب ان تسود حرية الرأي، ويجب ايضا ان تكون مكفولة للمواطنين جميعا، وان الدولة هي التي تتولى رعاية هذه الحرية؛ فالديمقراطية تنشأ وتستلزم تعميم الامن والسلام في الدولة واحترام القانون (6).

3. جون لوك: عاش جون لوك للفترة من (1632-1704) حيث ولد في جنوب بريطانيا، وكانت له آراؤه في الحكم وطبيعته والأسس المعتمدة في مؤلفه (مقالتين في الحكم المدني). وقد تميز عن اقرانه بالفهم العميق لتأثير الفلسفة في ان يكون لدى الانسان سبب وجيه ليعيش حياته؛ اذ ان الحياة تعتمد على رغبة الانسان، واذا لم تكن لدى الانسان غاية الا رغباته، فهو ينساق الى رغباته؛ اذ ان الانسان هو ابن بيئته، وبالتالي لهذه البيئة اثر كبير في ثقافته وآرائه في ما يتعلق بالانتماء الى الوطن؛ اذ بدأ مؤلفه بجزئين، تناول الاول بعض المبادئ الفاسدة وتمحور حول العبودية والحرية الطبيعية والسلطة الابوية والسلطة الملكية والسيادة والملكية. كما عرج على الأبوة والملكية كمصدرين مزدوجين للسلطة. وفي الجزء الثاني من الكتاب تعرض الى الحكم المدني الصالح وفي هذا الجزء يذكر ان الانسان يولد حرا ولا سلطان عليه متمتعا بجميع حقوقه الطبيعية، ولكن الانسان لا يستطيع بمفرده رد الاعتداءات لاسيما عندما لا يكون هناك مجتمع نظامي، ولدفع الاعتداءات على الآخر لا بد من مجتمع سياسي وجماعة لها سلطة اصدار التشريعات المنظمة، بمعنى ان الجماعة هي الاساس في تنظيم المجتمع وان سلطة الحكم المدني تتعلق بالخيرات المدنية للبشر وتقوم على حماية الاشياء المتعلقة بهذا العالم، بمعنى انها معنية بما هو دنيوي(7) وان تتفق على سياسات وتنظيمات وقوانين حاكمة، وهكذا تكتسب الدولة سلطة وضع العقوبات التي تطبق على شتى المخالفات، وحول نشوء المجتمعات السياسية، يشير (جون لوك) الى ان القرار للأكثرية، ويعتبر قرار المجموع. وهكذا يتم الاتفاق لتكوين هيئة سياسية واحدة وبالتالي ان اتحاد الناس في دولة ما، والرضوخ للسلطة هو المحافظة على املاك الناس، وتجنب الاعتداء عليهم ومن اجل ذلك يقبل الناس، وبإجماع لإقامة كيان الدولة كمجتمع مدني. ويعني ذلك ان الدولة انما تنشأ عن اتفاق على حياة الاجماع تراضيا واقتناعا، كما حصل في تأسيس روما والبندقية وسواهما من المدن القديمة. وربط (جون لوك) ارتباط الفرد بالدولة بمقدار التزامه بإرث أبيه من الاموال، ويعد ذلك من ميزات المجتمع المدني الذي ينبثق عن المجتمع الطبيعي. وفي هذا النوع من المجتمعات يتم تقويم الاعوجاج وتصحيح المفاسد ويحقق الاغراض التي وجد الانسان من اجلها وكل ذلك مرهون بسلطة شرعية،

لها صلاحية وضع القوانين وتنفيذها، ولولا هذه السلطة لما كان هناك فرق بين المجتمع الطبيعي والمجتمع المدني (8).

4. توماس هوبز: ولد توماس هوبز في انكلترا سنة 1588م، ودخل اكسفورد في عمر مبكر وهو في الخامسة عشرة، ودرس المنطق الدراسي والطبيعيات دون اهتمام كبير، وسافر الى فرنسا خلال عامي 1929 - 1931 تعرف خلالها على مبادئ اقليدس. وفي عام 1940 نشر كتابه (مبادئ القانون الطبيعي السياسي). ويرى كما جاء بكتابه: (الاوتيان - التنين)، ان الناس بطبيعتهم انانيون تماما يبحثون عن البقاء والسلطة والحصول على القوة. ويشير هوبز الى ان الحياة الطبيعية، وهي حالة الفطرة أو الطبيعة ولكنها فقيرة ومقفرة، ولذلك توصل الناس الى انهم في حاجة الى الامان والنظام، وتخلص من الخوف؛ حيث يفترض ان يوفر لهم النظام الأمن والأمان والتمتع بالحقوق، ضمن سيادة للقانون تضمن الحقوق وتفرض الواجبات، وتحاسب من يخرج على القانون. ودافع هوبز عن الحكم المطلق والسلطة المطلقة ولكن ليس باسم الحق الالهي للملوك بل باسم مصلحة الناس جميعا، واعتبر هوبز من خلال مؤلفه (الاوتيان - التنين)، داعيا الى الحكم العلماني المطلق وكان أحد اعلام نظريات السلطة المطلقة للدولة. ويقول هوبز انه يجب على الافراد التنازل عن حقوقهم كافة مقابل ان يتحقق الأمن والنظام الذي تفرضه الحكومة في المجتمع القائم على اساس سيادة القانون، وقد أثرت افكاره في من جاء من بعده من اصحاب النظريات السياسية. وعاش الرجل متأثرا بما تميز به القرن السابع عشر، حيث الحروب والثورات الداخلية مما انعكس على افكاره التي يمكن وصفها بانها ذات سمات علمانية، اذ ان تلك الفترة كانت تتسم بالنفوذ الديني حيث سلطة الكنيسة والنبلاء.

ثالثا- مقومات قيام الدولة المدنية

1. ايمان الحكومات القائمة بضرورة وجود الدولة المدنية: ان قيام دولة مدنية في بلد معين، مرتبط بإيمان تلك الحكومة القائمة في تلك الدولة، ونظامها السياسي القائم ومدى ايمان هذا النظام بقيام الدولة المدنية ودولة الحق والقانون وسيادة هذا القانون. وهذا النوع من الحكومات يحتاج الى تهيئة ودعم من قطاعات مختلفة وتتمتع بوعي جماهيري واسع وهذا واجب الفئات الواعية من النخب المثقفة والتي لديها الاستعداد للحديث ليس الصمت ازاء الاحداث وهي موجودة وتريد الدولة المدنية.

2. الدستور العراقي: بعد احتلال العراق عام 2003 استمرت الحكومات المتعاقبة على العمل بالتشريعات السابقة التي ما زال الكثير منها ساري المفعول، اصدرت الحكومة عام 2005 دستورا جديدا، تضمن 144 مادة، حيث كلفت لاعداده لجنة من مختلف الكتل السياسية برغم ما ورد فيه من ثغرات عديدة وتم طرحه للتصويت حيث تم التصويت عليه من الشعب دون مناقشة، او ابداء رأي الناس، واكتفى بآراء اللجنة التي اعدته والتي اخذت بنظر الاعتبار ما ارادته الكتل السياسية دون مناقشة من خلال ندوات او مؤتمرات في عموم المحافظات، فآراء الناس يجب ان تسمع ولكن هذا ما حصل. في هذا الدستور وردت اشارات منها عبارة وردت في ديباجة

الدستور كانت تؤكد على ان العراق ماض قدما في بناء دولة القانون ومعروف ماذا يعني دولة القانون حسب ما ورد في الدستور، هي سيادة القانون ولو كان القانون سائد فعلا ما حصل الذي حصل في العراق خلال هذه الفترة. وفي هذه الديباجة وردت عبارات من قبيل: تعزيز الوحدة الوطنية والتداول السلمي للسلطة وتبني اسلوب التوزيع العادل للثروة ومنح تكافؤ الفرص. وفي المادة الاولى وردت عبارة نظام الحكم في العراق جمهوري برلماني ديمقراطي وهذا الدستور ضامن لوحدة العراق، وفي المادة الخامسة - السيادة للقانون والشعب مصدر السلطات وشرعيتها يمارسها بالاقتراع السري العام المباشر وعبر مؤسساته الدستورية، وفي المادة 19 اكد على استقلالية القضاء ولا سلطان عليه. أما على صعيد الحريات فجاء في المادة 37 اولا – حرية الانسان وكرامته مصونة، اما المادة 38 فقد اكدت في اولا وثانيا وثالثا على حرية التعبير عن الرأي بكل الوسائل وحرية الصحافة والطباعة والإعلان والاعلام والنشر وحرية الاجتماع والتظاهر السلمي، وتنظم بقانون. وجاء في المادة 42 لكل فرد حرية الفكر والضمير والعقيدة، كما ورد في الفقرة اولا من المادة 45 حرص الدولة على تعزيز دور مؤسسات المجتمع المدني ودعمها وتطويرها واستقلاليتها، من خلال مراجعة هذه الفقرات التي اشير الى احتواء دستور عام 2005 (9) عليها يمكن تشخيص ما يأتي:

2-1 لم يكن العراق دولة قانون خلال الفترة من عام الاحتلال ولغاية الوقت الحاضر؛ اذ ان دولة القانون ليس فيها فاسدون ولا مرتشون وتعتمد القوانين الاصولية في الاختيار والتعيين للمناصب القيادية، بينما الفساد يكاد ان يكون ثقافة حكم وحكام ومسؤولين في مختلف مفاصل الدولة، ومبني على المحاصصة التي تشكل اساس النظام القائم وهو السبب الرئيس للفشل في ادارة الدولة.

2-2 لم تكن حرية التعبير مطلقة بل هناك من تمت محاسبته واعتقاله. وهذا مخالف لما ورد في الدستور والسبب شيوع ثقافة عدم الالتزام بالتشريعات وغلبة نزعة الاستئثار بالسلطة.

2-3 منظمات المجتمع المدني لم تحظ بالتأييد والدعم، كما اكد على ذلك الدستور.

لكن ما ورد في الدستور ومؤشرات وتأكيدات يمكن من خلالها تحقيق ما مطلوب.

3. الثقافة العامة والوعي الجماهيري: ان وعي الجماهير يعد النواة الاساسية لقيام الدولة المدنية؛ اذ ان معرفة الانسان بحقوقه وواجباته، وما يجب ان تكون عليه علاقاته مع الاخر ضمن المجتمع الذي يعيش فيه، يسهل ذلك قيام الدولة المدنية، لان المجتمع المدني يقوم على اساس الاعتراف بحقوق الآخرين، ابناء البلد الواحد، بغض النظر عن الجزئيات الاخرى، مجتمع مدني يقوم على اساس الحرية والسلام وحقوق الانسان، هو مطلب كل الجماهير الواعية والمدركة لأهداف وغايات كل اعضاء المجتمع دون التمييز على اساس الفرعيات.

4. السيادة والاستقرار السياسي: يعد الاستقرار السياسي في اي دولة شرطا اساسيا لقيام الدولة المدنية، اذ ان الاستقرار السياسي يعكس اثره على المجتمع ومكوناته باختلاف قومياتها واديانها ومذاهبها، ومدى استعدادها للعمل من اجل بناء الدولة والمجتمع وارساء

ركائز الدولة الدستورية، لما سيكون لهذا الاستقرار من ابعاد على مجالات التنمية الشاملة، اذ ان ما يعزز الاستقرار السياسي هو تكافؤ القوى والاحزاب السياسية والوطنية في العلاقات بينها والتعامل مع هذه القوى من قبل الدولة بشكل متوازن، كما سيكون للاستقرار تأثير في الاسراع بتنفيذ مشاريع وبرامج التنمية الاقتصادية بدلا من التشتت والإبطاء في تنفيذ بعض المشروعات الاقتصادية، نتيجة الصراعات بين الاطراف المعنية. ان الاستقرار يساهم في تحقيق التوازن في المصالح السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وللاستقرار السياسي مجموعة من المؤشرات، ومن ابرز هذه المؤشرات ما يأتي:

4-1 التداول السلمي للسلطة: التداول السلمي للسلطة أهم نمط من انماط انتقال السلطة سلميا من الحاكم الحالي الى المرشح الجديد. وعملية الانتقال هذه ناتجة عن انتخابات حرة ديمقراطية ونزيهة، لان بعض الانتخابات يشوبها الشك في نتائجها وبالتالي اعتماد اسلوب التزوير في الفوز في الانتخابات.

4-2 شرعية النظام السياسي: يكتسب النظام السياسي شرعيته من خلال رضا وقبول الاكثرية بهذا النظام او ذلك وتأتي الشرعية مما ذكر في الفقرة السابقة من الانتخابات الحرة الديمقراطية النزيهة، وخلاف ذلك لا تعد الانقلابات شرعية إلا اذا كانت على نظام استبدادي – دكتاتوري، وكان الانقلاب سبيلا للخلاص برغم كونه اسلوبا غير ديمقراطي.

4-3 الاستقرار الامني وغياب العنف: يعد ذلك مؤشراً واضحا عن الاستقرار السياسي، ومعبرا عن قدرة الدولة على حفظ الامن والنظام العام.

4-4 اعتماد استقلال القضاء والجيش والجامعات: من اجل المحافظة على النهج السليم لهذه المؤسسات لما فيه خدمة المجتمع على الشكل السليم من اجل التعامل المتوازن مع المواطنين باختلاف قومياتهم واديانهم او مذاهبهم، ولأهمية حيادية الجيش في دولة ديمقراطية نظامها برلماني.

4-5 التماسك المجتمعي والوحدة الوطنية: يعني ذلك التعامل بين المواطنين على اساس هوية البلد، دون التعاطي مع الفرعيات، وبالتالي استيعاب وقبول الآخر، لأن البلد هو بلد الجميع والجميع شركاء في الوطن، بغض النظر عن القومية او الديانة او المذهب. فكثيرا ما أدت مثل هذه الفرعيات الى صراعات بين مكونات المجتمع الواحد وسببت صراعات وعنفا طائفيا وقوميا، ما زالت تعاني منه بعض الشعوب.

4-6 التنمية الاقتصادية والاجتماعية: الحكومات المستقرة سياسيا تستقر اقتصاديا، اذا كان لديها برنامج اقتصادي قائم على اساس التخطيط لإستثمار الموارد الاقتصادية وتوزيعها بشكل عادل على المناطق الجغرافية وبما يحقق التوازن بين احتياجات المدن.

4-7 اعتماد الديمقراطية كمنهج في ادارة الدولة ودعم المشاركات السياسية للقوى الموجودة والراغبة في المشاركة ومن مختلف القوى والجماعات ولكن يجب ان يكون ذلك دستوريا، ويستند الى القانون مع استيفاء الشروط اللازمة للقوى الراغبة في المشاركة.

4-8 غياب الهجرة الداخلية والخارجية: ان غياب هذا النوع من الهجرة دليل على

الاستقرار في الدولة عن قريناتها من دول اخرى، ومن بينها دول عربية ضاقت فيها الحياة على مواطنيها فاختاروا المهجر (10)، ومن بين هذه الدول العراق وسوريا واليمن وليبيا وبعض الدول الاخرى عربية وغير عربية. وهذا مؤشر سلبي على اداء الحكومات اينما كانت.

رابعا – تحديات الدولة المدنية

1. الجماعات الضاغطة

1-1 جماعات داخلية: الجماعات الضاغطة الداخلية، هي جماعات تنطلق من منافعها ومصالحها الذاتية ومصالح الجماعات المرتبطة بها، وتتلخص هذه المصالح بكسب المال بأشكال مختلفة والحصول على فرص اشغال المراكز الوظيفية في مؤسسات الدولة، ولذلك تمارس الضغط على الحكومات باتجاه التغيير وبما ينسجم مع مصالحها ويسهل تحقيق هذه المنافع والمصالح ويحصل ذلك في جميع مؤسسات الدولة، كما ان هذه الجماعات تظهر في مختلف الدول والنظم السياسية عندما تكون هناك ديمقراطية ولكن هذه الديمقراطية تحتاج الى دولة مؤسسات لرعاية ممارسة الديمقراطية بشكل سليم وينسجم مع سيادة القانون. ان ضغط هذه الجماعات مرتبط بالمصالح دون الاهتمام بالرأي الآخر، وتحاول فرض رأيه احيانا باسم الدين لأنه الاكثر تأثيرا في شعوب الشرق الاوسط وشمال افريقيا والدول الاسلامية عموما. وتبعا لذلك تأخذ اساليب واشكال الضغط اساليب واشكالا مختلفة من بينها تهديد اصحاب المراكز الوظيفية في المستويات العليا في حالة عدم الاستجابة لآرائها، وحيث ان الدولة المدنية دولة قائمة على سيادة الحق والقانون فهي تعتبر الدولة المدنية تهديدا لمصالحها ولا ترغب بالدولة المدنية لأنها لا تستطيع الاستئثار بالمنافع والمصالح، لان النظام لا يسمح بغير ما هو قائم على اساس الحق والقانون لذلك تقف بالضد من الدولة المدنية (11). ومن انواع هذه الجماعات:

* الجماعات الدينية: هي جماعات يصف بعضها الدولة المدنية والعلمانية بانها دولة الكفر والالحاد ويقول اخر بان المدنيين والعلمانيين اخطر من داعش، هو صادق في ما قال لان المدنيين والعلمانيين رجال دولة ويمكنهم استلام السلطة وادارة الدولة بقدرة وكفاءة عالية.

* الجماعات المهنية: هذه الجماعات تعني بالمصالح الشخصية او المهنية للجماعات التي تمثلها, وبالتالي فهي بقدر ما ينسجم النظام السياسي مع مصالحها تتوافق مع هذا النظام وبعكس ذلك تقف بالضد منه وتعمل باتجاهات مضادة, لكن الدولة المدنية وكما هو معروف توفر حرية مقبولة الى حد ما ولكن بالانسجام مع المصلحة العامة للمجتمع.

1-2- الجماعات الخارجية: تمارس بعض الحكومات او الجماعات المتنفذة في بلد ما، ضغوطا بالضد من قيام الدولة المدنية وذلك من خلال الجماعات المتنفذة في البلد المعني، او لعرقلة القرارات التي يمكن اتخاذها وهذا يتضح من خلال ما تقوم به بعض دول الجوار، بالنسبة للعراق يدخل ضمن هذا التصنيف؛ اذ ان الدولة المدنية لا تسمح بالقيام بمصادرة حرية الناس.

2- الاسلام السياسي: هناك خلاف بين دعاة

الاسلام السياسي ودعاة الدولة المدنية؛ فالإسلاميون يطلق بعضهم وليس جميعهم تسميات على العلمانية بأنها كفر والحاد، والعلمانيون كافرون وملحدون. وبالمقابل هناك اسلاميون معتدلون ينظرون الى الدولة المدنية على عكس نظرة اقرانهم؛ فالدولة المدنية هي الدولة التي تعبر عن ارادة الاغلبية بانتخابات حرة وديمقراطية خالية من التزوير وهي دولة يسودها القانون على الجميع دون استثناء، وضمان حقوق الناس وحرياتهم، ولا تفرق بين الناس على اسس قومية او مذهبية او دينية، بل تقوم على قبول الاخر مهما كانت ديانته او قوميته.

1 - فقدان الامن والاستقرار السياسي:

ان فقدان الامن والاستقرار يعد مشكلة مجتمعية وحكومية كبيرة حيث ان توفير الامن هو من مهام الحكومة الاساسية والذي يعبر فقدانه بشكل كبير عن عدم اهتمام الدولة بتوفير الامن لشعبها. وستكون له انعكاسات على كل المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وربما يعود السبب الى ضعف الحكومات وعدم فعاليتها في ادارة شؤون المجتمع وغياب سيادة القانون او انحيازها لجهة دون اخرى على اساس سياسي او حزبي او مذهبي او قومي، لذلك سيكون تأثير ذلك واسعا وبكل الاتجاهات والمستويات الرسمية وغير الرسمية وسيؤدي الى فقدان التماسك الاجتماعي.

مراجع البحث

1 - فاروق، عبد الخالق، اوهام السلام، رؤية استراتيجية. مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر، مصر 1994.

2 - عليان، ابراهيم خليل، الدولة الدينية والدولة المدنية، مؤتمر بيت المقدس الثالث، جامعة القدس المفتوحة – فلسطين، 2012.

3 - الشاهر، شاهر اسماعيل. الاستقرار السياسي – معاييره ومؤشراته، 2016.

4- روسو، جان جاك، العقد الاجتماعي او مبادئ الحقوق السياسية، ترجمة عادل زعيتر، 2012.

5- اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة وتقديم د. حسن حنفي. مراجعة د. فؤاد زكريا، ط1، جار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت، 2005.

6- لوك، جون. رسالة التسامح، ترجمة منى ابو سنه، تقديم ومراجعة مراد وهبة، مكتبة الاسكندرية، 1999.

7- لوك، جان، الحكم المدني، تعريب ماجد فخري، اللجنة الدولية لترجمة الروائع، بيروت، 1959.

8- هوبز، العقد الاجتماعي: الاسس النظرية وابرز المنظرين, http// www.4shared.com

9- الدستور العراقي لسنة 2005.

10- htt// www.scnbd.com

11- رشيد، زكي، الدولة المدنية – هل تشكل نقيض للدولة الاسلامية، موسوعة الجزيرة، 2015.

الاحوال الشخصية بين القانون النافذ والإحكام الفقهية

حيان الخياط
محام وإعلامي وناشط مدني، بكالوريوس قانون

ما هو قانون الاحوال الشخصية؟

قبل ان نبدأ بشرح المسائل التي ترتبط بمقترح تعديل قانون الاحوال الشخصية، ينبغي ان نوضح بعض المصطلحات القانونية ليتسنى للجميع فهم الموضوع والانخراط في الحوارات التي تتعلق به، وهم يمتلكون معلومات ورؤية قانونية واضحة.
قانون الاحوال الشخصية العراقي النافذ رقم 188 لسنة 1959 هو القانون الذي يعنى بمسائل الزواج والمهر والنفقة والطلاق والتفريق والنسب والحضانة والإرث والوصية والإيصاء وغيرها من الموارد التي تتعلق بالأسرة والعلاقات بين افرادها.
ويطلق عليه مصطلح (نافذ) للدلالة على كونه ساري المفعول حتى يومنا هذا، فعندما يذهب الزوج الى المحكمة لتنظيم عقد زواجه او لتصديق طلاقه او ان تقوم زوجة باللجوء للمحكمة لطلب النفقة او اقامة دعوى حضانة، فان القانون الذي يتم تطبيقه على هذه المسائل هو قانون الاحوال الشخصية النافذ رقم 188 لسنة 1959.
والجديد في ما يتعلق بهذا القانون هو ظهور مقترح لتعديله لا يزال في اروقة البرلمان بانتظار مناقشته والتصويت عليه لقبوله او رفضه، وهذا المقترح ليس قانوناً نافذاً او ساري المفعول حتى الان. وقد جاء هذا المقترح بإضافات للمواد القانونية الموجودة حالياً، وكذلك حذف بعض المواد وإبدالها بمواد اخرى.

هل يجيز التعديل الجديد زواج القاصرات فعلاً؟

في قانون الاحوال الشخصية النافذ، لا يعتبر المرء مؤهلاً للزواج إلا بعد إكمال الثامنة عشرة من العمر، مع وجود استثناء بينته المادة الثامنة بالفقرتين:
1 – اذا طلب من اكمل الخامسة عشرة من العمر الزواج، فللقاضي ان يأذن به، إذا ثبت له اهليته وقابليته البدنية، بعد موافقة وليه الشرعي، فإذا امتنع الولي طلب القاضي منه موافقته خلال مدة يحددها له، فان لم يعترض او كان اعتراضه غير جدير بالاعتبار أَذِن القاضي بالزواج.
2 – للقاضي ان يأذن بزواج من بلغ الخامسة

عشرة من العمر اذا وجد ضرورة قصوى تدعو الى ذلك. ويشترط لإعطاء الاذن تحقيق البلوغ الشرعي والقابلية البدنية.
ولتوضيح هذه المادة ينبغي التركيز على مصطلحي (اكمل) و(بلغ)، ففي الفقرة الاولى يجوز للقاضي وحسب سلطته التقديرية ان يأذن بالزواج لمن (اكمل) الخامسة عشرة من العمر ذكراً كان أم انثى اذا ثبت له اهليته وقابليته البدنية مع اضافة شرط موافقة الولي الشرعي وهو الاب غالباً.
أما الفقرة الثانية فورد فيها مصطلح (بلغ) الخامسة عشرة، مما يعني جواز عقد زواج من اكمل الرابعة عشرة من العمر، وهي تسمى حجة ضرورة قصوى في المحاكم.
هذا باختصار ما موجود في متن القانون النافذ والمطبق في اروقة المحاكم في وقتنا الحالي، أما مقترح تعديل القانون فلم يرد فيه اي نص يتعلق بالسن القانوني للزواج سواء للذكر أو الانثى، فقد اقتصرت مواده على نصوص عامة ومطاطة تتعلق بتطبيق الاحكام الشرعية على من يقدم طلباً بذلك.
لكن عند الامعان في هذه النصوص نجد انها تسمح بزواج القاصرات وفقاً للمذهب الديني الذي يتبعه المرء، حيث جوزت نصوص مقترح تعديل القانون ان يقوم المرء بتقديم طلب الى محكمة الاحوال الشخصية ليتم تطبيق احكام مذهبه الديني عليه وعلى عائلته.

ابرز المواد التي وردت في مقترح تعديل القانون وتعليقنا عليها

المادة الاولى من مقترح تعديل قانون الاحوال الشخصية:

الفقرة (أ): "يجوز للمسلمين الخاضعين لأحكام هذا القانون تقديم طلب الى محكمة الاحوال الشخصية المختصة، لتطبيق الاحكام الشرعية للأحوال الشخصية وفق المذهب الذي يتبعونه".
الفقرة (ب): "تلتزم المحكمة المختصة بالنسبة للأشخاص الوارد ذكرهم في الفقرة (أ) من هذا البند عند اصدار قراراتها في جميع المسائل التي تناولتها نصوص قانون الاحوال الشخصية رقم 188 لسنة 1959 المعدل وغيرها من المسائل المتعلقة بالأحوال الشخصية، بإتباع ما يصدر عن المجمع العلمي في ديوان الوقف الشيعي، والمجلس العلمي والإفتائي في ديوان الوقف السني، وتبعاً لمذهب الزوج، ويصح ان يكون سبباً للحكم.
ومما سيترتب من نتائج على هذه المادة في حال تشريعها هو الاتي:
1 - تقسيم العراقيين فيما يتعلق بالأحوال الشخصية الى ثلاث فئات:
الفئة الاولى: العراقيون الذين لا يقدمون طلباً للمحكمة، فتطبق عليهم احكام قانون الاحوال الشخصية العراقي النافذ.
الفئة الثانية: العراقيون الذين يقومون بتقديم طلب للمحكمة، فتطبق عليهم الاحكام الشرعية للأحوال الشخصية وفق المذهب الذي يتبعونه.
الفئة الثالثة: وهم كل من النساء والقاصرين الذين لا يحق لهم الاختيار، وستطبق عليهم كافة الاحكام الفقهية تبعاً لما يختاره الزوج/ الاب.
2 - فوضى في قرارات الحكم الصادرة من محاكم الاحوال الشخصية وذلك نظراً لتطبيق احكام قانونية مرة وأحكام فقهية في مرة أخرى، بالإضافة الى اهدار تاريخ

ثري من الاحكام والمبادئ القضائية على امتداد اكثر من نصف قرن.

3 - تقييد سلطة القاضي في اصدار الحكم والحد من استقلاليته، حيث تنص الفقرة (ب) سالفة الذكر على وجوب التزام المحكمة بإتباع ما يصدر عن الوقفين الشيعي والسني.

4 - ظهور مشاكل مثل زواج القاصرات وحرمان الزوجة من ارث الاراضي السكنية والزراعية وتعويض الطلاق التعسفي وعدم زواج البنت البالغة الرشيدة البكر إلا بعد موافقة الأب أو الجد لأب عند غياب الأب ووو الخ.

المادة الثالثة من مقترح تعديل قانون الاحوال الشخصية: "يجوز إبرام عقد الزواج لأتباع المذهبين (الشيعي والسني) كل وفقاً لمذهبه، من قبل من يجيز فقهاء ذلك المذهب ابرامه للعقد بعد التأكد من توافر أركان العقد وشروطه وانتفاء الموانع في الزوجين، على أن يجري تصديق العقد لدى محكمة الأحوال الشخصية خلال فترة لا تزيد على (60) ستين يوماً من تاريخ إبرامه".

وتعقيباً على هذه المادة نقول، ان عقد الزواج من العقود المهمة مما يحتم على الزوجين تسجيلها في المؤسسات الرسمية لتفادي حصول المشاكل مستقبلاً، حيث قد يقوم البعض بتنظيم عقد الزواج خارج المحكمة وبعد سنين عديدة يحاول تصديقه ليجد ان الزوج الاخر لا يقر بحصول الزواج، او بقاء الاطفال المولودين من زوجين عقدا زواجهما خارج المحكمة بدون وثائق رسمية ثبوتية خاصة بهم، وغير ذلك من المشاكل التي تلازم عدم تسجيل عقد الزواج داخل المحكمة. فتأتي هذه المادة لتشجع وتسهل الامر على الناس للزواج خارج المحكمة على العكس من قانون الاحوال الشخصية العراقي النافذ الذي يجرم هذا الفعل ويعاقب عليه، فقد نصت المادة العاشرة الفقرة 5 منه على: "يعاقب بالحبس مدة لا تقل عن ستة أشهر، ولا تزيد على سنة، او بغرامة لا تقل عن ثلاثمائة دينار، ولا تزيد على ألف دينار، كل رجل عقد زواجه خارج المحكمة، وتكون العقوبة الحبس مدة لا تقل عن ثلاث سنوات، ولا تزيد على خمس سنوات، إذا عقد خارج المحكمة زواجاً آخر مع قيام الزوجية".

المادة الرابعة من مقترح تعديل قانون الاحوال الشخصية: يضاف إلى آخر المادة السادسة من قانون الأحوال الشخصية رقم 188 لسنة 1959 المعدل ما يأتي، ويكون البند (5) لها: -5 يجوز للزوجة أن تشترط على الزوج في عقد الزواج أن تكون وكيلة عنه في طلاق نفسها متى أخل بحقوقها الزوجية من النفقة وحسن المعاشرة.

ولا حاجة لإضافة هذه الفقرة كلياً، حيث نص قانون الاحوال الشخصية العراقي النافذ وفي المادة الرابعة والثلاثون/ اولاً: "الطلاق رفع قيد الزواج بايقاع من الزوج او من الزوجة ان وكلت به او فوضت". ويمكن توضيح هذا النص بالفكرة المشهورة عن العصمة وكيف ان الزوجة يمكن ان تمتلك عصمة الطلاق وان تطلق نفسها من زوجها.

وعلاوة على ذلك، ان النص الحالي والنافذ يتيح للزوجة الطلاق متى شاءت ولا يشترط اخلال الزوج بحقوقها الزوجية من النفقة وحسن المعاشرة.

الاحكام الفقهية التي ستطبق بدلاً عن قانون الاحوال الشخصية النافذ

في حال تم تشريع مقترح تعديل قانون الاحوال الشخصية، فان الكثير من الفتاوى الفقهية سيتم العمل بها في محاكم الاحوال الشخصية العراقية، وهذه بعض من النماذج التي سيتم تطبيقها:

1 – البلوغ:

وهذه هي المشكلة الاهم التي لاقت صدى اعلاميا ومعارضة من قبل الناس، وللتعمق في هذا الموضوع سننقل من امهات الكتب الفقهية ما ذكر بشأن البلوغ للذكر والانثى.

حيث اتفقت المذاهب الخمسة على ان ''الحيض والحمل يدلان على بلوغ الانثى'' (الفقه على المذاهب الخمسة – محمد جواد مغنية ص300).

ويقول الشيخ محمد جواد مغنية: ''قال الامامية: خمس عشرة في الغلام، وتسع في الجارية، لحديث ابن سنان: ''اذا بلغت الجارية تسع سنين دفع اليها مالها، وجاز أمرها، واقيمت الحدود التامة لها وعليها''. وأثبتت التجارب انها قد حملت، وهي بنت تسع، وقابلية الحمل كالحمل تماماً'' [الفقه على المذاهب الخمسة ص300].

اما الحنفية فان الحد الادنى للبلوغ عندهم: ''فهو اثنتا عشرة سنة للغلام، وتسع للجارية'' (الفقه على المذاهب الخمسة ص300).

وقد ورد في موقع السيد السيستاني/ الاستفتاءات/ البلوغ في الذكر والانثى/ السؤال العاشر:

''السؤال: ما هي علامات البلوغ عند الذكر والانثى؟

الجواب: علامة البلوغ في الانثى اكمال تسع سنين هلالية، وفي الذكر احد الامور الثلاثة:

1 - نبات الشعر الخشن على العانة، وهي بين البطن والعورة. ٢ - خروج المني.

3 - اكمال خمس عشرة سنة هلالية''.

والجدير بالذكر، ان بدايات استعداد الجسم للحمل والولادة عند الانثى وتوافر القدرة على انتاج المني والإخصاب لدى الذكر لا تعني بالضرورة ان باستطاعتهم الزواج وتحمل المسؤوليات والمشاكل والمعوقات الملازمة له. فالفتاة يمكن ان تصبح حاملاً وتنجب ايضاً في عمر صغير ولكن هل يتم ذلك دون الاضرار بها او بالجنين؟ والذكر قد يصل جسمه الى مرحلة انتاج الحيوانات المنوية وبالتالي تخصيب البيضة في رحم الانثى، ولكن هل هو على استعداد للتعامل مع الطفل وتربيته بشكل جيد وتحمل مسؤوليته؟

وينبغي عند هذه النقطة الرجوع للمعلومات الطبية الفسيولوجية والنفسية التي توفر الاجابة عن مثل هذه الاسئلة ليطلع عليها المشرع العراقي قبل تشريع مثل هكذا قوانين.

2 - صحة الزواج والطلاق بالإكراه

يرى الحنفية ان الزواج والطلاق بالإكراه صحيح ولا شائبة فيه، فقد جاء في كتاب الفقه على المذاهب الاربعة الذي وضعه الازهر بالاعتماد على لجنة من كبار رجال الدين: ''ينعقد الزواج بالاكراه'' (الفقه على المذاهب الخمسة ص 298).

وكذلك ورد في اول باب الطلاق من كتاب مجمع الانهر الحنفية ج1: ''يصح الاكراه في الطلاق والزواج والرجعة والحلف بالطلاق

.. الخ". (الفقه على المذاهب الخمسة هامش ص 298).
في حين ان قانون الاحوال الشخصية النافذ نص في المادة التاسعة على:
1 - لا يحق لاي من الاقارب او الاغيار اكراه أي شخص، ذكرا كان ام انثى على الزواج دون رضاه، ويعتبر عقد الزواج بالاكراه باطلا، اذا لم يتم الدخول، كما لا يحق لاي من الاقارب او الاغيار، منع من كان اهلا للزواج، بموجب احكام هذا القانون من الزواج.
2 - يعاقب من خالف احكام الفقرة (1) من هذه المادة، بالحبس مدة لا تزيد على ثلاث سنوات، وبالغرامة أو بإحدى هاتين العقوبتين، اذا كان قريبا من الدرجة الاولى. اما اذا كان المخالف من غير هؤلاء فتكون العقوبة السجن مدة لا تزيد على عشر سنوات، او الحبس مدة لا تقل عن ثلاث سنوات.

3 - زواج البالغة البكر الرشيدة

لا يصح زواج المرأة البكر مهما بلغت من العمر وحازت من علم إلا بعد موافقة ابيها او جدها لأبيها وهذا ما جاء في موقع السيد السيستاني/ الكتب الفتوائية/ الفتاوى الميسرة/ حوارية الزواج: "أن صحة زواج المرأة البالغة الرشيدة البكر تتوقّف على اذن ابيها أو جدِّها لاَبيها (وان كانت مستقلّة في شؤون حياتها)".

4 - تقنين زواج المتعة

حيث ورد في موقع السيد السيستاني/ الكتب الفتوائية/ الفتاوى الميسرة/ حوارية الزواج: "نعم هناك زواج مؤقّت تتعين فيه المدّة والمهر، وتتحدّد المدّة بيوم مثلاً أو شهر أو سنة أو ما شاكل ذلك مما لا يزيد على عمر احدهما عادة ويحقّ للزوجين فيه تماماً ـ كما في الزواج الدائم ـ مباشرة العقد بنفسيهما أو توكيل من ينوب عنهما فيه، فلو باشر الزوجان العقد غير الدائم بنفسيهما فقالت المرأة للرجل مثلاً: «زوّجتك نفسي مدّة سنة بمائة دينار» قال الرجل مباشرة من دون فصل "قبلت التزويج" صحّ العقد. (.....)
ـ اذا تم ذلك، فستصبح المرأة زوجة، تحل لزوجها مدّة العقد، من دون توارث بينهما، ولا يجب على الزوج الإنفاق عليها، ولا المبيت عندها.
فاذا انتهت المدّة المتّفق عليها، حرمت عليه".

5 - حضانة الاطفال

ينص قانون الاحوال الشخصية النافذ في المادة السابعة والخمسين:
1 - "الأم احق بتربية وحضانة ولدها، حال قيام الزوجية. وبعد الفرقة، ما لم يتضرر المحضون من ذلك".
(.....)
4 - للاب النظر في شؤون المحضون وتربيته وتعليمه، حتى يتم العاشرة من العمر. وللمحكمة ان تأذن بتمديد حضانة الصغير، حتى إكماله الخامسة عشرة، إذا ثبت لها بعد الرجوع الى اللجان المختصة الطبية منها والشعبية، ان مصلحة الصغير تقتضي ذلك، على ان لا يبيت الا عند حاضنته".
5 - اذا اتم المحضون الخامسة عشرة من العمر، يكون له حق الاختيار في الاقامة مع من يشاء من أبويه، أو أحد اقاربه لحين اكمال الثامنة عشرة من العمر، اذا آنست

المحكمة منه الرشد في هذا الاختيار.
هكذا نظم القانون النافذ علاقة المحضون بأبويه سواء عند استمرار العلاقة الزوجية او الطلاق. وكما هو واضح من النص سالف الذكر فان الأم أحق بحضانة الولد الى ان يبلغ السن الذي يخير فيه للبقاء عند من يشاء من ابويه.
اما في الفقه فالأمر مختلف حيث قالت الحنفية: "مدة الحضانة سبع سنين للذكر، وتسع سنين للأنثى" (الفقه على المذاهب الخمسة 379).
وقالت الامامية: "مدة الحضانة للذكر سنتان، وللأنثى سبع سنين، وبعدها تكون للأب الى ان تتم الانثى تسعاً، والذكر خمس عشرة سنة يختار أي الأبوين يشاء" (الفقه على المذاهب الخمسة ص 380).
كما جاء في موقع السيد السيستاني/ الاستفتاءات/ الحضانة/ جواب السؤال 2: "والأظهر عندنا انها حق مشترك لأبويه في السنتين الاوليين من عمره وبعد ذلك تكون للأب خاصة ولا حق للأم ولا للجدة في حضانته ما دام الاب موجود".

6 - الزوجة لا ترث من الاراضي

مما ورد في موقع السيد السيستاني/ الكتب الفتوائية/ المسائل المنتخبة/ الارث/ إرث الزوج والزوجة: "أنّ الزوجة لها حكم خاصّ في الإرث فإنّ بعض الأموال لا ترث منها مطلقاً ولا نصيب لها لا فيها ولا في قيمتها وثمنها وهي الأراضي بصورة عامّة كأرض الدار والمزرعة وما فيها من مجرى القنوات".
ومما يترتب على ذلك، ان الزوج يرث زوجته في كل ما تمتلكه، لكن العكس غير صحيح، فعند وفاة الزوج لا ترث زوجته من اراضيه أو قيمتها أو ثمنها مطلقاً.
وهذه مجرد نماذج قليلة لما سيتم تطبيقه في المحاكم في حال تشريع مقترح تعديل قانون الاحوال الشخصية، ولمن أراد الاستزادة فكتب الفقه موجودة وبإمكانه الاطلاع على الموارد التي تخالف قانون الاحوال الشخصية النافذ. هذا وان آثار هذا التعديل ستتجاوز ما ذكرناه الى عدم العمل بقانون حق الزوجة المطلقة بالسكنى رقم 77 لسنة 1983، عدم اعطاء تعويض للزوجة المطلقة، إلغاء التفريق القضائي وعدم جواز الزواج من غير المسلمة وغير ذلك.

حوارية حول مقترح التعديل

جرى حوار بيني وبين احد الاشخاص فيما يتعلق بمقترح تعديل قانون الاحوال الشخصية وكان من بين اشكالاته على المعترضين على مقترح تعديل القانون هي ثلاثة اشكالات أوردها هنا مع تعقيبي على كل واحدة منها:
1 - سن التسع سنوات الذي تم تحديده في القانون لبلوغ الفتاة التكاليف الشرعية من صوم وصلاة واجتناب المحرمات وهو يبدأ بحسب آراء المراجع من (9 الى 13 سنة) كل مرجع ورأيه الفقهي، ويأخذون برأي المرجع الاعلى للطائفة. فسن 9 سنوات هو سن تكليف وليس سنا للزواج أو يجبر الآباء على تزويج بناتهم بهذا العمر وإنما اشترط القانون الجعفري ان تكون الفتاة (بالغة عاقلة رشيدة) لإتمام صحة الزواج والحاكم الشرعي هو أو القاضي من يؤيد اهلية الفتاة للزواج.

اما القانون الوضعي الحالي فلا يشترط ان تكون بالغة رشيدة عاقلة بلغت مبالغ النساء وإنما يشترط ان يكون عمرها 18 سنه لتكون مؤهلة للزواج فأيهما اكثر دقة لكم الحكم ان كنتم منصفين.

وكان جوابي بشكل فقرتين:

أ - القانون الحالي ينص في المادة 7 الفقرة 1: "يشترط في تمام أهلية الزواج العقل وإكمال الثامنة عشرة".

والمادة 5 تنص على ان: "تتحقق الأهلية في عقد الزواج بتوافر الشروط القانونية والشرعية في العاقدين أو من يقوم مقامهما".

وهذا يعني ان شرط اتمام الـ 18 من العمر ليس هو الوحيد، بل كونها عاقلة ورشيدة ايضا.

ب - وفيما يتعلق بسن الزواج فقهياً فيمكنك ان ترجع الى الرسائل العملية للمراجع او كتب الفقه الحنفي لتعرف ما هو السن الذي يمكن تزويج الانثى فيه وما هو السن المحدد للدخول.

2 - وهو موضوع الرجوع للحاكم الشرعي في تبيان الاحكام عندما يختار الشخص الاحتكام للمذهب الذي يتبعه ما هو الضير إذا قدم القاضي طلبا للوقف الشيعي او السني لمعرفة رأيهم الفقهي بخصوص مسألة معينة أو يدخل القضاة دورة أحكام فقهية في مسائل الميراث وغيرها من الامور كل حسب طائفته؟ ألا يوجد في السعودية المحكمة الجعفرية وكذلك في الكويت ولبنان والبحرين؟

وجوابي كان: القضاة درسوا مدة اربع سنوات في كلية القانون كل من الشريعة الاسلامية وأصول الفقه والمواريث وكل ما يتعلق بالأحوال الشخصية... الخ. ثم عملوا في الوظائف القانونية او المحاماة وكانوا على احتكاك بهذه المواضيع قراءة وتطبيقا ... الخ.

ثم اجتازوا اختبار الكفاءة للمعهد القضائي، ثم درسوا لمدة سنتين في المعهد القضائي مع استفاضة في مجال الاحوال الشخصية.

فهم اعلم الناس بالمسائل الفقهية وكما يقال: كل قاضي فقيه ولكن ليس كل فقيه قاضيا، وعليه لا حاجة للرجوع الى الاوقاف او غيرها من المؤسسات الدينية.

3 - ان القانون الحالي حاول ان يحجم من قضية الزواج خارج المحكمة، واسمح لي بان اقول لك انت مخطئ او مشتبه. نسب الزواج خارج المحكمة كانت وما زالت كثيرة واغلب من تزوجن خارج المحكمة اصبح لديهن اطفال ودون حقوق اذا تطلقت أو اصبحت أرملة.

اما التعديل الجديد فيعمل على حفظ حقوق الفتيات ممن تزوجن وفق المذهب الذي ينتمين إليه ويمنع بعض الآباء من اجراء عقود الزواج خارج اطر المحكمة، وبالتالي القانون ساعد على حفظ اعراض الناس وحقوقهم فهناك اباء وعوائل كثر زوجوا بناتهم بعمر اقل من عمر 18 سنة ولم تثبت لبناتهم حقوق فضاعت عوائل كثيرة بهذا الصدد.

وجوابي على كلامه كان:

أنا لم اقل ان القانون الحالي نجح في محاولته لتحجيم الزواج خارج المحكمة، بل قلت وكما نقلت انت انه (حاول) ويعاقب كل من يقوم بهذا الفعل.

وأزيدك ان الاغلبية الساحقة من العراقيين يتزوجون خارج المحكمة ثم يذهبون بعد

ذلك الى المحكمة لتسجيله بصورة رسمية.
وكلامك خاطئ بشأن من تتزوج خارج المحكمة ولا تحصل على حقوقها، فوفقا للقانون الحالي، فان المتزوجة خارج المحكمة بإمكانها اقامة دعوى لتصديق الزواج الخارجي وبعد ذلك دعوى لإثبات النسب في حال كان لها اطفال، وكذلك دعوى نفقة في حال ان الزوج تركها بدون نفقة، فهي تحصل على كافة حقوقها وفقا للقانون الحالي رغم ان زواجها تم خارج المحكمة.
اما مقترح التعديل الجديد فيعطي الشرعية للزواج خارج المحكمة ويمهل الزوجين مدة 60 يوما لتسجيله، وبذلك فقد انقلب الفعل الذي يعتبر جريمة في ظل القانون الحالي وهو الزواج خارج المحكمة (ونحن نتفق على كونه فعلا خاطئا، على ما اظن) الى فعل يحميه القانون.
وكلامك خاطئ ايضاً في ما يتعلق بان مقترح القانون الجديد (يمنع بعض الاباء) من اجراء عقود الزواج خارج اطار المحكمة، والصحيح انه يجيز ذلك.

بعض الاصوات المناهضة

أ ـ موقف الشيخ فاضل البديري

يقول الشيخ فاضل البديري في فتوى له: "فإننا قد اطلعنا على قرار البرلمان العراقي بتعديل قانون الاحوال الشخصية والذي بموجبه يجيز زواج الفتاة القاصرة والتي تبلغ التسع سنوات بناء على رأي جملة من الفقهاء، ونحن نرفض هذا التعديل بناء على الرأي الفقهي، لان الفقيه ينظر الى هذه الموارد من الناحية الشرعية فقط، بغض النظر عن الناحية الاجتماعية والأسرية والأخلاقية التي هي من اهم وظائف القانون الحكومي، ولا يمكن السماح بنص قانوني اجتماعي عام لكل الشعب على اساس اجتهاد الفقهاء وآراء المذاهب المختلفة مع مناهضته للحالة الاجتماعية، لانه سيؤدي الى الفوضى في تطبيق القانون المفضية الى فساد المجتمع، وسيكون ذريعة لضعفاء النفوس باستغلال المرأة وسلب حريتها بما لا يتناسب مع عرف هذه الأزمان، ولذا نأمر ببقاء القانون السابق على حاله وهو عدم السماح قانونا للفتاة بالزواج الا ببلوغها سن الرشد وهو الثامنة عشرة من عمرها لضمان بناء الاسرة المتكاملة، إلا في بعض الموارد الاستثنائية... والله ولي التوفيق".
وهو موقف يحسب له بان تصدى لمثل هذه المسألة بطريقة واقعية وعقلانية.

ب ـ موقف السيد كمال الحيدري

يقول رجل الدين العراقي السيد كمال الحيدري في احدى محاضراته ما معناه: اذا اراد المشرع العراقي تعديل قانون الاحوال الشخصية فلا بد لكل دين ولكل مذهب ولكل جماعة ولكل مرجع ان يضع قانونا للأحوال الشخصية، وفي حال كان هنالك عشرون او ثلاثون مرجعا دينيا في العراق، فانت لا تستطيع ان تفرض على من يقلد فتاوى المرجع (أ)، ان تطبق عليه فتاوى المرجع (ب).
ويقول ايضاً ما معناه: هل التفت من كانوا وراء هذا التعديل الى ما يفعلونه؟ أم ان هناك اغراضا اعلامية أو انتخابية وراء ذلك؟

ج - موقف نقابة المحامين واتحاد الحقوقيين

1 - عقدت نقابة المحامين العراقيين بتاريخ 14 /11 /2017 لقاءً موسعاً بحضور اعضاء من مجلس النواب، ممثلي الهيئات الدبلوماسية، منظمات حقوق الانسان والمجتمع المدني والمحامين. ومما نتج عن هذا اللقاء هو صدور بيان وضحت فيه النقابة موقفها من مقترح تعديل قانون الاحوال الشخصية، والذي لخصته في 14 فقرة كان ابرزها ان هذا التعديل يؤدي الى "تكريس الهوية الطائفية على حساب مبادئ المواطنة"، وكذلك "خسارة الحقوق المكتسبة للمرأة بموجب القانون النافذ للأحوال الشخصية"، وغيرها من الفقرات.

2 - خصص اتحاد الحقوقيين العراقيين ندوة لمناقشة مقترح تعديل قانون الاحوال الشخصية بتاريخ 16 /11 /2017، وقد نتج عنها بيان جاء فيه ان هذا التعديل "تقنين للطائفية ينتج عنه خسارة كبيرة في حقوق المرأة والطفل في العراق"، كما ان هذا التعديل يتقاطع مع "التزامات العراق الدولية ضمن اتفاقيتي الطفل والغاء كافة اشكال التمييز ضد المرأة مما يؤثر على موقعه الدولي".

مقترح تعديل قانون الاحوال الشخصية ومخالفته لنصوص الدستور والمواثيق والاتفاقيات الدولية

1 - دستور جمهورية العراق - المادة (14):

"العراقيون متساوون أمام القانون دون تمييز بسبب الجنس أو العرق أو القومية أو الأصل أو اللون أو الدين أو المذهب أو المعتقد أو الوضع الاقتصادي أو الاجتماعي".

2 - الاعلان العالمي لحقوق الانسان ينص في المادة 7: "الناس جميعا سواء أمام القانون، وهم يتساوون في حق التمتع بحماية القانون دونما تمييز، كما يتساوون في حق التمتع بالحماية من أي تمييز ينتهك هذا الإعلان ومن أي تحريض على مثل هذا التمييز".

3 - العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية ينص في المادة 16 على التالي: "لكل إنسان، في كل مكان، الحق بأن يعترف له بالشخصية القانونية".

وكذلك ينص في المادة 26: "الناس جميعا سواء أمام القانون ويتمتعون دون أي تمييز بحق متساو في التمتع بحمايته. وفي هذا الصدد يجب أن يحظر القانون أي تمييز وأن يكفل لجميع الأشخاص على السواء حماية فعالة من التمييز لأي سبب، كالعرق أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي سياسيا أو غير سياسي، أو الأصل القومي أو الاجتماعي، أو الثروة أو النسب، أو غير ذلك من الأسباب".

4 - اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة تنص في المادة 2: "تشجب الدول الأطراف جميع أشكال التمييز ضد المرأة، على أن تنتهج بكل الوسائل المناسبة ودون إبطاء سياسة تستهدف القضاء على التمييز ضد المرأة وتحقيقا لذلك تتعهد بالقيام بما يلي:

أ - إدماج مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة في دساتيرها الوطنية أو تشريعاتها المناسبة الأخرى اذا لم يكن هذا المبدأ قد أدمج فيها حتى الآن وكفالة التحقيق العملي لهذا المبدأ

من خلال التشريع وغيره من الوسائل المناسبة.

ب ـ اتخاذ المناسب من التدابير ـ تشريعية وغير تشريعية ـ بما في ذلك ما يناسب من جزاءات لحظ كل تمييز ضد المرأة".

وكذلك تنص في المادة 16/1 "تتخذ الدول الأطراف جميع التدابير المناسبة للقضاء على التمييز ضد المرأة في كافة الأمور المتعلقة بالزواج والعلاقات الاسرية، وبوجه خاص تضمن على أساس تساوي الرجل والمرأة:

أ ـ نفس الحق في عقد الزواج.

ب ـ نفس الحق في حرية اختيار الزوج، وفى عدم عقد الزواج إلا برضاها الحر الكامل.

ج ـ نفس الحقوق والمسؤوليات أثناء الزواج وعند فسخه.

د ـ نفس الحقوق والمسؤوليات بوصفهما أبوين، بغض النظر عن حالتهما الزوجية، في الأمور المتعلقة بأطفالهما وفى جميع الأحوال، يكون لمصلحة الأطفال الاعتبار الأول".

مراجع البحث

1 - دستور جمهورية العراق. متاح على الانترنيت على الرابط التالي:
http://cabinet.iq/PageViewer.aspx?id=2

2 - قانون الاحوال الشخصية النافذ رقم 188 لسنة 1959.

3 - محمد جواد مغنية، الفقه على المذاهب الخمسة، دار الشروق، 2007.

4- موقع السيد علي السيستاني، متاح على الانترنيت على الرابط التالي: http://www.sistani.org/

5- نصوص الاتفاقيات والمواثيق الدولية.

اشارات وملاحظات في الهجرة واللجوء من العراق الى فنلندا *

يوسف أبو الفوز
كاتب عراقي يقيم في فنلندا

مرت الهجرة من العراق إلى فنلندا، واوربا عموما، بفترات متعددة، لأسباب ودوافع مختلفة، أثرت على نوعية اللاجئين. وتاريخيا ارتبطت الهجرة من العراق بالاسباب السياسية، خصوصا في الفترة التي حكمها "حزب البعث العراقي" (1968 - 2003)، الذي تبنى الفكر البعثي، كنوع من النازية الجديدة، وخصوصا فترة نظام صدام حسين الديكتاتوري، حيث عانى واضطهد كثير من العراقيين بسبب سياسات حزب البعث ونظام صدام، من غياب الديمقراطية السياسية والحروب مع بلدان الجوار، وتدمير المجتمع العراقي، والحياة الاقتصادية والإضرار بنظم وعي الناس وخلق بيئة مؤاتية لنمو احزاب الاسلام السياسي، فكان معظم اللاجئين، في فترة نهاية سبعينات القرن الماضي، ناشطين في العمل السياسي والفكري، بما في ذلك أعداد ليست قليلة من الفنانين والكتاب والموظفين وطلاب الجامعات.

في سنوات هذه الهجرة كانت غالبية المهاجرين العراقيين من ذوي التعليم العالي ولديهم نشاط سياسي واجتماعي. وكانوا عادة يهاجرون إلى الدول المجاورة، سوريا، إيران، تركيا، الأردن وبعض دول الخليج، وعدد قليل منهم يذهبون إلى أوروبا، والسبب انه كان لديهم جميعا أمل في أن يتمكنوا من العودة بسهولة إلى العراق بعد تغيير في طبيعة السلطة الحاكمة، والذين وصلوا إلى أوروبا من العراقيين من هذه الفترات، واعدادهم كانت قليلة نسبيا، كان معظمهم ذا فكر مدني، وعدد قليل منهم ذو ارتباط ديني، سواء كانوا عربا او كردا.

إن فشل انتفاضة الشعب العراقي ضد حكم صدام حسين، عام 1991، جعل العراقيين على يقين من أن القوى الكبرى، وخاصة الولايات المتحدة، لا تزال بحاجة إلى نظام صدام حسين في المنطقة، وبدأت أكبر هجرة للعراقيين إلى أوروبا. وهنا يمكن تأشير ان الحصار الاقتصادي والحروب صارت ايضا اضافة للسياسة القمعية للنظام سببا للهجرات الى اوربا، وعندها فان الاسباب الاقتصادية، والبحث عن سقف آمن، دفعت ابناء الشعب العراقي من مختلف قطاعات الشعب للهجرة واللجوء، فكان بينهم نسبة

غير قليلة من الملتزمين دينيا، ومن بعد سقوط نظام صدام حسين في عام 2003، اثر الغزو الامريكي للعراق، أصبحت الهجرة لها اسباب جديدة، فمعظم اللاجئين عانوا من الصراع والعنف الطائفي، وتضرروا بشكل مباشر من نفوذ جماعات الاسلام السياسي، وميليشياتها الطائفية التي اصبحت تشدد سياسيا واجتماعيا ودينيا على حياة الناس وتخوض صراعاتها مع بعضها البعض لأجل مراكز النفوذ والثروة. وعاش المواطنون العراقيون، ولاسيما الشباب، بمعاناة مريرة متواصلة، فأرقام البطالة مرتفعة، وخط الفقر تجاوز 30٪، وفقا لمركز بيانات الدولة. واذ اندلعت في البلاد حركة الاحتجاج الجماهيري، وشهدت مدن العراق المختلفة المظاهرات التي تطالب بالعدالة الاجتماعية وبالخدمات الاساسية، فان قطاعات من الشباب كان لها رد ''الاحتجاج السلبي'' ألا وهو الهجرة وترك البلاد بحثا عن مكان آمن يعيد لها الاحساس بكرامتها المهدورة. وهذا من الاسباب التي دفعت اكثر من 22 الف عراقي الى القدوم فنلندا، حيث كثيرون، كما تحدثنا معهم مباشرة، اشاروا الى أنهم سمعوا عن سمعة فنلندا الجيدة كدولة حضارية تحترم حقوق الإنسان، وقال البعض لنا إن فنلندا في الاستبيانات الاستقصائية الدولية دائما ما تكون في طليعة بلدان العالم في مجالات التعليم والبيئة والأمن.

ان اختلاف اسباب الهجرة، اثر على نوعية موجاتها، فصار يمكن ان تجد مختلف الانتماءات العراقية والدينية، ومن مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية، بل وبين اللاجئين اصبح ممكنا وجود بعض الجماعات الموالية لنظام صدام حسين، والتي تضررت من التغيير الحاصل في نظام الحكم. ومن كل هذه الهجرات التي وصلت إلى أوروبا وفنلندا يمكن ان نسجل ان هناك أجيالا مختلفة:

- الجيل الأول: وهو الجيل الذي غادر ووصل الى اوربا وفنلندا في سنوات التسعينات من القرن الماضي، وكان اساسا راشدا، ويعني أن قناعاته الفكرية قد اكتملت أساسا.

- الجيل الثاني: ويضم من وصلوا اطفالا إلى فنلندا خلال كل مراحل الهجرات. وهؤلاء التحقوا بالمدارس الفنلندية، ونشأوا في المجتمع الفنلندي وتعايشوا معه. وبالتالي وجد الكثير من ابناء هذا الجيل نفسه ممزقا، بين ثقافة جديدة وثقافة عائلته، خاصة إذا كانت عائلة محافظة.

- الجيل الثالث: وهم من ولدوا في فنلندا، ودرسوا في رياض الأطفال الفنلندية ومدارسها الابتدائية والثانوية. عاشوا في فنلندا سنوات طفولتهم ومراهقتهم. وقد تأثروا بشدة بالحياة والثقافة الفنلندية، بحيث أن بعضهم لا يجيد لغته الأم، العربية أو الكردية، كتابة وقراءة، وان تحدث بها، فهي خليط من لغته الام وكلمات فنلندية لا حصر لها بحكم فقر قاموسه بلغته الأم واعتياده على استخدام اللغة الفنلندية. والقضية هنا ليست موضوعة لغة، بقدر ما هي طريقة التفكير، فهذا الجيل يكون عادة متمردا وأكثر ميلا إلى تحرير نفسه مما تحاول الأسرة فرضه عليه من عادات وتقاليد، يراها لا تتناسب وحياته الجديدة.

تبلغ الجالية العراقية في فنلندا، حسب احصاءات 2014 من العراقيين، عربا

واكرادا، 12953 شخصا، هذا من غير موجة الهجرة التي وصلت عامي 2015 - 2016 وتجاوز عددها 22 الف طالب لجوء، وحياة الجالية العراقية عموما، القدامى والجدد، مرتبطة بشكل كبير بالعوامل المؤثرة على حياة المجتمع العراقي الذين جاؤوا منه.

فنتيجة لسياسات "حزب البعث العراقي" ونظام صدام حسين الديكتاتوري من عام 1968 حتى عام 2003 (غياب الديمقراطية والحروب والحصار الاقتصادي والسياسة الشوفينية ضد الأكراد والمد الديني وما إلى ذلك)، ويضاف لها نتائج سنوات الاحتلال الأمريكي للعراق وسياسة الحكومات المتعاقبة، وفقا لنهج المحاصصة الطائفية والاثنية، فان المجتمع العراقي اصبح منقسما ليس بشكل أفقي (اغنياء، فقراء، طبقة وسطى) أو (متعلمين وغير متعلمين) او (عمال، فلاحين، مثقفين، تكنوقراط، الخ) لكنه صار مقسما بشكل عمودي (العرب، الكرد، التركمان، الآشوريون) أو (المسلمون والمسيحيون والمندائيون) أو (المسلمون الشيعة والمسلمون السنة).

وهذا يدفعنا للقول، ان واقع الجالية العراقية في فنلندا، إنها جالية مفككة، وغير متماسكة، ومجزأة في علاقاتها، فهي غير مقسمة أفقيا بل منقسمة عموديا، وحتى كل مجموعة عرقية أو دينية نجدها مقسمة هي الأخرى لأسباب عديدة.

ويمكن ملاحظة ذلك بكل بساطة في بعض الأنشطة الترفيهية (حفلات الغناء والمناسبات الوطنية)، حيث لا يوجد اتفاق على حفل مشترك. فعلى سبيل المثال في الاحتفال بعيد النوروز، السنة الكردية الجديدة، نجد أن هناك العديد من الاحتفالات في مدينة هلسنكي وحدها، يقيمها ابناء الجالية الكرد. وتخضع هذه الحفلات للولاءات الحزبية والمناطقية. هذا يحدث تقريبا مع كل مجموعة إثنية أو طائفية، حيث لا يوجد احتفال موحد بمناسبة وطنية معينة. بالنسبة للشيعة العرب من ابناء الجالية العراقية، لديهم فقط في هلسنكي 8 جوامع، وكل جامع تابع لمجموعة سياسية معينة، بل وبعضها ولاؤه يكون لدول جوار العراق لأسباب طائفية. ومن هنا نفهم أسباب غياب إطار موحد يجمع بين الجالية العراقية في فنلندا.

هذا الانقسام، الموجود في الجالية العراقية، لأسباب سياسية وطائفية وعرقية بين عموم العراقيين، من القدامى والجدد الذين يعيشون في فنلندا، يضاف له ايضا التوتر الناشئ بين اللاجئين القدامى والجدد، الذين وصلوا مع الموجة الاخيرة من اللاجئين الى فنلندا في 2015 وما بعدها، وهذا التوتر، لا علاقة له بالمنافسة على الوظائف كما يعتقد البعض، بل له اسباب متعددة؛ فطالبو اللجوء الجدد، المقبولون والمرفوضون منهم، هم في غالبيتهم من الشباب، وهناك عدد قليل من الاسر والنساء بينهم، وطريقة تفكيرهم مختلفة تماما، وغالبية هؤلاء الشباب حين وصلوا فنلندا، عاشوا حالة من "الصدمة الثقافية"، فنتيجة للظروف الاجتماعية والسياسية في العراق، وصلوا يحملون أفكارا غير صحيحة عن طبيعة المجتمع الأوروبي، كمثال على ذلك الافتقار لفهم حقوق وحرية المرأة الفنلندية في المجتمع، واستقلال شخصيتها ومساواتها تماما مع الرجل، ما سبب الكثير

من الأخطاء والإساءات، بما في ذلك ما دخل في باب التحرش والاعتداء الجنسي، بسبب من اختلاف طبيعة الحياة والقوانين، التي الى حد ما تعايش معها وعرفها القدماء من العراقيين، وكانوا قادرين على التعامل بطريقة أو بأخرى مع الحياة الأوروبية والفنلندية.

ويمكن القول ان احد الاسباب للتوتر والانقسام هو انعكاس الصراعات الطائفية في العراق، والذي انتقل مع المهاجرين إلى فنلندا. ان الموجة الأخيرة من الهجرة، غيرت التوازن ونسب الأرقام، فعدد المسلمين السنة صارت الى حد ما اكثر، وايضا ان التوتر موجود حتى بين ابناء المسلمين الشيعة من القدامى والجدد، فان اغلب الشيعة القدامى لهم صلات مع أحزاب الإسلام السياسي داخل العراق، وحتى المساجد في فنلندا يتم حسابها على الأحزاب السياسية الشيعية، بينما الغالبية العظمى من الشباب الشيعي من اللاجئين الجدد، هم مستقلون وغير راضين عن الأحزاب الإسلامية السياسية ويعتبرون أنفسهم ضحايا لسياساتها وللمليشيات المرتبطة بها. كما ان من بين طالبي اللجوء الجدد عدد ليس قليلا ممن يعتبرون انفسهم ممن كانوا بعلاقة طيبة مع نظام صدام حسين، وانهم صاروا ضحايا للعهد الجديد من الحكم. وبين العراقيين القدامى الكثير ممن يناصرون نظام الحكم الحالي، الذي اعقب عهد صدام حسين، وصار مألوفاً ان ترى ان البعض من طالبي اللجوء الجدد، بمناسبة وغير مناسبة، يلوح ويمجد بصور صدام حسين في صفحات التواصل الاجتماعي، مما يعتبر استفزازا مباشرا لقطاع غير قليل من القدامى من ابناء الجالية العراقية في فنلندا، الذين في الغالب هم وعوائلهم ضحايا مباشرون لنظام صدام حسين. الى جانب هذا كله يمكن الاشارة الى الخروقات العديدة التي قام بها البعض من اللاجئين الجدد، والتي كادت تصبح اشبه بالظاهرة، مثل جرائم التحرش الجنسي والاغتصاب والسرقة والتهرب من دفع تذاكر النقل في المواصلات، والتي للأسف عممها الاعلام الموالي للجماعات العنصرية والحكومة اليمينية، على كل اللاجئين، ما افقدت الثقة بين المهاجرين العراقيين القدامى وطالبي اللجوء الجدد، وصارت حالة من عدم الثقة.

وظهر بين القدامى البعض ممن يعتقد ان طالبي اللجوء الجدد كانوا سببا لرفع نشاط المنظمات العنصرية في فنلندا، التي شمل الجميع تأثير نشاطها العنصري؛ حيث ابتكرت المنظمات العنصرية اشكالا جديدة في عملها مثل تشكيل "جنود اودن" التي هي اشبه بميليشيا غير مسلحة، تعادي الاجانب في فنلندا وتدعي حماية الفنلنديين من تجاوزاتهم. وايضا يعتقد بعض المهاجرين القدامى، ان الموجة الجديدة من طالبي اللجوء كانت سببا لان تسلط وسائل الاعلام المزيد من الضوء على وقائع في حياة المهاجرين واللاجئين في فنلندا، وهذا بالطبع كشف الكثير من سلبياتهم وأوجه القصور في حياتهم، مثل معدلات البطالة العالية، ونسبة استلام المعونات من الضمان الاجتماعي، والعمل في السوق السوداء، والانعزال وعدم الاندماج في المجتمع وغيرها. وهنا يمكن القول ان البعض من الصحف الفنلندية، خاصة المؤيدة لسياسة الحكومة اليمينية، والمنظمات العنصرية،

ودون ان تتعمد ذلك، ساهمت في صب الزيت على نار التوتر بين القدامى والجدد، من خلال خلق رد فعل سلبي عند قطاع ليس بالقليل من ابناء الشعب الفنلندي، ونشر المخاوف والتوجس من عموم المهاجرين، في رسم صورة سلبية عنهم، تستند في ذلك الى الخروقات المتكررة من بعض الشباب الجدد، ما جعل البعض من اللاجئين القدامى يلقون بكل اللوم على طالبي اللجوء الجدد ويعتبرونهم خربوا لهم حياتهم الهادئة، ويتجنبون اللقاء معهم، وساهمت ممارسة البعض من اللاجئين القدامى في اعمال السمسرة بالاسود (تأجير شقق، الحاجة لعنوان بريدي، العمل ساعات بالأسود في المطاعم والتنظيف، وغيرها) في تعميق الخلافات، ما جعل العديد من اللاجئين الجدد يرمون باللوم على القدامى كونهم لم يقدموا يد المساعدة والتضامن معهم، بقدر ما قاموا باستغلال اوضاعهم الصعبة وحاجتهم للمساعدة.

ومن الاخطاء الاساسية، التي ارتكبت بحق اللاجئين الجدد، من قبل قطاعات من المجتمع الفنلندي وبعض وسائل الاعلام، ومن قبل القدامى من اللاجئين العراقيين، هو اعتبار اللاجئين الجدد كتلة واحدة والتعامل معهم على هذا الاساس، ناسين او متناسين، انهم شباب قادمون من بيئات مختلفة، والعوامل السلبية والايجابية التي اثرت عليهم مختلفة، ومستويات التعليم ونمط الحياة مختلف، وان كانوا قادمين من بلد واحد لعبت فيه الصراعات الطائفية، دورا في نشر الفساد في الدولة والمجتمع، ولغة العنف والسلاح وغياب دور الدولة والقانون، ما رسم ملامح مشتركة في ما بينهم في جوانب معينة.

وتعززت هذه الحالة من الانقسام، بين القدامى والجدد، بعدم وجود جمعيات او منظمات اجتماعية وثقافية عراقية تأخذ على عاتقها ردم الهوة بين الجانبين، اضافة الى غياب دور السفارة العراقية، بين ابناء الجالية القدامى، واغلب نشاطات السفارة شكلية وموسمية، ولا تؤسس لاشياء مستقبلية ثابتة. وبالرغم من وجود نشاطات فردية من بعض الكتاب والناشطين الاجتماعيين الذين حاولوا سد الفجوة، ولكنها ستظل فجوة كبيرة.

واذا تحدثنا عن الجالية العراقية، وموقفها من الارهاب والنشاط التكفيري، المرتبط بجماعات اسلامية، الذي ظهر في بعض البلدان الاوربية ومنها فنلندا، وبالتالي تأثير ذلك على الواقع الامني في فنلندا، فهذا الامر يشغل المجتمع الفنلندي كثيرا في موقفه من الجاليات المهاجرة، خصوصا من الشرق الاوسط. ففي السنوات الاخيرة، بينت الجهات الرسمية الفنلندية ان حوالي سبعين فنلنديا من اصول اجنبية، غالبيتهم من الصومال ودول شمال افريقيا، التحقوا مع عصابات داعش الارهابية، في العراق وسوريا، فأننا نجد ان النسبة الغالبة من العراقيين في فنلندا، كانت من الكرد، ولكن هذه الصورة تغيرت مع موجات اللاجئين الاخيرة، في الفترة 2015 - 2016، حيث اصبحت نسبة العرب هي الغالبة. وايضا اذا كان المسلمون الشيعة من العراق هم الاكثر نسبة بين العرب المسلمين من القدامى، فأن موجة الهجرة الأخيرة زادت من عدد العرب المسلمين السنة، لأن القوانين الفنلندية تعطي اللجوء لأولئك

القادمين من المناطق السنية (محافظات الموصل والأنبار وكركوك).
يعرف المسلمون الشيعة عادة كونهم طائفة معتدلة ولا يحملون او يتعاطفون مع أفكار الجماعات السلفية أو التكفيرية ولا يؤمنون بتفجير أنفسهم والعمليات الانتحارية، ومن ثم فهي طائفة بعيدة عن أن تكون بشكل ما تتعاطف او على علاقة مع الجماعات الإرهابية التي اصبحت خطرا امنيا لفنلندا في السنوات الاخيرة. وأما الكرد القدامى من العراقيين، والجدد أيضا، فهم من المسلمين السنة، والأغلبية منهم معتدلو الفكر الديني، ولا يحملون أفكارا سلفية متطرفة، ولكن تبين ان هناك افرادا محدودين جدا ثبت انهم تعاطفوا، بهذا الشكل او ذاك مع الجماعات التكفيرية، خصوصا في النشاط ضد الوجود الامريكي في المنطقة، واتخذت السلطات الفنلندية الاجراءات القانونية بحقهم في حينه. واما المسلمون السنة من العرب العراقيين، فهم مجموعات مختلفة. ولكن الغالب منهم معتدلون لا يميلون إلى العنف، وان كان هناك جماعة منهم لأسباب طائفية أو سياسية تتعاطف مع الجماعات الإرهابية. كما يمكن ان نسجل حضورا لمجموعة من مؤيدي النظام السابق، والمتعاطفين مع حزب البعث العراقي ونظام صدام حسين، سواء كانوا من الشيعة أو السنة، وهؤلاء تلقائيا تجدهم، ورغما عنهم، وربما من دون معرفتهم، يكونون في موقع التعاطف مع الجماعات الإرهابية لأسباب سياسية اساسا، لكنهم ليسوا ذوي تأثير على الارض.
وهناك بين الجالية العراقية، أيضا مجموعات صغيرة من المسيحيين، المندائيين والآشوريين. وهؤلاء جميعا بعيدون جدا عن الاختلاط مع مجموعات أخرى او ان يكون لهم اي تهديد امني ما ضد المجتمع الفنلندي. وهناك حقيقة أن الجماعات المدنية ـ العلمانية (مؤيدي اليسار والليبراليين وغيرهم) قليلة جدا، وينشطون كأفراد، وليس هناك اي إطار تنظيمي يجمع بين أنشطتهم، فالغالبية من الشيعة والسنة لهم جوامعهم الخاصة، والكرد لديهم اطارات اجتماعية ثقافية متفرقة. وفي الواقع، في أعقاب الكوارث التي حصلت في الموصل والجرائم ضد المسيحيين والايزيديين، وتجاوزات بعض الميليشيات في عموم العراق ضد المسيحيين والمندائيين، حصل هناك توتر تحت السطح في الموقف والعلاقة بين جميع مكونات الجالية العراقية في فنلندا.
ومع كل ذلك، فأن عموم الجالية العراقية في فنلندا لا يمكن مقارنتها مع حال بعض الجاليات الاجنبية المقيمة في فنلندا، التي تدين بالوهابية أو السلفية، والذين يتبنون الفكر التكفيري وفلسفة الجهاد، وتؤمن بالعنف كحل. وعليه، فان الجهات الامنية الفنلندية، تنظر باطمئنان كبير الى الجالية العراقية، في فنلندا، كونها بشكل عام لا تشكل تهديدا أمنيا، ولكن لديها مشاكل جدية في قضايا الاندماج والولاء. فغالبية ابناء الجالية العراقية في فنلندا، منفصلون ومنعزلون عن الحياة الفنلندية وليس هناك تواصل ناجح. وهذا يقودنا الى سؤال عن كيفية تعامل ابناء الجالية العراقية مع مفهوم الاندماج في المجتمع الفنلندي؟
بدءا، لا بد من القول ان هناك العديد من العوامل التي تساعد أي شخص مهاجر أو

لاجئ على الاندماج في أي مجتمع جديد يعيش فيه. من هذه العوامل:

1. العوامل الذاتية: ذات الصلة بالشخص نفسه، وتعليمه، وحالته الفكرية، وقدرته على قبول الآخر، وتعصبه، ومعرفته بلغة البلد، ومحاولاته استيعاب قوانين وتقاليد واعراف البلد الجديد.

2. العوامل الموضوعية التي تتعلق بالبلد المضيف وقوانينه وأنظمته والحالة الاقتصادية وسياسة وبرامج الحكومة ومستوى خطاب الكراهية والنشاط العنصري، خطة البلد للاندماج وكفاءة هذه البرامج.

ان اهم ما يميز الجالية العراقية في فنلندا، هي العزلة الواضحة، وخاصة الجماعات الملتزمة دينيا، فهناك عدم اختلاط مع الشعب الفنلندي، المضيف، لعوامل ذاتية وموضوعية، ثقافية وسياسية. فعلى سبيل المثال، هناك العديد من الأنشطة التي هي جزء من ممارسة الشعائر الدينية ولكنها أنشطة تقتصر فقط على ممارسيها في الجوامع، وتغيب تقريبا عن كونها انشطة عامة، والتي يمكن ان يساهم فيها الفنلنديون او يحضروها. أيضا ان العديد من الأسر المحافظة لا تسمح لأبنائها، خاصة البنات، بالاختلاط مع الآخرين، وخاصة مع الأولاد، فعلى سبيل المثال، ممنوع الذهاب إلى حمام السباحة أو حفلات الرقص أو الحفلات الموسيقية، لأن هذا يتناقض مع الثقافة والتقاليد الدينية. وان التقاليد الذكورية تدفع بعض العوائل بان تسمح للأولاد أن يفعلوا أي شيء ولكن لا تسمح للفتاة بالقيام بنفس الممارسات.

وهناك واقع من كون الثقافة والعادات في العراق تعتبر مفهوم الشرف، له علاقة بجسد المرأة وعدم الكشف عن جسدها أمام الغرباء، وهناك من يعتبر الموسيقى من المحرمات وانها سوف تفسد أخلاقيات الشباب والفتيات بشكل خاص، وهذا كله ينعكس على الاختلاط وبالتالي اندماج العراقيين مع المجتمع الفنلندي، الذي هو مجتمع متطور وسقف الحرية والمساواة بين المرأة والرجل فيه عال جدا.

بعض العراقيين، الملتزمين دينيا، ممن عاشوا، في فنلندا لسنوات طويلة، ولكن يمكن ان تجد لديهم أسباب دينية تحظر عليهم أن يختلطوا مع شعب البلد المستضيف، الذي غالبيته من المسيحيين. فهم لا يشاركون في مهرجانات البلاد، مثل احتفالات اعياد الميلاد ولا يشاركون في أي أنشطة عامة لها طابع ديني مسيحي. وهؤلاء تجدهم، يحرمون أطفالهم من هذا أيضا خشية الانصهار في المجتمع الفنلندي وفقدان هويتهم الدينية. والامر لا يتعلق بالملتزمين دينيا فقط، فلو تحدثنا عن احتفالات يوم اليوم الأول من أيار/ مايو، وهو حدث غير ديني، وهو مناسبة شعبية في فنلندا، ويعد واحدا من اهم الاعياد في السنة، وهو يوم عطلة رسمية، لكننا نجد ان المشاركة فيه من العراقيين تكاد تقتصر فقط على بعض العراقيين، من العلمانيين واليساريين، والذين هم اساسا قليلون في فنلندا. لا نجد هناك أي مساهمة من مجموعة أخرى من الجالية العراقية، لأنهم يعتقدون أن الاول من أيار، عيد للجماعات اليسارية الفنلندية، وهم بالنسبة لهم مجموعات إلحادية ولا تعترف بالدين! وهذا يقودنا الى القول ان مساهمة الجالية

العراقية ضعيفة جدا حتى في الانتخابات العامة، البلدية والبرلمانية، رغم انها تهمهم كثيرا وتهم حياتهم ومستقبل عوائلهم، وهذا في جانب منه اخلال بواجبات المواطنة لمن حمل الجنسية الفنلندية من العراقيين القدامى.

ولا بد من الاشارة الى ان احد اسباب العزلة، وعدم اندماج ابناء الجالية العراقية في فنلندا، هو ارتفاع معدل البطالة بينهم، ووفقا للاحصاءات في مسح القوى العاملة في فنلندا، بلغ عدد العاطلين عن العمل في شهر آذار/ مارس 2017 هو 260 الف شخص، وبلغ معدل البطالة 9.3٪، في الربع الأول من السنة (كانون الثاني/ يناير – آذار/ مارس). ووفقا لبيانات الباحثة "أنيكا فورساندر"، من شؤون الهجرة لمدينة هلسنكي، (في 7.5.2010) توجد اختلافات كبيرة في حالة العمالة للمهاجرين من جنسيات مختلفة في فنلندا. وتظهر ان أعلى معدلات البطالة هي بين الصوماليين والعراقيين والأفغان وهي تبلغ أكثر من 50٪، بينما ان معدل البطالة بين السكان الأصليين الفنلنديين هو 8.7٪، والبطالة بين أكبر جالية أجنبية في فنلندا، وهي الجالية الروسية يبلغ حوالي 28٪.

ان للبطالة آثارا سلبية كثيرة على المهاجرين واللاجئين عموما ومنهم العراقيون، فإن الاعتماد على أموال المعونة الاجتماعية (الطريف ان اللاجئين يسمونها خطأ: الراتب) يجعل هؤلاء العاطلين بعيدين جدا عن المساهمة في الحياة العامة ومعرفة ظروف البلد وحياته وقوانينه. كما أن الاعتماد على المعونة المالية لفترة طويلة يعزز من روح اللامبالاة وعدم المسؤولية ويقلل من روح الانتماء للبلد المضيف الذي عاش فيه البعض لفترات طويلة.

وان احد الاسباب المهمة، المتعلقة بنجاح الاندماج بأي مجتمع جديد، هو المهارات اللغوية، وهنا نقصد تعلم اللغة الفنلندية. ان هناك حقيقة كون ان اللغة الفنلندية مختلفة جدا عن اللغة العربية، ومخارج الحروف ونطقها يجعل هناك صعوبات كبيرة امام المتعلمين العراقيين، وخاصة من الجيل الأول، بينما نجد أن تعلم اللغة الفنلندية يكون أسهل مع الجيل الثاني والثالث من ابناء الجالية العراقية. كما أن المهارات اللغوية تحتاج إلى التدريب والممارسة المتواصلة. وفيما يتعلق بمعدل البطالة، فإن العديد من العراقيين الذين يجلسون في منازلهم تجدهم لا يتابعون التلفزيون الفنلندي ويشاهدون برامجه، أو يتابعون الصحف الفنلندية، ومن دون اختلاطهم مع الفنلنديين يصعب عليهم الحصول على أصدقاء قريبين، ما يعزز حالة العزلة عن المجتمع الفنلندي وتنعدم امكانيات ممارسة اللغة وتعلمها. إن إجادة اللغة الفنلندية مهمة للمهاجر واللاجئ، وهي تساعد كثيرا على الاندماج، ولكن لا ينبغي أن تكون عقبة رئيسية أمام الاندماج أو العمل. هناك العديد من الأنشطة أو الأعمال التي لا تتطلب مهارات لغوية عالية. ان اللغة الفنلندية مطلوبة، لكن لاجل الاندماج، هناك اشياء اخرى اهم يجب تعلمها واتقانها. ان اجادة اللغة الفنلندية وحدها لم تمنع بعض الشباب من فنلندا، وهم من اصول اجنبية، من الالتحاق بعصابات "داعش" الارهابية، فالتقارير الرسمية والصحفية بينت ان هناك من يجيد اللغة الفنلندية، ولكنه انضم

لداعش وصار ينشر الدعايات لصالحها باللغة الفنلندية. نريد القول، إن اجادة اللغة الفنلندية وان كانت ضرورية ومهمة، لكنها ليس بالضرورة الوسيلة الوحيدة للاندماج.

بالاضافة الى ما هو مطلوب من ابناء الجالية العراقية، ذاتيا، لأجل انجاح عملية الاندماج، أن لا ننسى ان المؤسسات الفنلندية، تتحمل مسؤولية ليست قليلة بهذا الجانب، وعليها مراجعة برامجها وسياستها في ما يخص الاندماج، لتكون اكثر حيوية وفعالية. كما يتعين عليها ان تولي الجيل الثاني والثالث من عموم المهاجرين اهتمامها الكامل، اضافة الى مهامها مع الجيل الاول اساسا، وهذا يمكن أن يكون من خلال: توفير الوظائف وسن القوانين والتعليمات التي لا تركز كثيرا على إجادة اللغة، لأن هناك وظائف لا تتطلب لغة عالية. والعمل لإشراك الشباب في الأنشطة الثقافية والاجتماعية وتشجيعهم على الانخراط في منظمات ثقافية واجتماعية مختلطة، وايضا رصد عدم استغلال الجماعات الدينية المتطرفة لحرية التعبير ومجمل قوانين حقوق الانسان لنشر أفكارها، فضلا عن رصد الجماعات العنصرية المحلية لعدم نشر خطاب الكراهية. ويمكن القول ان من المهم العمل على نشر الثقافة المدنية بين أفراد الجيل الأول وبرامج خاصة للأسر للتعامل مع أطفالهم وخاصة بناتهم من أجل تعزيز الاندماج في المجتمع.

إن نجاح عملية الاندماج سيزيد من إحساس المهاجرين واللاجئين بالانتماء إلى الوطن الفنلندي، وبالتالي يساعدهم في دعم وطنهم الأم العراق بطرق اكثر فعالية. ان المهاجرين، وخصوصا، الذين يحملون الجنسية الفنلندية بحاجة إلى فهم أن الاندماج هو ليس الانصهار والتخلي عن الجذور، اذ يمكن أن يكون هناك اندماج فعال، بالجمع ما بين ما هو جيد ومناسب من الثقافتين، العراقية والفنلندية. فالمهاجر واللاجئ، بإمكانه أن يحافظ على هويته وعاداته الجيدة وأن يكون جزءا نشطا من المجتمع الفنلندي باتباع القوانين واحترام عادات وتقاليد البلد المضيف.

كانون الاول/ ديسمبر 2017

---

* النص من كتاب معد للنشر

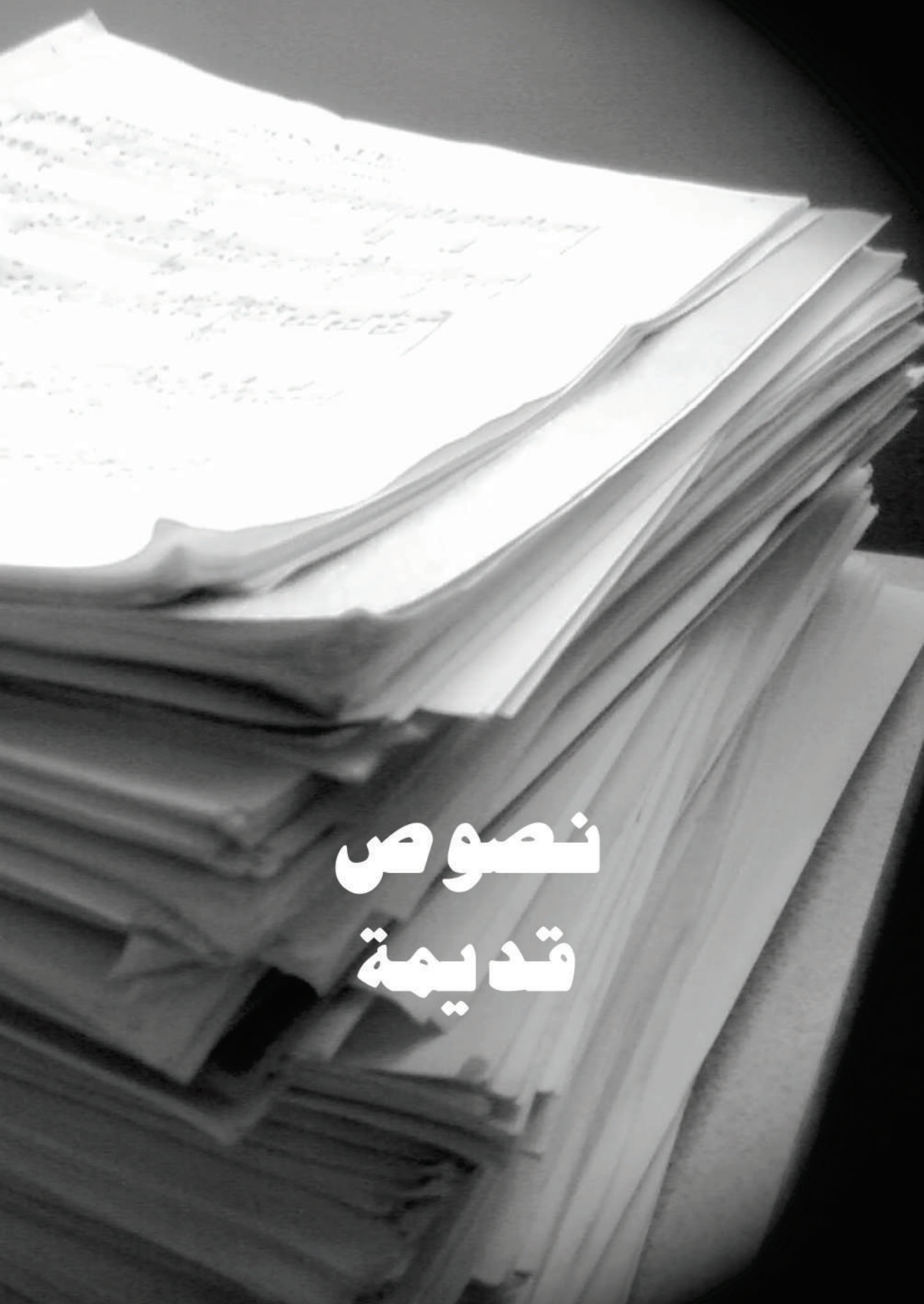

نصوص قديمة

25 عاماً على استشهاد سلام عادل *
قائد عراقي بارز وشيوعي فذ

ذاع النبأ في آذار قبل ربع قرن ..!
بعد خمسة عشر يوماً من اعتقاله استشهد سلام عادل السكرتير الأول للحزب الشيوعي العراقي في سراديب "قصر النهاية" بعد أن قاوم فاشيي انقلاب شباط بكل شموخ وبطولة.
خمسة عشر يوماً وست عشرة ليلة هي عمر امتحان الارادة القاسي وجلجلة الشاب النحيل الصلب ذي الأربعين عاماً.
علقوه من ساقيه..!
قطعوا من لحمه وذروه بالملح..!
كسروا عظامه..!
طوَحوا به في أقبية "قصر الرحاب" المظلمة مقيداً..!
تركوه عارياً في مياهها الباردة الآسنة..!
حرموا عليه الأكل والماء والنوم..!
لم يتركوا مكاناً في جسده إلا وخربوه.
وامتدت اياديهم الآثمة الى عينيه: ضغطوها بالاصابع ، وعصروها بآلات تعذيبهم حتى نزفت دماً هو رؤيا وبصير مناضل كبير، كان يتطلع بهما الى مستقبل أفضل لبلاده وشعبه وأمته.
فعلوا كل ذلك، لكن قلب سلام عادل ظلَ ينبض صامداً فعزموا – خائفين – على أن

يسكتوا هذا القلب الذي أرعبهم.
انها لنهاية مجيدة لصمود ثوري كبير، تخطى زمانه إلى عصره، وعصره إلى المجد، ولمجده نعود، إلى سيرته الملهمة.. إلى لقطات من حياة سلام عادل المفعمة بالعمل والابداع والتضحية والبطولة.

البدايات: الشعر والمسرح

ولد الرفيق حسين أحمد الرضي في النجف عام 1922 في اسرة كادحة. أبوه كان يشتغل في مستهل حياته شريكاً في حانوت صغير، ثم أصبح مراقب عمل في معمل للطحين، فلم تسعفه هذه المهنة من العسر. أما أمه فكانت امرأة طيبة متواضعة، وكان لذكائها وحسن تدبيرها أثرٌ كبير في حياة العائلة.
كان حسين الابن الأول للأسرة بعد خمس بنات، ومن بعد عاش مع خمسة أخوة لم يستطيعوا اتمام التعليم، فاشتغلوا عمالاً ثم في مهن متواضعة اخرى. أما حسين فقد أتمَ تعليمه الابتدائي والمتوسط في النجف، ثم انتقل الى بغداد للدراسة في دار المعلمين الابتدائية، مستغلاً العطل الدراسية للعمل بقصد اعانة عائلته، الأمر الذي ساعده على توثيق صلته بالناس والمامه بحياة الكادحين، والتعرف على ما يتطلبه الكدح من مثابرة وانضباط عرف بهما الشهيد في ما بعد، على امتداد حياته النضالية وحتى استشهاده.
تميَز في حياته الطلابية بذكائه ومرحه وشفافيته وسعة صداقاته، ما أكسبه ثقة واحترام اساتذته وأقرانه من الطلبة.
كان من رياضيي المعهد، وكان محباً لتنظيم المخيمات الكشفية والرحلات، وكانت له اهتمامات فنية وأدبية عرف بها منذ صغره، وخصوصاً المسرح والرسم، حتى انه لُقِب في دار المعلمين بـ ''حسين رسام''. بيد انه كان يحب الشعر أيضاً ويحفظ منه الكثير، ويتمتع بتلاوة ما يحفظه من نصوص قمم الشعر العربي.

''مختار'' في اللقاء الأول!

في دار المعلمين الابتدائية في بغداد سمع حسين، لأول مرة، بوجود حزب شيوعي في العراق فانجذب إليه بحكم منشأه الكادح، ونزوعه إلى العدالة وروحه الوطنية المتوقدة.
وذات مرة وزعت المنظمة الحزبية في المعهد بياناً للحزب فداهمت الشرطة المعهد واعتقلت عدداً من الطلبة المعروفين بالشيوعية، بينهم شاكر الطالقاني، الصديق الحميم لحسين الرضي، الذي كان نصيبه الطرد من المعهد، مع طلبة آخرين. أما حسين فقد فصل لما تبقى من السنة عقاباً على صداقته للحزب الذي جعل حسين يبحث عن الوسيلة التي تجعله مناضلاً بين صفوفه.
تحققت أمنية حسين كاملة حين تخرج عام 1943 من دار المعلمين وعين مشرفاً على النشاط المسرحي للمدارس الابتدائية في ''الديوانية''، ففي هذه المدينة الفراتية وجد حسين سبيله الى قاعدة الحزب الذي سيتحمل عبء قيادته في ما بعد.
وسرعان ما كشف الشيوعي الشاب عن مواهب حزبية وتنظيمية مميزة لفتت إليه انتباه قيادة الحزب، واكسبته الهيبة المقرونة بالمحبة لدى تلامذته ورفاقه والمحيطين به.

في صيف العام نفسه استدعي الرفيق حسين من قبل الحزب الى بغداد، من دون ان يعرف الغرض من استدعائه. وفي بغداد التقى بالرفيق زكي بسيم الذي قاده الى دار منزوية، ليقدمه الى رجل في حوالي الخامسة والاربعين من العمر جعل يطرح عليه أسئلة كثيرة ودقيقة عن نشاط الحزب في الديوانية، مبدياً أقصى الاهتمام بالاستفسار والتعرف على أدق مشاعر الناس وحاجاتهم، الأمر الذي قابله حسين الرضي في البدء بتحرج بدا في اجاباته الحذرة والتي كان، سببها جهله بشخصية محدثه. غير ان الرفيق زكي بسيم طلب منه أن يتخلى عن حرجه وان يستجيب بحرية لتساؤلات ذلك الرجل. عندها حدس حسين الرضي ان محدثه هو سكرتير الحزب نفسه، الرفيق فهد. ولدهشته تساءل عما اذا كان الرفيق فهد يملك من الوقت ما يخصصه للتحدث مع رفيق لما يكتسب بعد عضوية الحزب.

حدثه الرفيق فهد عن سمات ومهمات القائد، وقدرته على أن يعيش ويتكيف مع الناس والكادحين منهم خاصة، ليتعرف على مشكلاتهم، ومطالبهم ومشاعرهم عن قرب. وفي هذا اللقاء زف الرفيق فهد للرفيق حسين ان مدة ترشيحه قد انقضت، وانه قد أصبح عضواً في الحزب منذ شهر بإسم حزبي، اصطفاه له الرفيق زكي بسيم هو ''مختار'' وهو الاسم الذي ظل أثيراً في نفس حسين الرضي حتى اضطر عام 1953 الى استبداله.

حسين الرضي كادحاً..!

عاد الرفيق حسين بعد هذا اللقاء الى الديوانية بشحنة عالية من الحماس والتفاؤل وساهم بنشاط في توسيع قاعدة الحزب ونفوذه بين الجماهير الكادحة. وبسبب ما أبداه من مواهب قيادية ونشاط دؤوب أصبح عضواً في اللجنة الحزبية لمدينة الديوانية في العام ذاته وأثبت، في ما بعد، انه جدير بأول مسؤوليات القيادة تلك.

عام 1946 طغت على البلاد أول موجة ارهاب بعد الحرب العالمية الثانية شملت الرفيق حسين الذي كان مصيره الفصل في مقدمة معلمين كثيرين في الديوانية والعراق بعامة.

استدعاه مدير الشرطة ليقول له مهدداً وساخراً ''ان فصل الموظف يعني موته جوعاً'' فأجاب المعلم المناضل ''لن اجوع، ولدي ذراعان تعملان''!

وكان لحسين الرضي استدعاء ثانٍ ولكنه مختلف عن الأول، حين طلب منه السفر الى بغداد، وملاقاة قيادة الحزب. فقابل الرفيق فهد للمرة الثانية، وكلف منه شخصياً بقيادة وتنظيم احدى مناطق بغداد، والتفرغ للحزب تماماً.

تلقى الرفيق حسين هذه المهمة بحماس وتفهم، كعادته، غير انه اقترح ان يزاول عملاً بسيطاً يعتاش منه دون ان يشغله عن اداء عمله الحزبي، وارتأى ان تكون مبادرته امثولة لزملائه المفصولين الآخرين في عدم التعفف عن ممارسة أية مهنة بسيطة ولكنها شريفة، لاحباط محاولات الحكام الرجعيين اركاع المعلمين والموظفين الصغار من الشيوعيين والوطنيين التقدميين ازاء الجوع والعطالة، ومقاومة أعمال التعسف التي كانت تمارسها السلطة الرجعية لبعث القنوط والاستسلام في نفوس المثقفين الثوريين.

اختار الرفيق حسين مهنة بائع طعام شعبي

على قارعة الطريق، ولكنه ما لبث ان عثر على وظيفة في ثانوية الفيلية الأهلية.. وبعد أشهر ألغي قرار فصله واعيد إلى التعليم. فعين هذه المرة مشرفاً على النشاط الفني والمسرحي في دار المعلمين الريفية في الرستمية، حيث تمكن من بث الوعي الثوري والافكار التقدمية، وإلهام الطلبة بروح التفاؤل والمبادرة إلى مقاومة الحكم الرجعي، رغم قصر الفترة التي قضاها في الدار، والتي تزيد على سنة دراسية واحدة اعادت بعدها السلطات قرار فصله من التعليم.

في هذه المرة سلك حسين الرضي السبيل ذاته الذي سار فيه يوم أصبح عاطلاً قبل سنة أو تزيد، وذلك حين افتتح حانوتاً صغيراً للقرطاسية والخط في أحد الشوارع المكتظة (شارع الوثبة في ما بعد).

أول اختبار للبطولة

في عام 1947 اعتقل الرفيق فهد ورفاقه من قادة الحزب وأودعوا السجون. شملت حملة البطش والارهاب التي اعقبت وثبة الشعب عام 1948 الرفيق حسين الرضي الذي اعتقل في احدى المظاهرات. وأصدرت المحكمة قرارا بسجنه، لمدة ثلاث سنوات، تلقاه الرفيق حسين بعزيمة صلبة؛ ففي تلك الايام العصيبة كتب في رسالة تحتفظ بها – حتى الآن – سجلات الشرطة "مهما أوغلوا في الطغيان والارهاب فلن ينجيهم ذلك من هلاكهم المحتوم، يوم ينتفض الشعب ليلاحق الاستعمار وأذناب الاستعمار، وأذناب أذناب الاستعمار. اذ ذاك سيطهر الشعب أرضنا من أوضارهم، ويشيد مستقبله الزاهر السعيد".

داهمه مدير السجن واختطف الرسالة من يده وتلاها فامتلأ رعباً جعله يسوق الرفيق حسين الى المحاكمة مرة اخرى، فليجيب هذه المرة عن "تهمة" كتابة رسالة اعتبرت "منشوراً ثورياً"! وفي قاعة المحكمة وقف الرفيق حسين يفضح الاستعمار والحكام الرجعيين الذين تسلطوا على شعبنا، يستغلونه وينهبون خيراته، ويحكمون على خيرة ابنائه بالإذلال والتجويع والحرمان والسجن. وفي هذه المرافعة اشاد حسين الرضي ببطولات التاريخ المجيد الحافل، وبانتفاضات وهبات شعبنا والشعوب العربية الشقيقة، منددا بمساعي الاستعمار لزج الصهيونية في قلب الوطن العربي وتسخيرها كقاعدة للعدوان على حقوق العرب ومصالحهم.

قاطعه الحاكم (القاضي) قائلاً "عرفنا من هو الاستعمار ومن هم أذناب الاستعمار، لكن قل لنا ماذا تقصد بأذناب أذناب الاستعمار"، فاجابه "انهم اولئك المنفذون لارادة أذناب الاستعمار في استغلال كدح الشعب وترويع ابنائه وتعذيب المناضلين من رجاله واختطاف اللقمة من أفواه الجائعين.. انهم كل هؤلاء وأولئك الذين يلفقون التهم ضد أبناء الشعب المخلصين، يطاردونهم ويسجنونهم ويقفون حراساً على نظام يحكم بالعبودية على شعب بأسره"، قاطعه الحاكم مرة اخرى وقال غاضباً:

- هل تعنينا نحن؟

- أجاب الرفيق حسين:

- لستم انتم فقط، بل كل من على شاكلتكم ممن ارتضوا لأنفسهم أن يقفوا حراساً على هذا النظام.

حينئذ أصدر الحاكم حكمه الجائر الذي يقضي بسجن حسين الرضي سنتين اضافيتين،

وبوضعه تحت مراقبة الشرطة عامين آخرين:
وحين لم يطفئ هذا الحاكم حقد ورعب الحاكم الرجعي، أضاف اليه مئة جلدة. على قدمي حسين.
وسرعان ما بدأ تنفيذ الحكم الأخير، فصدم الجلادين موقف المناضل الشيوعي الشاب الذي اتخذ موقف الصلابة والحزم وهدوء الاعصاب، بل والسخرية من هذه الاساليب البشعة. وما كان هذا الموقف إلا ليستثير حقداً أكبر في نفوس الجلادين وفي مقدمتهم مدير السجن الذي أمر بإضافة خمسين جلدة أخرى، وصرخ بعد ايقاعها بوجه حسين الصامد.
- اهتف بحياة نوري السعيد.
اجابه حسين الرضي هاتفاً
- المجد والخلود لشهداء شعبنا ولقادة حزبنا: فهد وحازم وصارم والنصر الأكيد لشعبنا.
اندفع مدير السجن وهو يضطرم بالحقد، مسدداً الى حسين ركلاته الرعناء، ولكن حسين نهض على قدميه شامخاً، وشق طريقه بين صفين من الحراس المسلحين الذين انهالوا عليه بضربات هراواتهم وقبضات ايديهم.
ومما يروى عن تلك اللحظات ما يذكره أحد رفاقه الذي التقاه بعد ساعات محلوق الرأس، مشوه الوجه، فاستفسر منه عما جرى له حتى اصبح على هذه الصورة.
أجاب حسين بروحه الفكهة "ألا يبدو شعري أجمل من السابق. انها مودة السجن"

في سجن بغداد و"نقرة السلمان"

في سجن بغداد المركزي كلف الرفيق حسين بإدارة مكتبة السجناء السرية فاغتنم الفرصة لاغناء ثقافته النظرية. كان – كما يتحدث عنه رفاقه السجناء - يقضي الليالي الطوال بين ما كان يتوفر آنذاك من الكتب الماركسية اللينينية، ولا سيما كلاسيكياتها. ومع كل ما كان يجده نافعاً لاغناء معارفه العامة، اضافة الى الكتب الادبية التي كانت تلقى هوىً خاصاً في نفسه.
وعدا عن ذلك كان الرفيق حسين الرضي يولي اهتماماً كبيراً لمطالعات رفاقه، فيوزع عليهم الكتب وفق مستوياتهم وقابلياتهم، ويناقشهم في ما يقرأونه ويحاسب المقصرين حساباً رفاقيا تربوياً.
خلال سني سجنه كان للشهيد نشاط أدبي وفني حيث ساهم في نظم الاناشيد الثورية وتلحينها، واخراج بعض التمثيليات، وكان يرى في هذه النشاطات وسيلة لاشاعة روح التفاؤل والأمل في نفوس السجناء.
بعد أربعة أعوام ونصف قضاها في سجن بغداد ثم في سجن "نقرة السلمان" الصحراوي الشهير، حل يوم خروج الرفيق حسين من سجنه إلى منفاه، فودعه الرفاق بأغنيتهم الأثيرة:
يالرايح للحزب خذني ...

الأب والزوج والصديق

لم يطل حسين المكوث في المنفى، بل هرب بعد وصوله اليه بيومين والتحق بالحزب فوراً. عائداً اليه بهمة وحماسة، وقدرات قيادة أكثر مراساً، وجرأة فائقة. وقد أهلته كل هذه الصفات إلى عضوية اللجنة المركزية عام 1953.
في ذلك العام تزوج من رفيقته في النضال

ثمينة ناجي يوسف التي تقول في ذكرياتها:
"أربعة أعوام مضت على وعده لي بالزواج، أمضاها في السجن وخرج. غير ان حسين الرجل لم يشأ أن يكبلني بوعده القديم، وهو العليم بما انتهى اليه من مطاردات وما ينتظره من اضطهادات. فكتب لي يقول"(مرة اخرى قبل ان أتزوج، اود ان تكوني على علم تام بأن طريقنا ليس ممهداً ولا مزروعاً بالورود... ان في طريقنا تنبت الأشواك وتنهض العقبات - شأن كل المناضلين... على هذا الطريق تنتظرنا الحرمانات والعوز والمتاعب... وفي اعقابنا تنتظر كلاب الحراسة المتوحشة... تترصدنا، مثل مئات المناضلين، تطوح بنا إلى غياهب السجون مرة اخرى. وعند ذلك سأتركك وأطفالك دون مورد مالي، لأني كما تعرفين لا أملك شيئاً. أما أفراد اسرتي، فهم الآخرون لن يستطيعوا مد يد العون اليك.. فهم مثل ملايين العمال لا يملكون إلا سواعدهم وسمعتهم الطيبة بين الناس... واذا سقطت شهيداً مثل بقية شهداء حزبنا وشعبنا، فلن اترك لك غير الذكريات. انني لا أملك كما تعلمين غير لقب الشيوعي المدافع عن مصالح طبقة وحرية شعب... ولكني استطيع ان اعدك، وأنا واثق كل الثقة، من أن حياتنا ستكون مترعة بالسعادة، لا تكدرها وضاعات اعدائنا الطبقيين)".
وتقيّم الرفيقة حياتها الزوجية مع سلام عادل، تقول:
"الآن، بعد عشر سنوات من حياتنا معاً، أستطيع أن أقول ان سلام قد وهبني من السعادة أكثر مما وعد. فلقد منحني البيت الدافئ السعيد. والحياة المشرقة، وألهمني من روحه الثقة بالعزم والتفاؤل... ورغم انقضاء عشر سنين حافلة بالصعاب، والعوز والاضطهادات، لم تستطع ظلال السأم ولا الأكدار ان تطفئ نور السعادة التي كنا نحياها. لقد كان دوماً أباً حنوناً وزوجاً باراً وصديقاً وفياً ومرشداً لي في الخطوب... وكان لأطفالي أبر الآباء وأكثرهم حناناً (...)".

قائد وطني وأممي..!

بين عام 1953 – 1955 نهض الرفيق حسين بمسؤوليات حزبية مختلفة ومعقدة فقاد لجنة المنطقة الجنوبية في البصرة، حيث بذل جهداً مضنياً لاصدار جريدة الحزب المنطقية، وثابر على توطيد وتوسيع منظمات الحزب في الجنوب، لا سيما بين عمال الميناء والسكك والنفط والكهرباء، أي كبرى التجمعات العمالية يومذاك.
واثناء وجوده على رأس قيادة المنطقة الجنوبية نظم العمال بقيادة الحزب وبإشراف مباشر من الرفيق حسين اضراباً شاملاً هز البلاد كلها فواجهته السلطات الرجعية بالرصاص والتنكيل، وأعلنت على أثره الاحكام العرفية في المنطقة الجنوبية، وأصدرت أحكام سجن جائرة بحق المئات من العمال.
وفي مستهل عام 1954 كلف الرفيق حسين بقيادة منطقة الفرات الأوسط، فعمل بنفس الهمة التي عرف بها على تعميق نفوذ الحزب بين الجماهير الكادحة، وبادر إلى تأسيس المنظمات الحزبية والجمعيات الثورية في أوساط الفلاحين.
في العام نفسه سافر إلى بريطانيا سراً ليمثل حزبنا في اجتماع الاحزاب الشيوعية والعمالية لبلدان الكومنويلث البريطاني والبلدان المستعمرة والتابعة. وكان لنشاط

حسين الرضي في ذلك اللقاء الاممي دوره البارز في لفت انتباه الاحزاب الشقيقة والعالم الى قضايا شعبنا الوطنية ونضالات حزبنا.

وعبر الكثير من العراقيل والصعوبات عاد الى العراق وكلف إلى جانب مسؤولياته في اللجنة المركزية بقيادة لجنة بغداد المحلية. فاستطاع بحكم تجربته التي أصبحت أكثر غنىً ومواهبه التنظيمية القيادية ان يشيد كياناً ممركزاً لنشاط منظمة الحزب في العاصمة، وان يمكّن الحزب من تلافي الصعوبات والثغرات التي واجهت - في وقت سابق - هذه المنظمة.

وما كان لنشاط حسين الرضي التنظيمي ان يؤتي ثماره لولا اتقانه فنون العمل السري وبراعته في التنكر، حيث كان يجيد اختيار الازياء المناسبة لتحركه واداء مهامه، دون أن يستلفت إليه أنظار الخصم.

على رأس قيادة الحزب، ومن أجل وحدته

ساهم الرفيق حسين بنشاط ووعي بارزين في اجتماعات اللجنة المركزية وفي توجيه ورسم سياسة الحزب الوطنية والطبقية، ومن أبرز مآثره في هذه الفترة كفاحه المثابر ضد قيادة حميد عثمان الانعزالية التي سيطرت على الحزب آنذاك، وضد النزعة "اليسارية" المغامرة في سياسة هذه القيادة.

كان حسين الرضي على رأس النضال المبدئي الذي خاضته اللجنة المركزية ضد هذا النهج الخاطئ، وأسفر عن اقصاء حميد عثمان عن قيادة الحزب ووضع أمانة الحزب واللجنة المركزية على عاتق الرفيق حسين، الذي أصبح اسمه منذ ذلك الوقت "سلام عادل"، وغدا السكرتير الأول للجنة المركزية.

عن تلك الفترة يشهد الرفاق الذين عملوا مع سلام عادل انه برغم نضاله العنيد لتطهير الحزب من القيادة المنحرفة، كان حريصاً أشد الحرص على الالتزام بمبادئ المركزية الديمقراطية، ولم يعبر، خارج اللجنة المركزية، عن آرائه ومواقفه المعارضة للقيادة، إلا بعد ان حازت مواقف الاكثرية، وأصبحت هي النهج المقر للحزب.

لقد اقترن هذا الانجاز الكبير بانعطاف جذري في سياسة الحزب ونشاطه الفكري والعملي، كما اقترن باتساع نفوذ الحزب الجماهيري واعادة القواعد اللينينية إلى حياته الداخلية، وساعد كل ذلك، بل واقتضى انجاز مهمة من أعقد وأخطر المهمات التي كانت تجابه الحزب آنذاك، وهي تحقيق وحدة الحزب وتصفية الكتل المنشقة عنه والتي كان بعضها يستمد مبررات وجوده من أخطاء القيادة الانعزالية السابقة. وكان لسلام عادل الدور الأبرز في تحقيق الوحدة التنظيمية والفكرية للحزب على أسس ماركسية لينينية بعد نضال شاق طويل.

في أيلول 1956 انعقد الكونفرنس الثاني للحزب بمبادرة وقيادة الرفيق سلام عادل تحت شعار "من أجل سياسة وطنية ديمقراطية، وحزب شيوعي موحد يستلهم الروح التي شاعها في الحركة الشيوعية العالمية المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفييتي".

وأسفر الكونفرنس عن وثيقة تاريخية هامة أحدثت انعطافاً جديداً في نهج الحزب السياسي، واسهمت في توطيد وحدته الفكرية والتنظيمية والسياسية.

كان للرفيق سلام عادل ولمجهوده الشخصي المميز الدور المؤثر الأكبر في وضع هذه الوثيقة وصياغتها، بيد ان السكرتير الأول لم يشأ الانفراد بهذا الانجاز، بل أراده خلاصة للرأي الجماعي لكل كوادر الحزب.

يروي أحد رفاقه في تلك الحقبة، ان "سلام" أعد قائمة طويلة بأسماء من ينبغي أخذ رأيهم بشأن الوثيقة ضمن مسؤولي اللجان المحلية في محافظات العراق كافة، وكل كوادر الحزب القيادية في بغداد، وبعض المثقفين من أصدقاء وانصار الحزب، بل وحتى الرفاق الذين كانوا في السجون حينذاك والمغتربين في سوريا ولبنان.

يروي أحد الرفاق عن هذا الانعطاف الهام في حياة الحزب قائلاً: "انعقد الكونفرنس الحزبي وفق تدابير محكمة للصيانة والسرية أشرف الرفيق سلام عادل عليها بنفسه، وقاد ذلك الاجتماع المرهق ثلاثة أيام بلياليها، وبعد انتهاء اعمال الكونفرنس واصل سلام عادل الجهد المضني لاعداد الصيغة النهائية للتقرير الذي اقره الكونفرنس في ضوء مقترحات وتعديلات واضافات الرفاق الذين ساهموا في اغنائه، حتى ان الرفيق سلام بدا كشبح ذاو من شدة الاعياء".

لقد أصبحت الوثيقة التي أقرها الكونفرنس الثاني مرشداً لنشاط الحزب وعاملا من عوامل انتصاراته اللاحقة. وأسهمت اسهاماً عظيماً في توطيد وتعزيز مكانته ودوره في صفوف الشعب والحركة الوطنية والقوات المسلحة. وبذلك تهيأت الظروف الملائمة لشن نضالات جماهيرية حازمة ضد حلف بغداد والمعاهدات الاستعمارية، ومن أجل الاطاحة بالحكم الرجعي ومساندة مصر ضد العدوان الثلاثي.

موعد مع الثورة

الثورة تطرق باب العراق، فماذا على الحزب الشيوعي العراقي أن يفعل لإنضاج الظروف المواتية لها وانجاحها..؟

هذا السؤال كان الشغل الأول لسلام عادل الذي راح يرسم خطة لانتصار الثورة ومن أجل تطبيق هذه الخطة. غامر، يوم كانت هذه المغامرة تحتاج إلى قائد ثوري من طراز خاص، بالاتصال بالضباط الوطنيين، وعمل من خلال الرفاق الذين كلفوا باداء هذه المهمة في ما بعد، على توحيد جهودهم وبث الثقة والعزيمة في أوساطهم.

في خريف 1956 كتب سلام عادل رسالة إلى عدد من كوادر الحزب في السجون تنبئهم، من طرف خفي، بأن يوم تحررهم غير بعيد، وتخبرهم بالمنجزات التي حققها حزبهم. عن ذلك يقول أحد رفاق سلام عادل:

"كان يدرك بسبب تجربته في السجون أي بشارة تعنيها مثل هذه الرسالة، وأي دور لها في تصعيد روح المقاومة والبسالة لدى السجناء، وبخاصة اولئك الذين طالت بهم أعوام السجن".

اعترضت طريق الثورة عقبات أدت الى تأجيل ميعادها ثلاث مرات، بيد ان الحزب بقيادة سلام عادل واصل جهوده لتوحيد القوى الوطنية، حتى انبثقت "جبهة الاتحاد الوطني" عام 1957 التي ضمت حزبنا والأحزاب الوطنية الرئيسية، والتي كان يعززها تحالف الحزب الثنائي مع الحزب الديمقراطي الكردستاني الذي كان بمثابة الجسر الذي ربط جبهة الاتحاد الوطني بالحركة القومية الكردية.

كان لسلام عادل الجهد الأبرز في تحقيق

تحالف الاحزاب الوطنية في إطار جبهة الاتحاد الوطني، وكان لسلامة نهج التحالفات الذي اختطه أبلغ الأثر في توحيد تنظيمات الضباط الوطنيين في الجيش، أي في توفير العوامل الذاتية لانتصار ثورة 14 تموز 1958.

يؤكد أحد الرفاق الذين شهدوا تلك الفترة من موقع المسؤولية في الحزب، ويقول:

"قبيل الحدث اتصل رشيد مطلق مبعوث عبد الكريم قاسم بقيادة الحزب هاتفياً وأسر بالاشارة المتفق عليها مع الحزب وهي "العمالة حاضرون". وعلى الفور أصدر الحزب يوم 12 تموز توجيها هاما الى كافة منظماته الحزبية"، المح فيه الى احتمالات حدوث تغيير كبير في وطننا، وأكد على "ضرورة ضمان وحدة النشاط السياسي لمنظماته في الظروف الطارئة أو المعقدة"، فأكد على شعاراتنا الاساسية بتحقيق الاستقلال السياسي، واطلاق الحريات الديمقراطية، وحماية الاقتصاد الوطني مع حل المشاكل المعيشية للجماهير، واقامة حكومة وطنية تنتهج سياسة عربية ودولية تخدم السلم والنضال ضد الاستعمار والصهيونية وتعمل من أجل "اتحاد فيدرالي مع الجمهورية العربية المتحدة". وجاء في ختام التوجيه: "ونرى من المناسب التأكيد على: -1 ضرورة تجنب ابراز شعارات مبهمة أو متطرفة أو تلك التي تمجد هذا الزعيم أو ذاك من قادة الحركة الوطنية أو العربية على حساب طمس شعاراتنا الاساسية. -2 ضرورة ابداء اليقظة السياسية العالية تجاه مختلف المناورات والمؤامرات وتجاه نشاط عملاء الاستعمار، والعمل بحزم وبأمانة تامة لسياسة الحزب، واعتبار واجبنا الأساس في كل الظروف هو تعبئة أوسع الجماهير الشعبية ولفها حول الشعارات الصائبة في اللحظة المعنية، وحول الشعارات الكبرى لحركتنا الوطنية الديمقراطية".

أول خطوة في العلن

صبيحة يوم الثورة كان عدد من أعضاء اللجنة المركزية في أحد البيوت الحزبية، قد أعدوا مسودة برقية الى حكومة الجمهورية، تتضمن تأييد حزبنا التام للثورة. وهنا خرج الرفيق سلام عادل عما عرف عنه في العمل السري، مقترحاً أن يذهب بنفسه الى دائرة البريد لتسليم البرقية تدشيناً لعلنية الحزب.

في ما بعد روى الرفيق سلام كيف ان الموظف تسلم منه الورقة وشرع يعد كلماتها. لكن اصبعه توقفت فجأة، ثم رفع يده الى نظارته يثبتها على عينيه، وانتقل ببصره نحو التوقيع، ثم رفع رأسه لينظر الى رفيقنا.. ثم أخذ يقرأ البرقية ثانية، وعاد ينظر اليه ثم تلعثم:

- يعني انت... العفو.. اعني حضرتكم ...هو...؟ وأشار بأصبعه نحو التوقيع. فاجابه رفيقنا: نعم... وأرجو ابراقها بسرعة. فنهض الموظف من مكانه مسرعاً وهو ينظر إليه، وخف الى زملائه الملتهين في أحد أركان دائرته، فأخذوا يتدافعون وهم يقرأون نص البرقية وينظرون الى رفيقنا متهامسين، وفجأة هتف أحدهم يعيش الحزب الشيوعي البطل.. فردد البقية هتافه.

لم تصرف نشوة النصر ذهن الرفيق سلام عن التفكير بمهام صيانة وتطوير الثورة. وكانت إحدى مآثره الكبرى في تلك الفترة مبادرته إلى جمع الكادر الحزبي كله، سواء

الذين تحرروا من السجون أو المنافي أم الذين عادوا من ديار الغربة خارج الوطن، وقيادة نشاطهم والاستفادة القصوى من طاقاتهم وامكانياتهم.

وفي أيلول عام 1958 قاد الرفيق سلام عادل بفرحة غامرة أكبر اجتماع موسع للجنة المركزية في تأريخ حزبنا. كانت قدرات حزبنا ومسؤولياتهم التأريخية قد تعاظمت. فالاشهر العاصفة التي أعقبت الاطاحة بالنظام الملكي الرجعي ضاعفت الحاجة الى التشخيص الصائب للمهام والحلول والشعارات، وصيانة وتطوير الموقف الطبقي المستقل للحزب ازاء ضغوط وتأثيرات القوى الطبقية الاخرى، ولا سيما الحليفة. وكان لا بد للاوضاع المعقدة ان تجد صدىً لها في الصراع الفكري الذي لا تقدم للحزب بغيابه. فكان الرفيق سلام الحريص على طاقات وكوادر الحزب صارماً في الأمانة لمبادئ المركزية الديمقراطية، الاطار اللينيني الوحيد لإدارة الصراع الفكري في الحزب الشيوعي.

لقد تميز الرفيق سلام بسعة افقه الفكري، بشمولية نظراته، بتمسكه الدقيق بمبادئ الضبط والنظام في الحزب بروحه التربوية العالية إزاء رفاقه، وكفاحه العنيد ضد كل مظاهر الانقسام والتكتل المخلة بوحدة الحزب. وإلى جانب كفاحه المثابر ضد مظاهر القومية الضيقة، كان مناضلاً عنيدا من أجل الأخوة العربية الكردية، ومن أجل الحقوق القومية للشعب الكردي.

كان أممياً مثابراً وصديقاً أميناً للاتحاد السوفيتي. وقد برز نشاطه الاممي مذ تولى قيادة الحزب. ففي عام 1957 قاد وفدنا الى احتفالات الذكرى الاربعين لثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ثم في اجتماعات الاحزاب الشيوعية والعمالية في خريف العام نفسه.

وفي أواخر 1958 قاد وفدنا الى المؤتمر الـ 21 للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ومن بعده المؤتمر الـ 22. وفي كل المنابر الاممية التي حضرها دعا باسم حزبنا الى التمسك بمبادئ الماركسية اللينينية وبوحدة الحركة الشيوعية العالمية.

ضد الدكتاتورية.. من أجل كردستان

عام 1961 أوفِد الرفيق سلام عادل إلى الخارج للدراسة الحزبية. وقد اثبتت الحياة ان ساحة الوطن كانت أحوج الى حضوره كقائد تميز بحسه الطبقي ازاء مسألة السلطة وضرورة ادامة وتعزيز قوى الحزب الضاربة في الجيش ازاء تذبذب السلطة البرجوازية وتفاقم المؤامرات على مسيرة الثورة.

وفي أواسط 1962 عاد الى الوطن سراً وزاول مهامه كسكرتير أول للحزب فور وصوله. وفي النضال من اجل تعميق وتثبيت خط الحزب الاممي والجماهيري والوطني. خاض، مع رفاقه الآخرين، نضالاً مبدئياً باسلاً ومفعماً بشعور المسؤولية تجاه مصلحة الحزب والحركة الوطنية والاممية البروليتارية، ضد الاتجاه الانتهازي اليميني، والقومي الضيق، الذي اراد حرف سياسة الحزب الأممية الثابتة وتوجيهه باتجاه برجوازي استسلامي، وفي الاجتماع الموسع للجنة المركزية للحزب في أيلول 1962، الذي قاده الرفيق سلام عادل، تمت تصفية آثار هذا الاتجاه.

ورافق واعقب هذا الانتصار انعطاف جماهيري واسع نحو الحزب. وفي طليعة الجماهير الشعبية خاض الحزب بقيادة سلام عادل نضالاً دائباً ضد السياسة الدكتاتورية الفردية، وضد الحرب على الشعب الكردي المطالب بحقه المشروع في الحكم الذاتي والحل السلمي الديمقراطي لقضية كردستان، محذراً في الوقت ذاته القوى الوطنية والسلطة في آن من خطر التآمر الذي لاحت بوادره بوضوح في تلك الأيام.

خاتمة بطولية

وهو يتهيأ للعودة إلى الوطن ناشده رفاقه ان يحتاط للمخاطر، أن يحرص على سلامته ولا يفرط بحياته، قال:

''اعرف ان حياتي يحتاجها الحزب، وسأعمل من أجل سلامتي في الحدود الضرورية، التي لا تعرقل عملي. ولكنني شأن أي جندي ذهب إلى ميدان القتال لا استطيع ان أقطع لكم عهداً بسلامتي، ولكني استطيع ان أؤكد لكم بأنني لن ابخل بجهد من أجل مصلحة حزبي وسعادة شعبي''.

ليل التاسع عشر من شباط 1963 امتدت يد الفاشية إلى سلام عادل، فانتزعته من موقعه الأثير - كما لم يكن من قبل -، ومن بين حرص وحذر ما بقي من قادة وكوادر ورفاق الحزب. فسجل تاريخ الوطني أياماً طويلة لـ ''جلجلة'' المناضل الباسل، والقائد الفذ:

- ماذا تأمل...؟

قال له الجلاد وأضاف:

- ''ها انت وصحبك أسرى بين أيدينا، ونحن عازمون على أن نبيد آخر شيوعي يعيش على أرض هذه البلاد خير لك ان تستسلم. صن حياتك، وهات ما عندك من أسرار الحزب التي تعرفها أكثر من غيرك لأنك سكرتيره الأول''.

أجاب سلام عادل بهدوء:

- أجل... كنت سكرتيراً أول لحزب، وما أزال.. ولكن لتعلم انك تسعى نحو المحال. ان ابادة الشيوعيين أمر مستحيل. ولست أملك رداً على تهديداتك أفضل من الكلمات التي هتف بها قائد حزبنا فهد:

''الشيوعية أقوى من الموت وأعلى من أعواد المشانق''.

خمسة عشر يوماً قاسية وست عشرة ليلة من التعذيب بكل فنونه وبشاعته، وقلب سلام عادل ينبض.

تعبت ايدي الجلادين بعد أن نزعوا البصر منه، ولكنه صمد متمسكاً ببصيرته.

طرحوا الجسد النحيف المهشم أرضاً ثم سحقوه بمدحلة حديدية ضخمة ففاضت روح ذلك الانسان الذي بقي فذاً يلهم العزيمة والصمود لرفاقه ويهب بسخاء المثل العراقي للبطل الذي يلهم الناس جميعاً.

---

* **نشر في (الثقافة الجديدة)- العدد 195/ آذار 1988، ص 11 – 24.**

نصوص مترجمة

حول ضرورة يوتوبيا ممكنة التحقيق كجزء من الماركسية *

بقلم: توماس ميتشر
ترجمة: رشيد غويلب

ان الماركسية ليست فكر الواقع المحدد، وانما ايضا فكر الممكن كجزء من هذا الواقع. والعالم الذي تصوغه فكريا يحوي، تاريخيا، المستقبل باعتباره إمكانية تاريخية. ومن هنا، فان الماركسية، ولأنها تتعامل مع عالم تاريخي باكمله، ليست فكر الحاضر والماضي فقط، بل ايضا فكر ما هو مستقبلي: فكر استقرائي بمعنى فكر يوتيبيا ممكنة التحقيق. وجوهر هذا التصنيف هو مفهوم ثقافة جديدة. إن السؤال بشأن ملامح ماركسية بقدرات مستقبلية، يستكمل بواسطة السؤال عن ملامح هذه الثقافة الجديدة. نعم، هذا السؤال يعود إلى الشروط التي يجب وضعها لأي ماركسية مستقبلية. والأمر لا يتعلق بالتراجع الى اشتراكية طوباوية، بل في استدعاء لحظة يوتيبيا في الفكر الماركسي نفسه. هذه الأطروحة، كما يبدو تقف في تناقض مع آراء أساسية في الماركسية التقليدية، ولذلك تتطلب شرحا أكثر تفصيلا.

مرحلة ركود اجتماعي

كما هو معروف، نُظر منذ البداية، لفكر ماركس – انجلس على انه فكر مضاد لليوتيبيا، وهناك اقتباس معروف لانجلس "تطوير الاشتراكية من يوتيبيا الى علم" (هكذا كان عنوان عمل نشر في زيورخ عام 1883)، وبالفعل، وبصرف النظر عن اشارات قليلة، ولكنها غنية بمحتواها، لا يحتوي النص على تفسير لما سيبدو عليه المجتمع ما بعد الرأسمالي (أي الاشتراكية الشيوعية). وحتى في الفكر القائم على ماركس وانجلس، والمعروف اليوم في جميع انحاء العالم بـ"الماركسية"، هناك القليل الذي حاد عن هذا التوجه الأساسي. والاستثناء الفلسفي الكبير، كما هو معروف، هو "إرنست بلوخ" (فيلسوف ماركسي الماني عاش في المانيا الديمقراطية، ثم انتقل لغرب المانيا، ولكنه ظل ملتزما بالفلسفة الماركسية - المترجم) الذي حاول صراحة ادخال لحظة اليوتيبيا في الماركسية تحت الاسم الكبير في معناه "النظرة المتصورة" ("انطلوجيا ما لم يوجد بعد"). وهو إسهام هام بعيد المدى، لا يمكن تناول قوته وحدوده في بضع كلمات.

وسؤالي هو: فيما اذا هذه القضية لا تفيد الماركسية فقط، بل قد تكون ضارة أيضا. واتحدث انطلاقا من رؤية اليوم ولا أريد،

في أي حال من الأحوال، نكران أن لماركس وإنجلز أسبابا وجيهة لترسيخ "المادية الجديدة" باستمرار على اساس العلم وليس على اسس طوباوية. ومن وجهة نظر وحديث اليوم، فان الوضع، كما ارى يبدو مختلفا. ان مسألة اليوتيبيا تطرح نفسها بشكل جديد، وبشيء من الإلحاح - ان لم تكن لأسباب نظرية، فعلى الاقل، لاسباب عملية، اي اسباب سياسية - مجتمعية. فنحن اليوم، عالميا، في وضع لا تقف الماركسية فيه، في مقدمة التعامل السياسي (ربما باستثناء كوبا). ولم تعد كقوة للتشكّل التاريخي (المفهوم الماركسي للتشكيلات التاريخية)، تلعب دورا في معظم أنحاء العالم؛ وفي أحسن الأحوال، قوة تعمل في الخلف. ومن المؤسف ان نسمع هذا ولكن الأمر كذلك.

اذا لاحظنا الوضع السياسي العالمي اليوم - وكل تحليل شامل للمجتمع المعاصر (الذي يصف نفسه بـ"عالمي"، لان التسمية الدقيقة لا تزال هي الامبريالية) - على اساس السياسة العالمية -، فسيظهر ان هناك تناقضا صارخا. إن أزمة الرأسمالية، وهي جانب واحد ضمن أمور اخرى، وصلت الآن إلى أبعاد أو تتحرك نحو حالة تذكرنا بأزمة العصر في أوائل القرن العشرين. والانقسامات التي تحطم التشكيلة المهيمنة تصبح مرئية، وتضع بقاء الإنسانية المتحضرة أمام سؤال؛ على الأقل البقاء في وضع يختلف عن بربرية منظمة تكنولوجياً. إن عجز المجتمع الرأسمالي المتطور عن إيجاد طريقة إنسانية للحياة بالنسبة للغالبية العظمى من سكان الأرض قد أصبح واضحا إلى حد يتفادى فيه التهرب من الأيديولوجيا أكثر فأكثر. والأزمة، إن لم تكن بكل أبعادها، أصبحت الآن معروفة للجميع - والعصافير، في هذه الأثناء، تزقزقها على السطوح. وعلى النقيض من أوائل القرن العشرين، الذي كان بالمعنى الماركسي الدقيق حقبة الثورات الاجتماعية، فإن الوضع حاليا مختلف تماما. وانا اصوغها متعمدا بحدّة، عصر الركود الاجتماعي المؤكد: يجري التعامل السياسي في جميع انحاء العالم، ولكن في مكان آخر، حيث الحفاظ على نظام عالمي متعفن في الجوهر ولا مستقبل له؟ في العديد من مناطق العالم هناك حروب كبرى أو صغرى، معظمها غير مبررة وقذرة. وهي تدور تحت أسماء مختلفة وتخدم أغراض السلطة الاقتصادية والسياسية أو الدينية.

في المسافة البعيدة

أين يوجد تعامل سياسي أو عسكري من منظور التغيير الاجتماعي نحو عالم لا يكون فيه الإنسان وضيعا، مستعبدا، مهجورا، ومزدرى؟ الاستثناء الوحيد هو امريكا اللاتينية، وهنا تكمن آمالنا الكبرى اليوم. وماذا وراء ذلك؟ بالتأكيد: هناك استياء في جميع أنحاء العالم، وفي كثير من المناطق، غضب وصراع، وحتى مقاومة وتمرد. وفي وسائل الإعلام يرى المرء، كل يوم، وجوها غاضبة أو يائسة، وقد اصبحت كثيرة جدا، بحيث لا يمكن اخفاؤها بعد الآن. وهناك حركة اجتماعية وتوجهات سياسية منظمة. ولكن أين هي القوى التي تعطي، او تستطيع ان تعطي هذه الكتلة من الغضب والاحتجاج صوتا نظريا وتوجها

سياسيا يتجاوز الانشطة قصيرة المدى - وأين هو التوجه الاستراتيجي نحو الهدف؟ ان التركيز فقط على عمليات بعيدة المدى تسمي هدفا واضحا وتضعه نصب اعينها، تثري هذه الكتلة مقاومة منضبطة (دقيقة)، ''تحمي ايضا'' تحول التعامل العفوي الى قوة، نستطيع حقا هز وتغيير أسس النظام القائم - و كما يقول (هيغل) ''صدأ الظلم القديم''. وهذا يتطلب وحدة النظرية والممارسة. والماركسية، كما نرى، يمكن ان توفر هذا التوجه - اذا لم تكن راهنة فمحتملة - كقوة نظرية وكذلك ايضا حركة عملية، ولكن هل تستطيع فعل ذلك في أشكالها المعروفة سابقا، عمليا - سياسيا وكذلك نظريا؟

نحن اليوم في وضع يفرض ضرورة إعادة تقييم ادواتنا. وعندما اتحدث عن ''نحن'' اعني، في المقام الأول، الذين لا يزالون يعتبرون انفسهم ماركسيين، الذين احيانا يعضون على اسنانهم، ويجادلون بان الضرورة الحتمية الماركسية ليست الا خارج العالم ''تحطيم جميع الظروف التي يكون فيها الإنسان كائنا وضيعا، مستعبدا، مهجورا، ومزدرى'' - وبهذا فالماركسية ليست بأي حال من الأحوال الا خارج العالم، بل لديها القدرة على الظهور من جديد عمليا ونظريا، كقوة مشكّلة للعالم. ولكن: مع امكانية تجديد الادوات، وعلى الأقل مراجعتها، وبالتأكيد توسيعها.

وينبغي التذكير بأن الماركسية ليست نظاما نظريا مغلقا، بل شكل نظري للواقع المتغير باستمرار، والذي يتطلب تغييرا نظريا يوازي الواقع المتغير. وذلك بحكم مبدئه النظري المنهجي الأساسي: الديالكتيك المادي. والأخير لا يتسامح مع الجمود النظري، لكنه يتطلب مواءمة التقاليد النظرية للواقع المتغير، بحيث يمكن أيضا أن يخضع لمراجعة مستمرة - لسؤال في ما إذا كان يتوافق مع الواقع المتغير كمفهوم مناسب.

وبمعنى ما فإن هذه المراجعة، تطرح مسألة العلاقة بين الماركسية واليوتوبيا. وأقترب منها بإلقاء نظرة على قصيدة (بيرتولت بريشت) ''إلى الاجيال القادمة''. وهي جزء من ''مجموعة سفيندبورغ'' التي كتبها بريشت في المنفى الدنماركي في نهاية الثلاثينيات، وفي اوقات الأزمة، وأشار هنا إلى ساعة خطر شديد. حيث قال:

''اتيت المدن وقت الفوضى
عندها كان الجوع مهيمنا
مع الناس في وقت الاضطراب أتيت
وشاركتهم الغضب
(...)
في زمني أوصلتنا الشوارع الى المستنقع
(...)
كانت القوى محدودة. والهدف بعيد المسافة لقد كان الوضوح شديدا، وان كان بالنسبة لي عصي المنال''.

ولشحذ رؤية (بريشت) اليوم، فان الهدف: في مجتمع يرمى فيه الإنسان في حالة الإذلال والعبودية والاستعباد والازدراء، يكون ''المبدأ الأساسي هو التطور الحر الكامل لكل فرد'' (ماركس، رأس المال، المجلد الأول). ان هذا الهدف هو بالتأكيد اليوم أبعد مما كان عليه في الوقت الذي كتب (بريشت) هذه القصيدة. وكثيرون، حتى أفضلهم، كثيرا ما يساورهم الشك بشأن امكانية الوصول إليه، اكثر من أي

وقت مضى، نتيجة لقوة هيمنة العلاقات السائدة، ويطرحون السؤال المخيف، فيما إذا كانت البربرية، في ظل هذه الظروف، هي الحالة النهائية للعالم أكثر رجاحة من المملكة المأمولة لمجتمع إنساني - الكارثة أكثر رجاحة من اليوتوبيا؟ ومن يستطيع اليوم أن يقول بضمير مرتاح إن هذا الهدف لا يزال مرئيا بوضوح - في ضوء الوضع الذي يتم فيه نقل صور يومية مشوهة حول ما يعنيه المجتمع الاشتراكي، وعلى الأقل بسبب التشوهات الفعلية الموجودة في "الاشتراكية الفعلية" (أيا كانت الأسباب) في مواجهة حالة تعثر فيها التشويهات بالتشويه؟ وحتى عن الاقلية الذكية، الذين ما زالوا يستطيعون هنا التمييز، يسود في الغالب الرأي القائل، ان الهدف رائع وجميل، ولكن لا يمكن ان يتحقق ابدا - مجرد صورة حلم وفكرة، لا مكان لها في الواقع - يوتوبيا باعتبارها لا مكان.

الهدف كشيء ملموس

من هذه القضية نتوصل الى الاستنتاج، لا نريد تصويب السلاح ونحن محبطون: يجب أن نقول، بوضوح أكثر من أي وقت مضى، كيف يتم تحديد "الهدف"، الذي يتحدث عنه (بريشت)؟ بطبيعة الحال لا يعني الماركسي البراغماتي، كما كان (بريشت) "هدفا نهائيا" للتاريخ، وليس عالما يسيل فيه الحليب والعسل، بل الهدف كشيء ملموس: هدف حقيقي، يمكن تحقيقه عمليا، وهو ما يطلق عليه أحيانا "اكبر ما يمكن"، يكون فيه "الانسان مساعدا للانسان"، والكلمة فيه لـ"الصداقة". ليس لدى (بريشت) هناك يوتيبيا اكثر، الذي يتبع بالتأكيد موقف الماركسية التقليدية المناهض لليوتيبيا. وبلغتي: فانا ادعو الى استعادة لحظة التفكير الطوباوي في الماركسية - ليس بمعنى "وصفة عربة طعام المستقبل" كما قال بتلقائية مرة كارل ماركس، ولكن كفكر للممكن التاريخي، الذي يصبح الآن وهنا ممكن: اليوتوبيا ممكنة التحقيق.

وأنا أدعو لمثل هذه اليوتيبيا اليوتوبيا. والتي تأتي من الضرورة العملية لمجتمع مختلف عن المجتمع القائم - ضرورة التحول النوعي لهذا المجتمع، واعادة تشكيله، ليخرج منه مجتمع جديد (ولا تعني الماركسية الثورية شيئا آخر). لو كان المجتمع القائم قادرا على التصدي للمشاكل، التي يعتبر التصدي لها مهمة مجتمعية عالمية، لتأمين مستقبل البشرية المتحضرة - اشير فقط الى: البؤس الشامل، الحرب، العنف المنفلت، العنصرية، وضع النظام القانوني العالمي المرتقب، فرض المساواة بين البشر، التعليم والرعاية الصحية للجميع، والإجابة على اسئلة البيئة، حتى لو على المدى الطويل، فإنه لن تكون هناك حاجة إلى تغيير جذري لها. ان الاصلاحات الملموسة للمشاكل المذكورة ستكون كافية. ولكن ليس هناك ما يشير إلى أن المجتمع القائم على استغلال العمل والأرض، على أساس مبدأ الربح والمنافسة والأداء المجرد، ويمكنه أيضا معالجة الاضرار التي يسببها. ووفقا لجميع الأدلة التجريبية، فان العكس هو القائم. لإنقاذ البشرية، وللحفاظ على الطبيعة لا يكفي فقط ادارة هذا المجتمع. ومن هذا القضية تنبثق ضرورة الجديد.

ويدعم هذا الاستنتاج تحليل قدمه (لوسيان

سيف) في صحيفة "لوموند دبلوماتيك" في تشرين الثاني 2011. ويرى سيف أن شخصية عصرنا تتحدد بـ"قضيتين اساسيتين"، الايكولوجيا والأنثروبولوجيا. ويتناول الاخيرة من ثلاث زوايا: هيمنة السلع في الكون أسست لـ"تسويق ما هو انساني"، ومن هيمنة قيمة التبادل الكونية (قيمة النقود) ينتج "انخفاض قيمة كل القيم"، و"فقدان الحس غير المسيطر عليه". ويخلص الى ان "العولمة المدفوعة ماليا (التي يحركها القطاع المالي) ستصبح اختراقا صادما لـ"اللا مكان"، حيث العيش الى جانب اشقائه الروحيين، والتعصب الديني يتخلل اكثر فأكثر كل شيء". ويستمر: "الاستغلال التجاري لما هو انساني، تخفيض قيمة القيم، وفقدان الحس: ان ما يحدث هو (...) الغاء الحضارة (عودة البداوة)". فبدلا من الديمقراطية السلمية الموعودة، التي كان من المفترض أن يأتي عصرها بالانتصار الكامل لـ"المؤسسة الحرة"، نشهد امتدادا لدكتاتورية العنف. التحدث عن "بربرية اللا عالم المعولمة": "التطهير العرقي"، والنهب المسلح للبلدان الفقيرة، والإرهاب، والتعذيب كنهج معترف به رسميا. يضاف إلى ذلك أشكال مختلفة من "العنف النظيف": "منافسة الازاحة الاقتصادية، والتسريح الجماعي للعاملين لتحقيق ارباح قصيرة المدى في البورصة، وأساليب المراقبة المتطورة في المصانع وفي فضاء المدن العام. ويشمل "العنف النظيف" ايضا، رمزية سوء استخدام المصداقية، وانتشار الخوف الزاحف من الآخر، وتداعي الفضائل الحضارية من خلال التهكم". والنتيجة هي: "ما يجب أن نبدأ به الآن، ليس أقل من خلاص البشرية". والمهمة تتطلب مواجهة المسألة الأنثروبولوجية بمجملها، والتشكيك فيها بنفس الطريقة التي يطرح بها السؤال الإيكولوجي. ولا يمكن فصل كلا السؤالين: "لا يمكن للمرء أن ينقذ البيئة بدون البشرية او البشرية بدون البيئة".

ولإدارة المهمة العملاقة القائمة، يربط الوعي الاكثر واقعية للممكن، مع التصور الارقى (...) لما هو ضروري. وهذه هي ايضا المطالبة التي تطرح نفسها، لبناء اليوتيبيا في الماركسية.

فكر الممكن

ولكن ماذا يعني هذا بالضبط؟ بناء اليوتوبيا في الماركسية، وكيفية ترسيخ لحظة اليوتوبيا في نظرية مادية ـ جدلية؟ وهذا لا يعني ولا ينبغي أن يعني أن الماركسية (كما صاغها إنجلز: الاشتراكية) ينبغي أن "تتطور" من العلم إلى اليوتوبيا. وما أعنيه هو العكس، وهذه النقطة تشكل المركز النظري لأفكاري: ادراك اليوتيبيا باعتبارها لحظة ما هو علمي في الماركسية، مبررة علميا فحسب، وعلى أساس علمي يمكن الربط بين الوعي الأكثر واقعية لما هو ممكن مع الرؤية الأرقى لما هو ضروري. الامر لا يتعلق بعالم حلم لمثل غير ملزمة، الامر يتعلق ببناء الممكن ولا تعني اليوتوبيا ممكنة التحقيق شيئا آخر. ولعدم اتخاذ قرار شكلي مسبق، يجب ان يبقى مفتوح الشكل الذي تعبر فيه يوتوبيا ممكنة التحقيق عن نفسها. ومن المؤكد أنه ينبغي إدراجها في الفكر النظري للماركسية على شكل مفهوم. ومن المرغوب فيه تصورها

بأشكال متعددة تمتد من البرامج السياسية الى رواية اليوتوبيا واشكال الفن الأخرى، بشرط ان تكون جميع هذه الاشكال سليمة علميا. الفن الطوباوي سيكون، باحساس (بريشت)، فن العصر العلمي.

ولكن كيف يتم فهم اليوتوبيا على أنها لحظة علم؟ الجواب هو ولا يمكن إلا أن يكون: كصيغة للواقع المتصور؛ كلحظة من الواقع نفسه، وبهذا المعنى باعتبارها امكانية تاريخية. وحسب ماركس، لا يمكن الاهتمام بتحقيق مُثل خيالية يتم جلبها ''من الخارج'' إلى الواقع، بل باطلاق الامكانيات التي نضجت في الواقع، والغافية في رحم الواقع التاريخي - تحقيق الممكن بواسطة الفعل الانساني ذاته. وليس المقصود عملية لاهوتية، وهنا لا ينضج شيء بذاته، بل إن تحقيق ذلك يتطلب فعلا انسانيا، يتحقق بواسطته، أو لا يكون.

إن الماركسية في مبدئها الاساسي منهجيا ونظريا، تتشكل فيها النظرية باستمرار مع الواقع المتغير. وقوة هذا المبدأ هو وجوب التغير النظري، وفقا للواقع المتغير - وهذا ينطبق أيضا بمعنى دقيق جدا على اقتراح ادخال تفكير طوباوي. وبالتالي، فإن هذا الادخال لا يعني ''القطيعة'' مع الفكر الماركسي التقليدي، وبالتأكيد ليس مع الكلاسيكيات، بل بلورة لحظات تفكير، موجودة منذ البداية في تصنيفات أساس هذا الفكر. ولا يأتي ذلك تعسفا، بل نتيجة لمتطلبات الوضع العالمي الراهن. وبالتالي فإن هذا التوسع (الاضافة) هو العكس تماما من التنقيح، الذي لا يستهدف الاضافة، بل حذف عناصر جوهرية في النظرية، ويحدث تدميرا في اساسياتها.

هيكلة تاريخ ثلاثي الأبعاد

مع تطور التكوين الرأسمالي المجتمعي الى رأسمالية الحاضر الكوزموبوليتانية، دخل تاريخ البشرية عصر التاريخ العالمي، والنتيجة كونية أسلوب الإنتاج الرأسمالي. إن مثل هذا المفهوم للتاريخ يضع الحاضر، وهو زمن تجربتنا المباشرة، والتي نتحدث من زاويتها، في سياق عملية تاريخية تنحدر من تاريخ البشرية الأصلي وهي مفتوحة ''الى امام'': مشبعة بالمستقبل كإمكانية - وهنا ايضا يأتي المقصود في سياق مفتوح. ان عالم الحقائق المتحجرة، الذي يبدو بلا تاريخ - عالم ''مجموع الحقائق'' (لودفيغ فيتغنشتاين - فيلسوف نمساوي - بريطاني - المترجم)، محملة بالامكانيات. والتاريخ يشير الى نفسه في ثلاثة ابعاد: الحاضر، الماضي والمستقبل. صاغ بريشت هذه القضية بمعنى تجربة تاريخية في ''أغنية مولداو'' في صيغة بسيطة لا تنسى:

''في قاع فلتافا تتجول الحجارة – (اسم النهر بالجيكية، وبالألمانية مالداو- المترجم)
ثلاثة قياصرة يرقدون في مدفن براغ
الكبير لا يبقى كبير والصغير هو ليس الصغير
يمتد الليل 12 ساعة، ولكن النهار مقبل''.

الماركسية تاريخيا، كما قلنا، ذات ثلاثة ابعاد، فكر الحاضر، فضلا عن العملية التاريخية التي أدت إليه، وهي فكر الممكن في الواقع: المستقبلية المتصورة (ارنست بلوخ). وبهذا المعنى هي التاريخ المستوعب واليوتوبيا ممكنة التحقيق. هذا المفهوم، في رأيي، هو في مركز الماركسية باعتباره رؤية فلسفية للعالم. إنه جوهرها

الذي يأتي بالضرورة من الطابع الجدلي التاريخي للماركسية. المستقبل ليس شيئا من التاريخ الخارجي. وهو ينتمي بمعنى أساسي إلى هيكله. إن معرفته هي التي تمكننا في اوقات الهزيمة من ألا نفقد الارض من تحت اقدامنا، تعطينا الشجاعة في اليأس، وتضع في اعتبارنا حتى في الأوقات المظلمة هدف عالم يكون فيه ''الإنسان مساعدا للانسان'' (بريشت، ''إلى الاجيال القادمة''). وبالنظرة التاريخية وحدها يمكن معرفة إن الماضي يحوي الحاضر، وما هو مستقبلي ايضا - في كمون إمكانياتها بين الكارثة العالمية واليوتوبيا.

ان فكر المستقبل بهذا المعنى المفهوم لا يشير الى ما وراء، التاريخ التجريبي، ولكنه ينتمي إلى مفهومه العلمي. وهذا صحيح فقط، عندما يقتصر هذا الفكر على الملموس - الممكن لوضع تاريخي، بمعنى على يوتوبيا ممكنة التحقيق. صورة حلم المستقبل، فانتازيا ما يمكن تمنيه هي ممكنة في أي وقت. وهي تنتمي الى مجال الفن. وفيها لا حدود موضوعة للفانتازيا الطاوباوية. ويمكن ان تلائم الاحتياجات الذاتية، وبمعنى معين تكون مجدية. ولكنها ليست ولا يمكن أن تكون جزءا من المفهوم العلمي. انها تشكيل لليوتوبيا المجردة، التي لا مكان لها في صورة العالم العلمية.

*** صدر في الأسابيع الأخيرة من عام 2017 عن دارMangroven للنشر في مدينة كاسل الالمانية كتاب "الماركسية التكاملية. دراسات جدلية". لمؤلفه عالم الآداب والفيلسوف الألماني توماس متشر. الترجمة لمقتطفات من القسم الثالث من الكتاب.**

عنوان الكتاب بالالمانية:

Thomas Metscher, Grundlegung Integrativer Marxismus. Dialektische Studien. Grundlegung. Mangroven Verlag Kassel, 2017.

حـــــــــــوارات

حوار مع الدكتور فالح مهدي

أجرى الحوار: سعدون هليل

البحث في جذور الايديولوجية الدينية

الدكتور فالح مهدي، باحث وكاتب عراقي، درس القانون في بغداد، ومن ثم واصل تحصيله العلمي في الهند. أكمل دراسته العليا في جامعة باريس، وحصل على دكتوراه دولية في القانون بدرجة امتياز. قام بتدريس فلسفة القانون في الجامعة نفسها، ومن ثم انتقل للتدريس في جامعة فرساي لسنوات عديدة. صدر له عن دار ابن رشد في بيروت كتابه الأول (البحث عن منقذ) في عام 1981، وعن دار البصائر في بيروت صدر له (صلوات الانسان) في عام 2015 والذي يتضمن قراءة في الصلوات الانسانية. في باريس وفي عام 1991 صدر كتابه (أسس وآليات الدولة في الاسلام) وباللغة الفرنسية. كما انه ساهم مع عدد من الباحثين الفرنسيين والأجانب في كتب مشتركة عن انثروبولوجيا القانون. وعن دار الياسمين في القاهرة صدر له: (الخضوع والإحباط الشيعي – نقد العقل الدائري) 2014. وعن دار العودة في بيروت 2017 كتاب (البحث عن جور الإله الواحد – في نقد الايديولوجية الدينية). ونتيجة اهتمامه بالمادة الأدبية، فقد صدرت له وباللغة الفرنسية مجموعة من الروايات، وقد تم نشر بعض أعماله الادبية والمسرحية في بعض العواصم العربية، وآخرها روايته (اصدقائي الكلاب) عن دار الياسمين المصرية في عام 2014.

في هذا الحوار، تحدثنا عن أهم الانجازات الفكرية والادبية، وحول منهجية الباحث والمفكر د. فالح مهدي.

*** هل بالامكان توضيح الروافد الفكرية والثقافية التي أثرت على تكوين ثقافتك بشكل عام والفكرية بشكل خاص؟**

– لا يمكن تحديد الاسباب التي تدعو طفلاً عراقياً الى التوجه الى القراءة، في بيت كان بعيداً عن عالم القراءة والكتابة، فقد كانت أمي لا تجيد القراءة والكتابة. كان والدي ضابطاً في الشرطة، انما كان بعيداً عن هذا العالم الثقافي. لقد دفعني الى عالم القراءة استاذي في المدرسة الابتدائية الطيب الذكر عمر الراوي. قراءتي كانت عشوائية، فقد بدأت بروايات كانت تنشر في تلك الأيام وبعض الروايات المترجمة. عندما انظر الى طفولتي مقارنة بالاطفال الفرنسيين مثلاً، أجد ان هناك فوارق كثيرة، حيث يتربى الطفل على حب القراءة منذ نعومة أظفاره، ليس البيت من يلعب دوراً فحسب، بل المدرسة لها دور مشرف. الناس على شاكلتي وهم كثر، أصبحوا قراء ومثقفين بالصدفة ان جاز التعبير، فليس هناك استمرارية ولا أسس لتلك القراءات. لقد قرأت لسلامة موسى في طفولتي وقد أثر فيّ كثيراً. كما ان الثقافة اليسارية (علماً انني من عائلة بعيدة عن عالم السياسة!) تركت آثارها، فقد تعرفت على أفكار الحزب الشيوعي وأنا طفل لم أتجاوز الحادية عشرة من سني عمري، ولم أتحول الى عضو في ذلك الحزب. لقد ساهم ذلك الحزب في صناعة ثقافتي كما فعل مع معظم من أراد أن يتعلم من جيلي والأجيال اللاحقة.

*** في كتابيك، الأول (البحث عن المنقذ) في الديانات بشكل عام، والثاني (نقد العقل الدائري) ويدور حول الصراعات الفكرية في المذاهب الدينية.. ما هي أبرز الخلاصات التي استنتجتها من خلال كتابيك المذكورين أعلاه؟**

- قبل كتابة هذا البحث، قرأت في التراث الاسلامي كثيراً وكانت اطروحتي لنيل الدكتوراه من (جامعة باريس 10) عن (اسس وآليات الدولة في الإسلام) لقد أخذ مني ذلك البحث حوالي عشر سنوات قراءة وفهم. أما كتابي (نقد العقل الدائري) فيمثل تركيبا وتوليفا لما قرأت وفهمت عبر تلك المسيرة الطويلة التي بدأت مع كتابي الأول (البحث عن منقذ).

عندما تعيش في أوربا وتخرج من مفهوم القرية التي أتيت منها، وتسمح لذاتك أن تتطفل وأن تلتقي بالآخر المختلف عنك ستكتشف رويداً رويداً من أنك قدمت من عالم دائري، وان الجزء الأهم من تخلف هذه الشعوب الواقعة تحت جبروت الحيز الدائري، يأتي من انها لم تتمكن من ان تخرج منه. الحيز الدائري، العمودي من بناء السلطة يصنع منك الكائن الذي شاءه. لذا فان قراءتي لذلك الحيز عبر كتابي، كان يهدف الى نقد السوكنية والمستنقعية التي أصبحت من مستلزمات هذا الحيز، وأدت الى ولادة كوارث ولم تزل.

*** من خلال بحوثك الفكرية ومزاوجتها بكتاباتك الروائية، هل وجدت انسجاماً بين ممارسة الكتابة، خاصة بين الفكر والسرد؟**

- الرواية عالم والبحث العلمي عالم آخر. لقد كتبت الرواية منذ بداية ثمانينات القرن الماضي. انما كتبت قبل ذلك في المسرحية والقصة القصيرة. وتمكنت أن أنشر باللغة الفرنسية، حيث ترجمت روايتي (أصدقائي الكلاب) الى اللغة التركية وأعيد نشرها في منشورات الجيب في فرنسا.

تعتمد كتابة الرواية والقصة وكل الأصناف الأدبية كالشعر، مثلاً، على وجود الموهبة أولاً، ومن ثم القدرة على السرد والبناء. العمل الأدبي يشبه العمل المعماري؛ إذ يحتاج الى أسس متينة، لكي يقوم عليه ذلك البناء.

البحث العلمي شأن آخر، فهو يتطلب قراءة واسعة أولاً ومعرفة بأكثر من لغة وفضول جامح للفهم والمعرفة. الباحث في الميادين الإنسانية (أي العلوم الاجتماعية، الاقتصادية، التاريخية...الخ)، يفترض ويجب أن يكون ناسكاً وأقصد بذلك أن من يبحث عن الربح عن طريق الكتابة، الأجدر به أن يبحث عن صنعة أخرى. البحوث والدراسات ولا سيما خارج مراكز البحوث المختصة، لم تأت بأية أموال، بل قد تأتي بأوجاع للرأس وربما الموت بشكل عنيف، كما حصل مع المفكر المصري فرج فودة.

الرواية الجادة، أفضل وسيلة للتعبير عن صيرورة مجتمع من المجتمعات، عن الصراعات والأحقاد والتنافس غير المشروع، عن الأزمات الاقتصادية الكبرى، ولنا في بلزاك الفرنسي والروسي ديستويفسكي والمصري نجيب محفوظ أمثلة على ذلك. البحث في العوالم القديمة يحتاج الى عدة وسائل، لكي يتمكن الباحث من انجاز مهمته على أحسن وجه؛ فإضافة الى القراءة الواسعة، الفضول الشديد، الموضوعية في المنهج فكما رأينا ذهبت بعض البحوث الى عالم النسيان، بسبب من تمسكها بنهج ايديولوجي منع عليها الرؤيا.

*** من خلال قراءتنا لكتابك (البحث عن المنقذ) كيف وجدت الانسجام والتباين في النظر الى المنقذ بين الديانات التي أخضعتها لدراستك؟**

- لقد عدت الى موضوع هذا الكتاب مع صديقي وأخي توفيق التميمي، انما وتلبية لرغبتك أقول إنني كتبت ذلك الكتاب بمشورة ذلك الانسان العبق الذكر، وأقصد فيصل السامر. في عام 1971 كنت أعمل في المحاماة، وبما إنني كنت أكره تلك المهنة، فقد كنت أقضي معظم وقتي في المكتبة المركزية. لقد تمكنت من جمع مادة مهمة عن القرامطة. لا أعرف كيف سأتمكن من تحويلها الى بحث يتطرق الى إحدى الحركات الثورية في الاسلام. وبإقدام الشباب، اذ لم يتجاوز عمري آنذاك الثانية والعشرين عاماً، دخلت على الدكتور فيصل السامر، بعد ان طرقت باب مكتبه، استقبلني ودعاني للجلوس وخلال دقائق فهم كل شيء، فقال لي: "لِمَ الكتابة في موضوع سبق الخوض فيه كثيراً؟". لقد أصابني ذلك الجواب والاعتراض بخيبة أمل لم تطل، فأردف قائلاً: "لم لا تكتب عن المهدي في الأديان؟). كان ذلك الاعتراض والذي يمثل فتح نافذة للعمل والبحث في مادة لم يتطرق اليها باحث في العراق على أقل تقدير. ولما أعلمته من انني لا أعرف أي شيء حتى عن المهدي! ابتسم وقال لي "لا تقلق، اتصل بي بعد اسبوع وسأكلف أحد الأساتذة الأخذ بخطاك في هذا الموضوع". وبعد أن أعطاني رقم تليفونه الشخصي، تمت تلك المغامرة على نحو لم أتوقعه أبداً. فقد عرفني على الدكتور سامي سعيد الأحمد، استاذ التاريخ القديم في كلية الآداب في بغداد. أنجزت ذلك البحث قراءة وكتابة، خلال عام واحد! وإذا سألتني كيف امكنك ان تنجز ذلك العمل في تلك الفترة الممعنة في القصر؟ فلن أتمكن من الإجابة عن

سؤالك. وقد كنت محظوظاً، فقد ساعدني صديق لي يعمل في المكتبة المركزية، وفي نفس الوقت كان يمارس مهنته كصحفي في جريدة "التآخي". لا اتذكر الآن إلا اسمه الأول "ناصر". لقد عرفني صديقي ناصر بالباحث والمفكر السوري صادق جلال العظم. فلولا جهوده ومكانته في بيروت، لما رأى النور ذلك الكتاب لشاب مغمور. فقد تبنت دار ابن رشد البيروتية نشره. وعندما عرّفني صادق جلال العظم على صاحب دار ابن رشد (كان اسمه سلمان صبح، إذا لم تخني الذاكرة) في عام 1981، اصيب بالعجب ولم يخف ذلك، إذ قال لي "كنت أتصور انك تجاوزت الستين من عمرك".
أكثر من شجعني وأشاد بذلك الكتاب هو صادق جلال العظم فقد كتب لي: "أنا على يقين من ان هذا الكتاب سيترك أثره على القراء". وكانت كلماته تلك، عبارة عن نبوءة. فما زال الكتاب يطبع لحد الآن، وسيقوم الاستاذ ستار محسن بإعادة نشره، وسيصدر عن دار سطور قريباً. رسم ذلك البحث مسيرتي العلمية والأدبية، ذلك ان حضور المنقذ فيها أصبح طاغيا!

*** كيف وجدت العلاقة بين التراث والمعاصرة؟ هل هناك نقاط تلاقي أو اختلاف بين المفهومين؟**

- نعم، هناك صدام ما بين الحداثة والتراث. التراث ينتمي الى عالم دائري، يغلب عليه طابع القداسة المرتبط بالعنف، في حين ينطوي مفهوم الحداثة على النسبية، على التطور، على أفقية العلوم، على طرد الأيديولوجية من هذا العالم الذي لا يقبل بالمفاهيم النهائية.
العالم الاسلامي، عالم عمودي ودائري في تصوراته وفهمه للإنسان والمجتمع والكون. الحداثة تتضمن القدرة على الحوار، الشك، اعادة النظر، الفهم والحوار، في حين يتضمن التراث، اليقين، الثبات، الماضوية، القداسة. ذلك ان طه حسين، اتهم بالعمى في تلك المظاهرات التي خرجت منددة بكتابه "في الشعر الجاهلي" والتي كانت على النحو التالي "يسقط الأعمى"! ولو تأملنا فسنجد ان طه حسين كان الوحيد الذي زاره النور في تلك اللحظات.
احد التحديات الكبيرة التي تواجه شعوب المنطقة، تتمثل بغربلة ذلك التراث الذي يحتوي على الغث أكثر من السمين!

*** من اجل قراءة صحيحة للتاريخ العربي الاسلامي، هل نستطيع اعتباره تاريخ شعوب أكثر مما هو تاريخ طوائف وقبائل أم العكس؟**

- هذا هو سؤالكم. الحقيقة ان من كتب ذلك التاريخ لم يؤرخ للشعوب، بالمعنى المعاصر لمصطلح مؤرخ، كان المؤرخ، كالطبري، مثلاً، باعتباره شيخ المؤرخين الإسلاميين، بعيداً عما نعنيه بتاريخ وسلوكيات الشعوب والجماعات. لم يكتب كتابه العظيم ذلك من أجل الشعوب، ان تاريخ الطبري مثلاً هو تاريخ الخلافة العباسية بامتياز.

*** ما هو صدى الفكر العلماني في الوسط الثقافي والسياسي العربي؟**

- كانت رسالة الفكر العربي العلماني ومنذ نهاية القرن التاسع عشر، المساهمة عن طريق الفكر للخروج من دائرة الظلام التي شلت كل القدرات والطاقات ولم تزل. الفكر العلماني على عكس ما يشاع عنه من قبل

الجهلة ومن في نفوسهم مرض، لا يدعو الى الكفر والإلحاد، ذلك إن هناك اعدادا كبيرة من المفكرين العلمانيين، مؤمنين ويفرقون وعلى نحو جلي بين الايمان كعلاقة شخصية من الانسان وربه، وبين الأيديولوجية التي حولت ذلك الايمان الى مطية للتحكم بسلوك الافراد والجماعات.
العلماني الذي يحمل رسالة، يمثل مستقبل هذه الشعوب من أجل الانعتاق والتحرر.

*** هناك دعوات لفصل السياسي عن الثقافي في الأدب؟**

- لا يمكن البتة فصل السياسي عن الثقافي، كل شيء سياسي. السياسة في جوهرها فن ادارة شؤون المواطنين بالمعنى المعاصر. في الأنظمة الديمقراطية (ولا أعني العراق بذلك)، تلعب السياسة دوراً في إيقاد وعي المواطنين عبر الفعل السياسي والفعل المعارض الذي يمثل وجهة نظر مخالف للسلطة الحاكمة. الثقافي في الدول الريعية لعب دوراً في الغالب غير مشرف، فقد أصبح الوسيلة المهمة التي تلجأ اليها السلطات الطاغية من أجل السيطرة على الناس.

*** ما هو المفهوم الذي تعطيه لمفهوم الهوية؟**

- يبرز مفهوم الهوية في تقديري في فترات الأزمات، لقد وجدنا ذلك مع صعود النازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا. كما وجدنا آثاراً دامية بعد تفتت يوغوسلافيا. الجسد المجتمعي يشبه في بعض الوجوه الجسد البشري، وأقصد بذلك عندما يصاب جسد الانسان بالضعف، تخرج في تلك اللحظة الفيروسات التي كانت مختفية والأمراض التي وجدت مرتعاً في ذلك الوهن. في العراق طغى مفهوم "الامة العربية الواحدة.." والعراق الواحد تحت تلك القيادة التي أطلقت على قائدها لقب "القائد الضرورة"! اثناء الحصار لم تقاوم الشعارات ما أصاب الناس من أوجاع ودمار وجوع، فعادوا الى قبائلهم للدفاع عن أنفسهم بعد أن تخلت عنهم الدولة.
الديمقراطية التي جلبها المحتل الامريكي، لم تلغ مفهوم الهوية، بل أبرزت كل ما فيه من رثاث. ذلك ان من يدير دفة الحكم باسم الديمقراطية، هو طائفي وعشائري وبعيد عن عالم الحضارة والمدنية.

*** كيف وجدت صراع الحضارات اليوم، وخاصة بعد تداوله على المستوى العالمي؟ وهل هناك فعلاً صراع للحضارات؟**

- مع ان كتاب صاموئيل هانتنغتون نال شهرة واسعة وترجم الى عدد كبير من اللغات الحية، انما كان قائماً على قاعدة وهمية. ليست هناك حضارة إسلامية في الوقت الراهن، انها من بنات الماضي! وهذا الأمر ينطبق على "الحضارة الصينية والهندية" مثلاً. في تقديري ان هناك حضارة واحدة في العصر الراهن، هي الحضارة الغربية التي تشترك فيها اليابان أيضاً وأمريكا اللاتينية.
الصين ومع التطور التكنولوجي المذهل الذي تتمتع به، لم تنتج حضارة صينية، بل نجد أنماط الحياة في ذلك البلد العريق من ملبس، من تنظيم الديكور الداخلي للبيوت، من إعادة تصنيع السيارات..الخ، دون أن ننسى ان الفن السينمائي الصيني لم يأت بجديد بل كان ولم يزل متأثرا بالنمط السينمائي الغربي! تلك الشهرة السريعة لذلك الكتاب، أصبحت شأنها شأن فقاعة انتفخت ومن ثم همدت.

أدب
و
فن

سبحان الكلمة

ابراهيم الحريري

كم مرّة واجهت هذه المحنة، هذا الامتحان؟
الكثير
ما كنت تحسب أنك ستصبح كاتباً
مع انك كنت تضمر، في داخلك،
هذا الامل، هذا الهدف
حتى تكفلت حياتَك، قراءتك
وتجاربك، ان تصنع منك كاتبا...
لكن على الحافة، حافة الكتابة، وحافة هجر الكتابة،
حتى يزجك موج الحياة العاصف، الرجراج،
ينتشلك من القاع، قاع الخيبة، قاع المرارة
ويدفعك الى السطح
تصارع الموج، موج الحياة المضطرب،
وموج ذاتك الاكثر اضطرابا،
فتعود كاتبا مرة أخرى، وأخرى،
حتى تسقط، فيسقط من بين اصابعك القلم
الكلمة ـ الوجود
في البدء كان الكلمة
والكلمة هي الله
ما اعرف ان احدا، أعلى من شأن الكلمة، مثل الكتاب المقدس (العهد القديم)،
فوحد بينها وبين الوجود . الخلق
فاذا الكلمة فعل خلق فعل وجود
واذا الله يتحد بالكلمة فينوجد بها، وتنوجد به،
فاذا بالكلمة هي الله...
واذا بهذا كله، الأب والابن، يتوحدان على مستوى أعلى
ينوجدان، يولدان، من جديد، في الروح القدس:
الكلمة !

الكلمة ـ التعبير
اذا كانت الكلمة هي الله، فما كان الله أن ينوجد، أن يتجلى، من دون الكلمة،
فظهر، وتجلى بوجود الكلمة، وتجليها
واذا بالكلمة تظهر رؤياه لهذا العالم،
الذي خلقه، وتخلق به، ناسا وكائنات
ما كان، وما ينبغي ان يكون.
الكلمة ـ التغيير
وما يكاد العالم يستقر، كائنات واحوال ناس،
حتى يضطرب من جديد. حتى تبزغ الحاجة الى تغييره.
فتبزغ، من جديد، الكلمة، كأداة تغيير،
فتغير الكلمةُ ـ اللهُ الخلقَ وتتغير به
ويظل هذا ديدن الكون وسيظلّ!
الكلمة ـ التطهير
يأثم المخلوق، يرتكب، فيكاد يدمّر ذاته، وما حوله
فتطهر ـ الكلمة الله، تقدم له سرّ الاعتراف،
تساعده على كشف ـ فتح مكنونات نفسه
فاذا به، من جديد، يعيد التوحد بنفسه، بالكون من حوله
بالكلمة ـ الله
***
سبحان الكلمة !
سبحان الكلمة !
سبحان الكلمة !

بغداد ـ عشية 2018

مهرجان "الحبوبيّ" الخامس في الناصريّة ألقُ محبّةٍ.. ودفقُ إبداعٍ.. وتحدٍّ حقيقيّ لواقعٍ مريرٍ

منذر عبد الحر

ثلاثةُ أيّام غدت ساعاتُها سريعة جداً، لأنها ممتلئة متوثبة عامرة بالنشاط الذي يبدأ مبكّراً، ولا ينتهي إلا بساعة متأخرة من الليل، ففي الفضاء متسعٌ للجمال، وفي الأرواح والهمم قدرةٌ على التواصل عطاءً صار مبثوثاً في كلّ مكان من أماكن تواجد المشاركين في التظاهرة الإبداعيّة الملفتة للنظر "مهرجان الحبوبيّ بدورته الخامسة"، هذه الدورة التي انعقدت وهي تحمل لواء الوفاء لشاعر المدينة المظلوم "عقيل علي"، هذا الشاعر المبحر بسفينة الوجع في بحرٍ هائج من الأسئلة، لم تكن زوّادته في رحلتِه غير قصائد مبثوثة، استطاع الشاعر كاظم جهاد وبلمسة وفاء عظيمة أن يطلقها في مجموعتين شعريتين أثارتا أصداء مهمة وكبيرة، لا على مستوى العراق حسب وإنما على مستوى الوطن العربيّ، فـ "جنائن آدم" و "طائر آخر يتوارى" إضافة إلى قصيدته المطولة التي حملت عنوان "شتاء النقود" فهي مكتملة الملامح وبمثابة تجربة طويلة مستقلة، أقول إن هذه القصائد تستحقّ ما تستحقه من دراسات جدية، ورؤى نقديّة عميقة.

إذن جاء المهرجان بدورته الخامسة، بإسم عقيل علي، هذه الدورة التي طال انتظارها، وكادت ألاّ تعقد لو الإصرار والصبر والقناعة والإيمان واليقين والثبات على الموقف، فالظرف لا يسمح، لأن النشاط ثقافي، وهذا الأمر بالنسبة للمسؤول، لا يعني الكثير لأنه يحتفي بالإبداع والجمال ولا يجلب أرباحا مالية تضاف للأرصدة، ولو علم هؤلاء أن الكراسي التي يجلسون عليها هي نتاج العقل الجماليّ المتأمل والرؤية الحضاريّة المتقدمة، والوعي، والإبداع، لوفّروا له ما يستحق من طاقات دعم تتناسب وعمق المدينة التاريخي وأصالة أهله وعطاء رموزه من المبدعين والمثقفين، ولكنهم، جعلوا الأمر إسقاط فرض، وقدموا دعما بسيطا، لمهرجان نجح نجاحا كبيرا، لأن وراء الإعداد له هماً حقيقية وإخلاصاً وإصراراً على العمل دون تلكؤ، فكانت تظاهرة ثقافية من أجمل التظاهرات في حياة الوطن.

وبشعار محلّق برؤى الشاعر الراحل المحتفى به وهو ''إعطِ لفمي الغناء.. وللجميع القصيد'' شهدت الناصرية فعاليات الملتقى التي بدأت بحفل افتتاح بهيج في قاعة بهو الإدارة المحليّة، وبرعاية من رئيس مجلس محافظة ذي قار الحقوقي حميد الغزي، الذي ألقى كلمة حيّى فيها المشاركين في المهرجان، وقد سبقته مفردات الافتتاح بقراءة آيات من القرآن الكريم مع النشيد الوطني وفعاليات فنية غنائية رشيقة ممتعة، كما ألقى محافظ ذي قار كلمة أيضا، ليتبعهما الشاعر إبراهيم الخياط الأمين العام للإتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، بكلمة مجنحة بالمحبة والجمال وقيمة الاحتفاء بالشعر في ذي قار وبأحد رموزها، وكانت كلمة تتجلّى بسحر الشعر فتفاعل معها الجمهور وقاطعه بالتصفيق أكثر من مرة، لتعقبها كلمة رئيس فرع اتحاد الأدباء في ذي قار د.عبد الأمير الحمداني ثم بدأت قراءة القصائد باختيار قصيدة من قصائد الشاعر الراحل عقيل علي، وقد ألقاها الشاعر المبدع خضر خميس وكانت مرثية لعبد الأمير الحصيري، الذي واجه الراحل عقيل علي المصير ذاته الذي ألمّ بالحصيري، لذلك جاءت القصيدة وكأنها نبوءة مبكرة.

ثم توالى الشعراء المبدعون ليقرأوا قصائد كانت كلها متميزة رائعة لشعراء من ذي قار وبغداد والديوانية والسماوة ومدن العراق.

وحقيقة الأمر أن الحوارات، والقراءات، لم تنقطع بانتهاء حفل الافتتاح الذي انتهى بعمل مسرحي هادف من المونودراما أداه الفنان المتجدد سلام جيجان، وهو يتناغم مع انتصاراتنا العظيمة على عصابات داعش الإجرامية، فقد شهدت وجبات الطعام والجلسات في غرف الفندق وقاعاته امتدادا للقراءات والحوارات الثقافية العميقة.. حتى الجلسة الصباحية في اليوم الثاني والتي خصصت لمنجز الشاعر الراحل عقيل علي، وكانت ذات آفاق محلقة في قراءة الشاعر، وقد شارك فيها نقاد وأكاديميون وشعراء وقدموا إضاءات مهمة في عطاء الراحل، أما جلسة المساء فكانت حلقة دراسية ذات أهمية كبيرة، فقد شارك فيها نجوم الأدب الكبار، وقدموا أوراقا مهمة، وفي رأيي أن الورقة التي قدمها المبدع الكبير محمد خضير ، تستحق أن تكون نموذجا عالميا في رؤية مفهوم ''الناص العابر للأجناس'' ولعلّي أتوقف طويلا عندها في أقرب مناسبة، وبعد الجلسة الثريّة بالرؤى، عقدت الجلسة الشعرية التي اكتظت بأسماء وتجارب وألوان عذبة من الشعر الممتزج بعبق المدينة، لينتهي اليوم بحفلة غنائية رائعة قدمها الفنان سرور ماجد، مع فنانين شباب رائعين، أما اليوم الأخير فقد اشتمل على رحلة ثقافية إلى آثار المدينة التي تعد من أهم الآثار العالمية، بينما عقدت جلسة الختام مساءً.

لينتهي مهرجان الحبوبي بدورته الخامسة، وهو يرفع لافتات النجاح والتألق والتحدي الرائع لكل الظروف، فتحية تقدير وإعجاب ومحبة لكل الجهود الخيّرة واللجان المختلفة في المهرجان، وإلى عطاء وطني متألق دائم مفعم بالجمال والمحبة والأمل.

كلمة افتتاح مهرجان "الحبوبي" الخامس

الأدباء محمد خضير ود.عمار المسعودي وابراهيم الخياط
في افتتاح مهرجان "الحبوبي" الخامس

نصّ كلمة الأمين العام لاتحاد أدباء العراق الشاعر ابراهيم الخياط في حفل افتتاح مهرجان (الحبوبي) الخامس الذي عقده اتحاد أدباء ذي قار عصر الخميس 2017/12/21 على قاعة بهو البلدية بالناصرية:

حضرة السيدين رئيس مجلس محافظة ذي قار ومحافظها المحترمين

أيها الحضور الكريم من أدباء وضيوف وأحبة..

يا أول الناس يا أهل الناصرية الأعزة..

السلام عليكم ..

قبل أن أحييكم، أحيي مقاتلينا الأبطال في القوات المسلحة بفصائلها كافة الذين قدموا لنا النصر على طبق من عيد الميلاد المجيد.

أحييهم وأقول لهم: إننا هنا نصوغ تتمة المعركة ذاتها، فبقدر ما نشيع المهرجانات والشعر والمحبة والحب والحياة بقدر ما نهزم المضافات والتكفير والقتل والموت المجاني والارهاب.

أيها الحفل الكريم ..

إننا اليوم في حومة الحبوبي/ الشاعر المجيد والأديب المناضل والمحارب القائد والفقيه العالم.. نحن في حضرة مدرسة جميلة وموسوعة أصيلة.

بالتأكيد لم تتطور القصيدة العراقية الى ما هي عليه الان دون مراحل حاسمة وأسماء مطورة ومؤثرة، ففي مرحلةٍ كسرَ أبو تمام عمود الشعر، وفي مرحلة قصية عن تلك

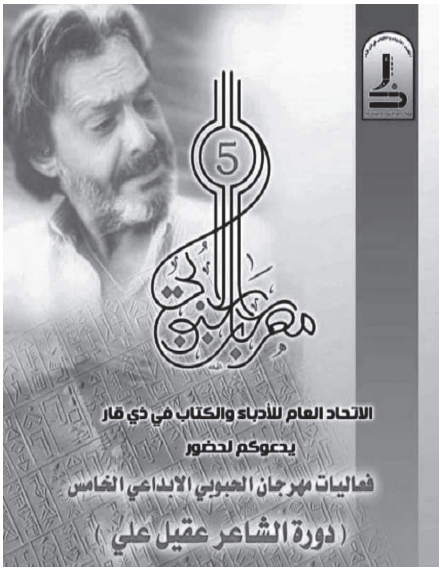

أعاد الجواهري مجد المتنبي في سبائكه المعلقة، وفي مرحلة اخرى اجترح السياب ونازك والبياتي وبلند، وأربعتهم عراقيون، اجترحوا الشكل الجديد للشعر الذي يكتبه العرب كلهم في البلاد والشتات، ثم دوّرَ حسب الشيخ جعفر القصيدة، فيما كسرَ مظفر العمود الشعبي، وبين هذه المراحل يقف الحبوبي الفذ في آنه ليكون كما قال عنه الجواهري الكبير (السيّد الحبوبي كان اسمه يرجّ المجالس والنوادي، وهو أول من جدّد الشعر ورقّه).

يا وجوه المهرجان ومدعويه..

لقد جنّ الحاضرون وطربوا جمّا وهاجوا عندما غرّد مطرب المقام الگبانچي في مؤتمر الموسيقى العربية عام 1932 بالقاهرة وحرّر من مقام (النوى) قصيدة الحبوبي:

شمس الحميا تجلّت في يد الساقي .. فشعّ ضوء سناها بين آفاقِ

تهدي اليك بمرآها ومسمعها .. جمال يوسف في ألحان اسحقِ

وكان من حقهم أن يهيجوا، ومن حق أمير الشعراء أحمد شوقي أن يستعذبَ القصيدة ويستحسنها لأنها لم تكن شعراً بل كانت سحرا.

أحبتي الحضور ..

حسنا فعل الاصدقاء المنظمون اذ اطلقوا اسم عقيل علي على هذه النسخة من المهرجان الفتيّ.. عقيل علي الشاعر السبعيني صاحب التجربة المثيرة شعرا وسلوكا ..

عقيل الشاعر الشارد الفاقد ..

عقيل العامل البسيط الفوّاح بدخان الخبز..

عقيل البوهيمي الأليف الفوّاح برائحة الحزن والمستكي المغشوش..

عقيل اللاجئ الابدي في وطنه..

عقيل القتيل الغالي على الرصيف الرخيص والقاتلون حكومة..

شكراً لاتحاد أدباء ذي قار، الدكتور والهيأة الادارية والاعضاء الاصدقاء، شكراً فقد قلبتم المهرجانات وتنظيمها.. فبعد أن كانت تحمل الأسماء الرسمية المتلألئة في الصالات والصالونات والمنتديات، صارت المهرجانات تحمل أسماء أصدقائنا الصعاليك الأحباب، فتعال يا عقيل فهذا شتاء النقود حقا.. شتاء نقودك، وهذا هو امتيازك..

شكراً بحجم الرافدين للناصرية التي علّمتنا ومازالت تعلمنا دروس الشعر والماء والموال والمقدس والوطنية وأبجدية السيد أورنمو..

وفي البال سؤال:

- تُرى كيف يمكن أن يكون الشعر والغناء والسياسة والتاريخ لو لم تكن ثمة الناصرية والشطرة والقلعة والسوق والزقورة؟

ويأتيك الجواب المفحم: (وخلقنا من الهور كلّ شيء حيٍّ وجميل)..

والسلام عليكم ..

في بغداد.. ذبل الزيتون وغاب العطر النبيل

شارك جمهور واسع تتصدره نخبة من المثقفين، في حفل تأبين الاعلامي والشاعر الراحل جمعة الحلفي، الذي أقامه الحزب الشيوعي العراقي ظهر السبت 2018/2/17 في بغداد. وافتتح الحفل الذي اقيم في قاعة "بيتنا الثقافي" بساحة الاندلس، بوقوف الحاضرين دقيقة حداد وصمت لذكرى الفقيد الراحل. واستمع الحضور من ثم الى كلمة الحزب الشيوعي العراقي التي قدمها الرفيق مفيد الجزائري (نصّها في أدناه).

وبعده ألقت السيدة ميسون الدملوجي كلمة لجنة الثقافة والاعلام البرلمانية، تلاها الكاتب حسين الجاف الذي قدم كلمة الاتحاد العام لأدباء وكتاب العراق.

وشارك في الحفل الشاعر الكبير موفق محمد، الذي ألقى مقاطع مؤثرة من بعض قصائده المعروفة ورافقه عزف على العود بأنامل الفنان عبد الله البصري. ثم تحدث عن الفقيد عدد من رفاق الفقيد واصدقائه، حيث تعاقب الصحفيان المعروفان عامر بدر حسون وعدنان حسين، وتبعهما القاص محمد علوان جبر.

وكان الفقيد جمعة الحلفي قد توفي ليل

الخميس 2018/2/15 في مدينة الطب ببغداد، بعد صراع قاس مع المرض. وفي ظهيرة الجمعة شيّع جثمانه من شبكة الاعلام العراقية، التي كان الفقيد يرأس تحرير مجلتها الشهرية "الشبكة"، الى مقبرة السلام في مدينة النجف.

الفقيد الحلفي له سيرة تمتد لنحو نصف قرن في العمل الثقافي والصحافي، قضى نصفه تقريباً في مقارعة النظام الديكتاتوري. لقد باشر العمل في الصحافة عام 1973 في صحيفة الحزب الشيوعي العراقي "طريق الشعب".

ولد الحلفي عام 1952 في بغداد وتحديداً في منطقة الصرائف خلف السدة. أسرته الفقيرة هاجرت من أهوار العمارة في الثلث الأول من القرن العشرين. درس حتى الثانوية وفصُل لأسباب سياسية.

أصدر مجموعته الشعرية الأولى "ساعة ويذبل الزيتون" في بغداد عام 1976 كما أصدر مجموعة شعرية أخرى هي "ملّيت/ 1992" ومجموعة "عطر الغايب/ 2000" وكذلك رواية "مسار السنونو/ 2003" التي أعيد طبعها عام 2015. نشر العديد من الدراسات والمقالات السياسية والثقافية ومجموعة من القصص القصيرة، فضلا عن مشاركاته الطويلة في عشرات النشاطات الإبداعية والصحافية. بعد عام 2003، عاد الى العراق ليعمل في جريدة "الصباح" ثم رئيسا لتحرير مجلة "الشبكة" التابعة لشبكة الاعلام العراقي.

كلمة الحزب الشيوعي العراقي التي ألقاها الرفيق مفيد الجزائري:

وفاء للراحل جمعة الحلفي..
قامة اخرى من قاماتنا الثقافية والاعلامية، ومن شخصياتنا الوطنية ووجوه كفاحنا المدني الديمقراطي، غادرتنا يوم امس، وودعناها حزانى دامعين.
جمعة الحلفي، الصحفي والشاعر الشعبي المعروف، المناضل ضد الدكتاتورية واستبدادها وقمعها، وفي سبيل عراق الناس والحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية.. ابو زينة الصديق المخلص، والرفيق الذي بقي امينا وفيا لحزبه الشيوعي، رغم انه لم يعد منذ سنين ينتظم في صفوفه، فقدناه .. وكبيرة هي خسارتنا بفقدانه.
حين نعود الى حياة فقيدنا جمعة، ونتأملها بعقودها السبعة، من مبتداها في صريفةٍ خلف السدة، حتى المنتهى في مدينة الطب، نقول عفو الخاطر:
يا لحياة العراقي من رحلة عذاب!
يا لها من سِفر بؤس وحرمان وتشريد وامتهان.. لا ينتهي!
وحين نرجع الى ابي زينة القلب والعقل والضمير والموقف، ابي زينة الثبات والتحمل والصبر على الاذى، نقول بملء الفم:
يا للعراقي من مبدع واهب، يا له من مكافح لأجل الحق والحقيقة.. وصانع للحياة متشبث بها، يا له من ثائر ثابت يأبى الخنوع !
لقد غادرنا جمعة، لكنه لا ولن يغيب عنا، وعن مجالسنا وحواراتنا في الثقافة والسياسة والاعلام، وكل ما يشغل البال في حياتنا اليومية الراهنة، وما اكثره!
سيبقى حاضرا معنا ونحن نسعى لتحقيق ما سعى هو نفسه لتحقيقه، من حياة حرة كريمة للعراقيين في دولة مدنية ديمقراطية، في وطن عزيز ينعم بالعدل ويتطور ويزدهر، ومن عيش يليق بالبشر ويحفظ انسانيتهم ويُعليها.
سنبقى اوفياء لأبي زينة، لفكره وإرثه، وما ارسى وترك لنا اعلاميا وثقافيا ونضاليا، ولأمثولته في حب الوطن والناس والعمل من اجل خيرهم.

رواية الواقعية الجديدة: التحليق البانورامي للذات أحادية واستلابا في (حماقة ماركيز)

أ.د.نادية هناوي

مدخل/ رواية الواقعية الجديدة

إذا كانت للواقعية بوصفها مذهبا أدبيا مرحلتها التي راجت على وفقها كتابة الرواية والقصة سواء في أوربا أو في بلادنا العربية إلا إنها اليوم تشكل ظاهرة فنية في الرواية العراقية الجديدة التي عصفت بها مرحلة التحول التأريخي في الانتقال من الديكتاتورية إلى مرحلة الديمقراطية والى وقتنا الراهن.

لتغدو الواقعية في الرواية العراقية اليوم واقعية جديدة التي هي أيضا مظهر من مظاهر الرواية العربية وأحد ملامحها المميزة وما ذلك إلا لكون "الأدب الواقعي الجديد أدب النزعة الواعية والعضوية في آن واحد ذات الحتمية النابعة من الداخل نزعة الإنسان المتكامل والإبداع المتكامل"(1) وإذا كنا نعد رواية الواقعية السحرية التي عُرف ماركيز بكتابتها هي التجسيد للخارق والفانتازي؛ فإن الواقعية الجديدة يمكنها أن تجمع السحرية والخارقية واللامعقول جنبا إلى جنب المتضاد والواعي واليومي مما هو متجسد أصلا في تفاصيل اليوم العراقي المعيش والراهن.

وهذا ما جسدته الرواية التي ما استهانت بالواقعية السحرية إلا لكي تعلي من شأن الواقعية الجديدة مرتكنة إلى الاندماج اللانهائي بين الخيال والواقع وبما يوصل إلى درجة التيهان الذي لا حدود له.

وما معمارية رواية الواقعية الجديدة وتعددية أصواتها وتوظيف الوعي الإنساني بالذكريات والمشاعر والاستباقات والأوهام والتخيلات والحدس والرؤية والبصيرة إلا من أجل ترميم عرى الانتماء للزمان والمكان وتعزيز وعي الإنسان بالتجربة الحياتية، والهدف استعادة الحرية الإنسانية التي كبتها واقع هيمن عليه الشر بكل وسائله ليظل الإنسان هو الحلقة المفقودة في دوامة هذا الواقع.

وتراهن الواقعية الجديدة في رواية "حماقة ماركيز"(2) على لا منطقية رؤية العالم حيث "يوجد نوع ما من الجنون في تلك الرؤية تتسبب في أن أكون.. متجها إلى العالم نفسه بواسطة تلك الرؤية.. والوجود

بكل اتساعه محدد برؤية للوجود ليست وجودا بل هي لا وجود. ان من يتصادف حقيقة مع النظرة ويوجد حقيقة في موقع الرؤية هو حقيقة واقعة".(3)

ويشكل الحلم قلب هذه الواقعية كنوع من الاغتراب الذي يجعل الخيال مخترقا الواقع بعقلانية مريرة وقاسية حيث الذكريات والأفكار والمشاعر توجد خارج الوعي الظاهر وأكثر من ذلك فهي تظهر للإنسان لا على أنها سلسلة؛ بل على أنها تيار فيضان(4)

وما هذا التناظر الذي تعمد الكاتب عواد علي صنعه بين واقعية ماركيز السحرية وواقعية سلمان البدر الجديدة إلا وجهة نظر ثقافية تريد الاستهانة بالواقعية السحرية واجدة فيها حماقة كنوع من الانتقاد الثقافي الذي "يتأسس دائما على منظور ما يرى الناقد من خلاله الأشياء.. ويعتقد بتفسير أفضل للقضايا".(5)

ويشغل التمرد موقعا مهيمنا وطاغيا في رواية الواقعية الجديدة إذ ما عادت وظيفة الرواية تفسير العالم وتوثيق الصلة به؛ بل هي رواية معبرة لا مفسرة وهي تعري العالم لا تجمله والأسئلة في الرواية تتناسل وتثور وتتكاثر..

وقد يستفحل الشك واللايقين بالوجود وبالإنسان بقصدية إضفاء مزيد من الإغماض والشك والاستفهام، وكان لافريتسكي قد اعتقد أن "أفضل الأعمال من وجهة نظر النقد الواقعي هي تلك التي يتسم فيها العنصر الدراماتيكي بقوة خاصة ومن خلال الفعل يتم عكس الحقيقة الحياتية بصورة أحسن وبواسطته فقط يمكن إخبار الحقيقة الفنية"(6)

وبالتمرد تنطلق أجواء التغريب والفانتازيا والعبثية مجرِدة العالم من واقعيته وقيمه كما تؤدي التساؤلات الوجودية دورا تكميليا يسهم في تشظي هوية النص بدلا من أن يقوم بتعزيزه.

وما هذه التساؤلات إلا بسبب انهيار العالم ومنظوماته القيمية وثوابته الفكرية وتداخل صوره ومعلوم أن "الواقعي الواعي لا يرفض العالم إلا عندما يستثار وعند ذاك يكون الرفض جزءا من خطته فهو يدعي أنه قد بلغ نوعا من التوفيق أكثر دقة وقبولا مما بين التجريدين الفجين الواقع والخيال".(7)

والانفتاح النصي زمانيا ومكانيا وقرائيا في الرواية هو جزء من هذا التوجه والمقصود منه عكس حالة التشتت وحمى الاضطراب والفوران وهكذا وبدلا من أن ترمم الرواية تصدع المجتمع فإنها تهشم الذوات بعشرات الأسئلة التي تدمج الواقع بالحلم فتولد سردية تكوين الصورة في شكلها الطبيعي وباستخدام أسلوبها الخاص بها.(8)

وموضوعة الرواية واقعية تدور حول حب سلمان البدر لنورهان، وكيف أن الواقع بكل كراهيته وحروبه سيقف حائلا دون إتمام ذلك الحب فتتلاشى آمالهما وهذا ما عبر عنه الاستهلال الذي جاء على شكل استفهام استنكاري تهكمي (ألا يستحق الحب أن نجنّد أعمارنا من أجله بدلاً من الكراهية...؟)(9) لتكون الرواية قصة حب في زمن اللا حب.

وتتناسل الأحداث في الرواية ليكون سلمان البدر هو الشخصية الأكثر غرابة وفانتازية.. وقصته هي المحور الذي ستتم عملية سرده من وجهات نظر الشخصيات الأخرى مما يجعل الرواية متعددة الصوت

ويكون الزمن في الأغلب استرجاعيا إلى ما قبل لحظة اختفاء الجثة فتنثال الذاكرة مسترجعة الماضي بأحداثه وباعتماد تقانة الحلم "اعتدت على رؤيته في الحلم مرةً كل عام ليلة استشهاده (الثالث عشر من شباط/ فبراير)، وأتذكّره كلما وقعت عيناي على كتاب لماركيز".(10)

وأهم ما في هذه الذكريات هو ولع سلمان البدر الجنوني بماركيز وروايته التي ستكون البؤرة لتوالي خط السرد الذي سيتمرد على الواقعية السحرية مفجرا النص بالخيال وفي الوقت نفسه منخرطا في واقعية جديدة فيها الإنسان ضحية الحب والكراهية لكنه مع ذلك لا يموت بل يتجدد وهنا تكمن المفارقة التي تعتمد محاربة "قالب الرأي المألوف عن طريق دعم نقيضه".(11)

ويحمل ديالكتيك الحدس ـ لا الوهم أو الإيهام ـ سلمان البدر على أن يكون واقعيا فيستهين بالحياة التي عاد إليها فما وجد فيها مبتغاه؛ بل وجد بدلها الحماقة "لقد كانت حماقةً أخرى مني لأنني آثرت أن آتي معك إلى هذا المكان، وأطلبَ منك أن تذكّرني بما حدث لي في الحرب بدلاً من أذهب إليها". (12)

ومثلما أن لا فائدة من واقع راهن غزته العبوات والتفجيرات كذلك فإن من الحماقة أن يتم تذكر ماض مقيت استفحلت فيه الحروب والمآسي ولكن تلك الحماقة تجسدت كحقيقة أودت بسلمان البدر إلى التيهان الأبدي فعاش تارة في أجواء خيالية يذهب فيها إلى مكسيكو ويلتقي ماركيز ويسميه غابو وابنه غونزالو ويزور اكاتاكا ويلتقي بسلمى حايك وتارة أخرى يستعيد حبه لنورهان عائدا إلى الحياة بشكل لا مرئي بل حلمي فيدور بينهما حوار هاتفي ليس إلا.

وهنا يكمن الدور التعاضدي الذي يؤديه العنوان الرئيس للمتن الروائي فحماقة ماركيز هي في الحقيقة واقعية سلمان البدر الجديدة التي جعلته فريسة للأحلام والهواجس وضحية للذكريات والتساؤلات.

وما بين الحرب والاحتلال تدور شخصيات الرواية في دوامة واقعية جديدة سماتها الاحتضار والرعب والسخرية، والزمن فيها غير معروف سواء في تحركه ماضيا وحاضرا ومستقبلا أو في تغلغله ما بين الحياة والموت أو في الاستبطان ما بين الوعي القائم والوعي الممكن.

وعلى نية النزوع الواقعي تتصاعد الأحداث وتنمو الشخصيات وهي في حالة انتساب صميمي والتصاق منقطع النظير بالأرض ارابخا/كركوك المكان الأثير الذي تنشدُّ له الحيوات انشدادا واعيا يجعل الرواية تبدو كأنها رواية مكانية أكثر منها رواية درامية أو رواية حدث أو شخصية.

ولقد حققت لوحة الغلاف دورا موفقا في توكيد مغزى الرواية متضافرة مع العنوان والمتن عاكسة نزعة الانتماء الجسدي للمكان فلقد بدا الالتصاق الحميمي للجسدين ببعضهما ـ المذكر بهيأته الصلبة الصلدة والمؤنث بهيأته البضة اللدنة ـ وكأنهما كيان واحد تماما كسلمان ونورهان التي ضحت بقلبها في سبيل أن تعيد سلمان إلى الوجود فكانا كروحين في جسد واحد وهذا ما زادهما قوة واندماجا.

ولعل صلادة أرضية اللوحة وخلوها من أية إشارة للحياة والجمال ستتضاد مع غائية هذا الالتصاق وتدفع إلى التساؤل عن

الدافع وراء هذه الانتمائية الحميمة للمكان التي اتخذت وضع الجلوس وهذا التساؤل هو بالضبط ما قصده الكاتب حين اتخذ من الواقعية خطا كتابيا لرواية أراد من خلالها تبيان فحوى الحماقة التي وقع سلمان البدر في شراكها حين هام بسحرية ماركيز فخيب الواقع حلمه أولا وحين وقع ضحية حب نورهان فحال الحلم دون تحققه الواقعي آخرا.

ولقد كان سلمان البدر بل قيام الحرب معجبا بماركيز مهووسا به يتلقف أفكاره ويعيد طروحاته لكنه في أثناء الحرب صار ابنا لماركيز من نوع خاص. أما في ما بعد الحرب والاحتلال فانه لم يعد كذلك وقد كُتب عليه أن لا يسطِّر على الورق خيالات الواقع بل أن يطاوع واقعية المتخيل المعيش عمليا.

وبالتقريب ما بين شخصيات الرواية وشخصيات ماركيز تتضح قصدية الكاتب في توكيد عجز الواقعية السحرية مقابل صلاحبة الواقعية الجديدة في أن تطاوع الزمن بلا نهائية فلا مئة عام من العزلة ولا حب في زمن الكوليرا يمكنها أن تفسر الواقع في زمن اللاواقع. ولعل الذي جعل سلمان البدر متهيئا مسبقا لان يعيش في واقع اغرب من الخيال هو قراءاته لروايات ماركيز التي منحته خبرة وزودته بالدربة التي تؤهله للعيش والمطاولة بلا هوادة.

ولهذا نجا من الهجوم والرصاص الذي تعرض له في الحرب كما نجا في زمن الانفجارات والعبوات وسيظل ناجيا لان ماركيز هو العراب الذي رسم لسلمان حياته ودله على قدره ليعيش الرواية لا أن يكتبها.

ولم يكن التحايل السردي ممثلا بالتقرير الطبي الذي استعمله الكاتب في خاتمة الرواية إلا وسيلة للالتفاف على النهاية المتوقعة في أفق انتظار القراء وهي موت سلمان ونورهان معا ولكن الذي حصل خيّب المتوقع وجعل بدله ختاما آخر هو اقرب إلى الحلم وفي الآن نفسه أكثر التصاقا بالواقع فكان أن صار سلمان البدر هو الروح المحلقة ببانورامية على واقع استلب جسديته وقمع إرادته ليكون صنيعة القدر لا صانعه.

سمات الواقعية الجديدة في (حماقة ماركيز)

لما كانت رواية حماقة ماركيز تمثل التعاطي مع واقعية جديدة؛ فإن من المؤكد أن لهذه الواقعية سمات أو ملامح تؤيد ما قدمناها في المدخل الذي تقدم آنفا والهدف هو توكيد المحصلة التي انتهينا إليها وهي أن سلمان البدر أنموذج الواقعية الجديدة لذلك التحليق البانورامي للذات أحادية واستلابا..

تعددية الصوت السردي / السرد في الرواية لعبة ذات تعددية لسانية وصوتية تنتج وجهات نظر متعددة مما يسميه باختين ترقيش اجتماعي فني للكلام أو التقنيع اللفظي ve-bal masking فتبدو الرواية بسبب تنوع أشكال الكلام كاوركسترا من الأصوات الاجتماعية بينها روابط وعلاقات(13) وتبزغ في رواية حماقة ماركيز عمومية السرد المتعدد الأصوات في واقعية التيه التي تطحن حياة الناس ليعيشوا في دوامة لا قرار لها مكانيا وزمانيا وعلى الرغم من تعدد الاثنيات ووجود الوعي الثقافي عند

الشخصيات إلا أنها تظل عاجزة عن فهم الواقع فلا تجد مفرا من الانخراط في أتون دوامته.

ولعل هذا هو ما حدا بالمؤلف إلى تجاوز أسلوب الصوت الأحادي الذي سماه باختين التخارج(14) ليتجه صوب الصوتية المتعددة التي "ليس فيها للمؤلف أي أفضلية على البطل وليس هناك أي فائض دلالي يميزه عنه"(15) وباستعمال هذا الأسلوب الروائي يستحيل مسك الحقيقة المطلقة التي ستغدو غير ممكنة بالسخرية التي يكون استبعادها هو الحماقة بعينها كما قال تودوروف: "ومن ذا الذي يجرؤ اليوم على إعلان الحقائق؟ ان استبعاد السخرية يعني الاختيار المتعمد للحماقة حصر الذات وتضييق أفقها".(16)

وبحسب تودوروف فان المظهر اللفظي أو الصوت السردي سيفضي إلى الرؤية أو وجهة النظر التي هي بالأصل "رؤيتان مختلفتان لواقعة واحدة تجعلان منها واقعتين متمايزتين ويتحدد كل مظهر من مظاهر موضوع واحد بحسب الرؤية التي تقدمه لنا"(17) لذلك تتعدد وجهات النظر بتعدد الأصوات التي تعكس تعددية الوعي الذي فيه تعددية الناس وتعددية الحقيقة.

والرواية تحكي قصة سلمان البدر من وجهات نظر الشخصيات الساردة (مراد ونورهان وفرهاد والماس وصوفيا) الأمر الذي يؤدي إلى تكرار مشاهد ومواقف أكثر من مرة في الرواية مما يسمى بالسرد المتكرر كتكرار المقطع الذي يصف فيه سلمان البدر جمال نورهان أو مشهد اللقاء في المقهى الذي يؤدي تكراره في الرواية إلى رؤية ممتدة وعميقة داخليا وخارجيا تعكس انتمائية الشخصيات للمكان.

تقويض المألوف بالأحلام/

يعود مصطلح تقويض المألوف إلى منظِّر الأدب الروسي فيكتور شكلوفسكي الذي رأى ان إحدى وظائف الفن الأكثر أهمية هي أن يواجهنا بصدمة لنرى الأشياء المألوفة على نحو جديد وما غاية الفن إلا أن يعطينا إحساسا للموضوع بوصفه مرئيا لا بوصفه مدركا وهذا ما تسعى إليه رواية الواقعية الجديدة.

وأن تيار الوعي الداخلي هو الطريقة الواقعية الأكثر أهمية في تجلية التجربة الموضوعية مضافا إليه الحدس الماهوي ـ بحسب هوسرل ـ إزاء لا عقلانية النظام وتحولات اللحظة التاريخية وتفاعل الأفراد مع الواقع المعيش.

ويشكل الحلم معطى روائيا وثيمة مهيمنة تتدخل في تشكيل التداعي الحر بوصفه أحد مسالك تيار الوعي فيتعطل الزمن عن أداء دوره في المضي بالأحداث نحو الإمام أو الخلف أو الوقوف عند نقطة معينة، أما المكان فباستثناء توكيده للشعور بالانتماء فانه لا دور له في التوجيه أو التحديد.

وبالتخيل والتداعي والتذكر يتم تدخل الحلم الذي يتماهى في السرد بقصدية البوح بمزيد من غرائبية الهواجس والاعترافات خوفا وحرمانا وضجرا ورعبا وعزلة وهذا ما يولد التناسل اللامنتهي لواقعية سلمان البدر وعدم معقوليتها أيضا.

ويظل الحلم ملاصقا لمراد فيكون الماضي مندرجا في الحاضر والمتخيل لا يفترق عن الواقع والعودة من الموت إلى الحياة لا غبار

عليها ما دامت الحياة تفضي إلى الموت وبعبارة مراد (مسألة بديهية)(18)، وهو المتأثر بالبرتو مورافيا الروائي الايطالي تماما كما كان سلمان مولعا بماركيز وشخصياته الأخاذة والغرائبية.

ومع أن مرادا يدرك الفارق بين الحلم والواقع؛ إلا إنه يظل سادرا في أحلام وكوابيس عديدة تتناسل بلا منطق يحكمها حتى يتحول حلمه إلى هلوسات غامضة وأوهام وأصداء لعدم الإرادة على التغيير وهذا ما يعصف بمنطق الزمان والمكان(19) ''بدت لي الحديقة في الحلم كأنها شريحة من مدينة عصرية مترفة، بينما هي في الواقع فضاء مهمل تعشعش فيه القاذورات''(20) وتختزل العبارة التي يفتتح بها الفصل الأول أزمة مراد ''يلزم القليل لتحويل الواقع إلى حلم لكن يلزم الكثير لتحويل الحلم إلى واقع''(21) ولعل هذا بمثابة استباق لمآل مراد الذي سيظل نهبا للأحلام وهواجس الذاكرة ''وظل طوال الحلم يذهب ويجيء على سطح الدار وهو يروي لي أحداث روايته ببطء، متذوقاً بهجة كلماته، ويُطلق بين حين وآخر زمجرةً كأنه يخاصم شخصياتها''(22) والهواجس شكل من أشكال الحلم الذي به يكابد مراد لوعة الواقع ''وتتثال في رأسي هواجس شتى: ''السقوط في الماء.. الإفلات من قبضة الحبل.. التشظي.. اللوح تلو اللوح.. شظايا بحجم الكف.. كل شظية تستقر في موضع، فترتوي مساماتها من وحل الأرض.. كيف يحدث هذا؟(23)

وتشكل الذاكرة سبيلا يستطيع به الإنسان الانتقال من زمن إلى آخر أو التحول بالسرد من ضمير الأنا إلى ضمير الانت على شكل خطاب حلمي ليغدو انثيال الذاكرة الواقعي ممتزجا بفانتازية الخطاب الذي يوجه لجثة سلمان ''أجلسناك في المقعد الخلفي، وكان الوحل يغطي كفنك. أنا كنت كتلةً ملتهبةً من الغضب، وذاك الجالس خلف المقود، كجذع شجرة متآكلة، مسكوناً بالإثم، كل نأمة تصدر عنه تفضح إحساسه بالخوف''(24) وبتكرار استعمال فعل التذكر يتعالى تصاعد الحبكة ''وأتذكّر قبل ذلك أنني نُقلت إلى سريّتكم حديثاً، لكن لا أدري من أين، ربما من مركز التدريب''(25)

ومن أساليب تقويض المألوف استعمال المونولوجات والحوارات الصامتة والخارجية (26) والبغية إحداث الصدمات والتغايرات ما بين ماض ومستقبل مما يولد التشويش والاختلاط كما في استرجاع مراد لما وقع له مع سلمان الجثة ''فوجئت بصوت أجش مفعم بالحرارة، كجسد فتاة نائمة، ينساب خلف ظهري. كان ذلك صوتك، وقد تغير كثيراً، بل لم يكن يشبه صوتك وأنت حي على الإطلاق، حتى أنني شككت في أنك سلمان..''(27)

أو هذا المقطع الحلمي الذي جعل مرادا يستبطن دواخل سلمان وهو ميت وينقل إحساساته ''كل ما كنتَ تعرفه أنك كنت منبطحاً مثل الجميع، وقد جفّ لسانك من الغبار والعطش، وفجأةً وجدتَ نفسك منتصباً على ساقيك، مشاعاً كشجرة في رصيف مزدحم، فشعرتَ بدوار يطحن رأسك، وصار الفضاء منفياً من حولك كأنه غير موجود. .''(28)

وقد يتدخل مراد بوصفه ساردا ذاتيا في استبطان المسرودات بطريقة أنا الراوي الغائب ''بدا لي الكناني ناقماً أكثر منا على

الحياة العسكرية والحرب، لكن من يلومه على موقفه؟ لقد سلخت هاتان الآفّتان، حتى ذلك الحين، سبعة أعوام من شبابه"(29)
ويسهم الحوار الصامت في تصعيد الحبكة الدرامية "سكبت قليلاً من الماء في قدح وابتلعت حبة مسكّن، ورحت أفكر في محتوى الحلم، محاولاً تفكيك رموزه، لكني لم أفلح"(30)
وتوظف المشاهد البانورامية والتصويرية "بعدما خرجنا من قلب البصرة أخذت عجلات السيارة تلتهم الطريق، غير مكترثة برشقات الماء التي تسكبها السماء، ولا بصفعات الريح القوية على هيكل السيارة"(31)
وفي إطار توظيف تيار الوعي يتم استعمال تقانة المونتاج أو التوليف الذي هو "مجموعة الوسائل التي تستخدم لتوضيح تداخل الأفكار أو تداعيها وذلك كالتوالي السريع للصور أو وضع صورة فوق صورة أو إحاطة صور مركزية بصورة أخرى تنتمي إليها"(32)
والغاية من توظيف المونتاج هو تقويض المألوف بهدف السخرية والتهكم فضلا عن كون قيمة المونتاج تكمن في حقيقة أنه يدخل في عمله الخلاق انفعالات وعقل المشاهد فالمشاهد مجبر على أن يسير مواصلا نفس الطريق الإبداعي الذي قطعه المؤلف في إبداع الصورة.(33)
وقد دفعت المنتجة في الرواية موضع الرصد إلى التوالي الخطي للسرد عبر التجميع والتركيب واللصق والقص ليتشكل الشريط السينمائي أما بشكل ممتد ولا نهائي في اللحظة الحاضرة ومن ذلك مثلا اللحظة التي تجمع سلمان العائد من الموت بمراد صديق الجبهة في زمن الاحتلال والانفجارات لتكون وجهة نظر مراد هي خاتمة القصة التي يتم تقديمها في الفصل الأول استباقا وعلى خفاء فيسرد قصة سلمان الغرائبية "التفتُ لا شعورياً إلى سلمان فوجدته هادئاً لا يتزحزح، مستغرقاً في التحديق إلى القلعة بعينين هائمتين، لكزته في خاصرته فلم يبدِ أي ردة فعل، أمسكت بذراعه وهززتها، على مهل أولاً ثم بعنف، لكنه بدلاً من أن يلتفت إليّ هوى على وجهه إلى الأرض، مثل دمية خفيفة دفعتها الريح، ثم اختفى فجأةً، مخلفاً وراءه على العشب ورقةً صغيرةً يخاطبني فيها:
"صديقي مراد،
ظننت أن الحرب انتهت، لكنّ ظني خاب"(34)
أو على شكل لقاء غير عابر يجمع نورهان بسلمان ويكون بينهما التلفزيون الذي يقطع اللقاء الحميم بمذيع عابس يتلو بيانا عن هجوم إيراني مع فيلم تسجيلي "قطع التلفزيون خلوتنا الغرامية، فجأةً، بظهور مذيع عابس صارم الوجه، مقطّب الجبين،.. وما إن انتهى الخبر حتى ظهر فيلم تسجيلي عن معارك سابقة، يصور جثثاً منكفئةً على الأرض لجنود إيرانيين، تصحبه مارشات عسكرية، وتعليقات غرائزية، وقصائد حماسية تثير نزعة الانتقام".(35)
ومثله مشهد الجرحى الذين عصف بهم انفجار سيارة وهم في مشفى فيه جهاز تلفزيون معلق يبث أغنية ثم يظهر مذيع بخبر عاجل عن عملية دهم وتفتيش واعتقال أشخاص من تنظيم القاعدة وبعد ذلك تعود الفنانة للغناء "قطع جهاز التلفزيون، المثبّت على الجدار في غرفتها، بث أغنية راقصة لهيفاء وهبي، وظهر مذيع القناة المحلية

بوجه بشوش ليقول: صرّح مصدر مسؤول في شرطة أرابخا، اليوم الأربعاء، أن قوةً من الشرطة قامت بتفكيك واعتقال خلية مسلحة تابعة لـ "تنظيم القاعدة".. انتهى التصريح، والآن عودة إلى الفنانة هيفاء وهبي"(36) وهذه المنتجة ليست افتعالية بقدر ما هي انعكاس لواقعية معيشة.

الانتماء للمكان

لعل من سمات رواية الواقعية الجديدة الالتصاق الانتمائي بالمكان وفي الرواية موضع الرصد تكون ارابخا/ كركوك عينة لعراق مصغر يضم مختلف الاثنيات المختلفة الجنوبية والسريانية والعربية والكردية.

وباستعمال الوصف تتوكد ثيمة الانتماء للمكان "كانت أشجار الحديقة مشذّبةً ومنسّقةً بمهارة، وممراتها مرصوفةً بالطوب الرملي الملون، وفي وسطها تنتصب نافورة دائرية مزينة بالفسيفساء، وعلى جنباتها ملاعب بلاستيكية للأطفال."(37) وهذه الانتمائية تجلت في شخصيات الرواية جميعها فلم تكن هناك شخصية مضغوطة أو غير مرتبطة بالأرض بل كلها كانت منتمية لارابخا شاعرة بامتداد جذورها داخلها "أنت مثل أمي، تقول لو أعطوني قصراً في المنطقة الخضراء لما تركت حي بريادي"(38)

ومثلما تنتمي الشخصيات إلى المدينة بكلها فإنها تنتمي إليها ببعضها شوارعها وقلعتها وأسواقها وأحيائها ومقاهيها(39) وعلى الشاكلة نفسها يتجلى الانتماء المتأصل بالأمكنة الأخرى "وصلت إلى البصرة قبل غروب الشمس، فوجدتها تنبسط إلى أقصى امتداد البصر مع انتشار رغوة مياه الأمطار في الشوارع، وحين خيّم الليل صار من الصعب تحديد أبعادها.. تتلوى كالقطيفة الناعمة على جنب الشط. تلك كانت المرة الأولى التي أجوس فيها مواضعها، فانتابتني رغبة عارمة في أن أغوص في خلاياها"(40)

مما يدلل على أن شخصيات الرواية وان انحدرت من وسط العراق وشماله إلا أنها أيضا تجد في المدن الجنوبية الانتماء نفسه الذي تشعر به نحو أماكنها الأصلية..

ديالكتيك التساؤل

الديالكتيك هو التفكير المحسوس بالوجود حيث تتجلى للذات المرئيات بشكل آخر "وأن واحدا من واجبات الديالكتيك كونه فكرا لموقف وفكرا في صلة بالوجود هو تحريك الحقائق المغلوطة وإنكار التسميات المقطوعة في خبرة الوجود والمفرغة.. ومن الضروري له ان يكون نقدا ذاتيا لنفسه" المرئي"(41)، والغاية من ديالكتيك التساؤل هو السخرية من الأشياء "انه قوة ماكرة خلف ظهرنا تقلقنا ولكن ما هو أكثر من ذلك أن لها نظامها وعقلانيتها".(42)

وتزخر الرواية بتساؤلات لا تتطلب أجوبة لأن في داخلها تكمن أجوبتها "فالتساؤل الفلسفي ليس مجرد انتظار بسيط لمعنى يأتي فيغمره وسؤال ما هو العالم أو على الأحسن ما هو الوجود هي أسئلة لا يمكن أن تصبح فلسفية إلا إذا كانت تستهدف.. حالة الأشياء وتستهدف نفسها كأسئلة.. تستهدف معنى وجود ووجود معنى"(43)

ويوظف الروائي ديالكتيك التساؤل في

مواضع كثيرة في الرواية منها هذا المقطع على لسان نورهان "كان في داخلي سؤال يتضخم كلما قطعت زقاقاً لأدلف إلى آخر: "هل أنا امرأة في كامل وعيها، أم مجنونة كما قالت خالتي؟"(44)

ويسأل مراد صوفيا سؤالا تهكميا: "هل يكره ماركيز القتل؟ ترى ماذا كان سيفعل لو انه عراقي؟"(45) وقد تفقد الشخصية الإحساس بجدوى طرح الأسئلة "ما جدوى ان اسأل في زمن الخراب؟"(46)

وتتواتر أسئلة مراد عن واقع كالحلم وحلم كالواقع "فيما رأسي يغلي بتساؤلات وخواطر حارقة: "هل يُعقل أن سلمان بُعث حياً؟ كيف أصدّق ذلك؟ يستشهد في الحرب، وتختفي جثته على نحو غامض منذ سنوات بعيدة ثم يعود إلى الحياة ثانيةً؟ إنه أمر يوقف العقل!"(47)

وما بين تغيير اسم المستشفى ووقوعه بالقرب من الكنيسة تتساءل نورهان "على التل الذي يشرف عليه من جهة الشرق تشمخ "الكنيسة الحمراء"، ماذا يعني ذلك؟ هذا السؤال ما كان ليتبادر إلى ذهني لولا تغيير اسم المستشفى"(48) وتتعالى في الفصل الأخير التساؤلات عند نورهان "فرفعت رأسي وتساءلت بصوت مرتفع تناهى إلى سمع السائق:- لماذا تدير لي ظهرك يا ربي؟ أليس هذا منتهى القسوة؟(49) وقد ترد تساؤلاتها على شكل مناجاة "يا إلهي، أي يوم عصيب هذا؟ لماذا تفتح لي باب الأمل ثم تغلقه في وجهي؟ ماذا فعلت كي تعاقبني بهذه الطريقة؟"(50)

وتثير رؤية مراد لمشهد الصبي الذي كادت أن تدهسه إحدى الدوريات الأمريكية في السوق الكبير تساؤلات تمقت الاحتلال كونه يستخف بنا "يكفي القليل من الحكمة للتفكير في الأمر الآتي: لقد شيّدوا في المنطقة الخضراء أضخم سفارة في العالم، إنها أكبر بستة إضعاف من مجمع الأمم المتحدة في نيويورك.. فكيف يصدق إنسان عاقل أنهم شيّدوا مثل هذه السفارة الأسطورية في بلد يدّعون بأنهم سيغادرونه؟"(51)

وهكذا فان التفكير في ما يجري حولنا هو معرفة وفلسفة ومنطق وخبرة فيها نرى أن ديالكتيك الوجود والعدم ليس إلا توكيدا للجوهر الخالص للوجود والنقي الخالص للعدم ..(52)

التعالقات النصية

يشكل التناص العصب المركزي في الرواية الذي ينفتح عبر شبكة المتعالقات من وقائع واساطير وأسماء روايات ولاسيما روايات ماركيز ولان الزمن هو زمن الكراهية لذلك تطول مدته بلا نهاية قريبة تلوح في الأفق فلا مئة عام يمكنها أن تروي واقعية مجتمع، بل قد تكون هذه المئة من الضآلة ما يجعلها مجرد حماقة لا أكثر.. وما هذا التعالق القصدي مع رواية ماركيز إلا "وجهة نظر تعطي إشارة عامة محددة عن السمة التي تتصف بها القصة عموما"(53)

ولا ترمم التعالقات بنية النص بل تشتتها والمراد من ذلك التعبير عن انهيار الزمن الذي هو انهيار العالم ولذلك نجد سلمان لا يجد في عودته للحياة أية جدوى فيفضل الانزواء والذوبان في لجة الهذيان والفصام ..

وكون التاريخ بمثابة إحلال أو تصحيح أو إبداع أو تطبيع أو دوامة ثابتة شاملة للمعنى

لذلك ترد في الرواية تناصات تاريخية تتعلق بتاريخ ارابخا وبلدة ديانا وتاريخ الكنيسة الحمراء ودور محمد الراوندوزي في قتل المسيحيين السريان(54) وهناك تعالقات شعرية كثيرة في الرواية (55) من منطلق أن "النصوص غالبا ما تستعار بوعي أو بدون وعي بعضها من بعض"(56) ناهيك عن كون الشعر يحقق التكثيف البالغ للشخصيات مع الإيجاز الذي يجد متسعا للرواية في إطار صفحة واحدة.(57)

وتوجد تناصات من نوع آخر كالتناص مع طقس زيارة مرقد بغدة خاتون أو التناص مع ملحمة كردية والتناص الأسطوري مع ميدوزا(58)، ناهيك عن تعالقات كثيرة مع شخصيات روايات ماركيز يكشف عنها الروائي نفسه فمثلا أن اسم صوفيا مأخوذ من اسم سانتا صوفيا بيدال إحدى شخصيات رواية مئة عام من العزلة التي تزوجها اركاديو بوينديا وأن صديقها فادي ميخائيل يشابه موريشيو الذي أحبته ميم في تلك الرواية(59) كما أن تمني سلمان كتابة رواية غرائبية عن حياة الكولونيل الانجليزي لجمن ومقتله في ثورة العشرين إنما هو تناص مع ماركيز الذي كان قد كتب عن كونيلات أكثر رعونة من لجمن في رواياته(60) وهناك تناص قصصي ما بين قصة موت معلن وقصة سلمان وهو يحدث نفسه ميتا "هل كنتُ أنانياً لأنني لم أكتب لها شيئاً قبل موتي؟ قل عني يا صاحبي ما تشاء، لكني أريد الآن أن أكفّر عن ذنبي، فابحث عنها، ستجدها في بيت عتيق من بيوت القلعة".(61)

وما وجود الترابط بين نصوص ماركيز والرواية إلا بمثابة اشتغال إدراكي ـ يسميه باختين الاستعارة النصية ـ لم يحد الروائي بقصدية عن اعتماده في الرواية كما لا ننسى أن الحاشية قد حققت تعالقا نصيا داخليا مع المتن من خلال تفسير معاني الكلمات أو توضح أسماء الأعلام أو تاريخ الشخصيات.

فهرس الاحالات

1 - في سبيل الواقعية، تأليف أ. لافريتسكي، ترجمة جميل نصيف، مراجعة الدكتور حياة شرارة، دار الحرية للطباعة، بغداد،1974/ 405.

2 - حماقة ماركيز رواية، عواد علي، دار فضاءات، عمان، طبعة أولى، 2014.

3 - المرئي واللامرئي، تأليف موريس ميرلوبونتي، ترجمة د.سعاد محمد خضر، مراجعة الأب نيقولا داغر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1987 /76.

4- ينظر: تيار الوعي في الرواية الحديثة، تأليف روبرت همفري، ترجمة محمود الربيعي، دار المعارف، طبعة ثانية، مصر، 1975/20-21.

5- النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة، تأليف آرثر ايزابرجر، ترجمة وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، طبعة أولى، 2003/ 38

6- ينظر: في سبيل الواقعية /409.

7- موسوعة المصطلح النقدي، تأليف ديمين كرانت، ترجمة دكتور عبد الواحد لؤلؤة، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1980/ 75

8- ينظر: صنعة الرواية، تأليف بيرسي لوبوك، ترجمة عبد الستار جواد، المركز العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 1981/ 229

9- الرواية /7
10- م .ن/ 9
11- المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، وليم راي، ترجمة د.يونيل عزيز، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1987/ 194.
12- الرواية/ 29
13- ينظر: النسيج اللفظي في الرواية ميخائيل باختين، ترجمة صبحي حديدي، مجلة الكرمل فصلية ثقافية تصدر عن مؤسسة بيسان للصحافة والنشر، فلسطين، العدد17 ، 1985 /161.
14- التخارج" علاقة غير متناسقة من خارجية وفوقية تحتم فوقية الكاتب على الشخصية كمعيار لقانون جمالي ينظر: نقد النقد رواية تعلم، تزفتان تودوروف، ترجمة د.سامي سويدان ومراجعة د.ليليان سويدان ص76 - 77
15- نقد النقد رواية تعلم /77
16- م .ن /78
17- الشعرية، تزفيطان طودوروف، ترجمة شكري ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر ،الدار البيضاء، المغرب، طبعة أولى، 1987/ 51
18- ينظر: النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة/73
19- موسوعة المصطلح النقدي الواقعية/ 66-67
20- ينظر: الرواية / 9
21- ينظر: أنماط الرواية العربية الجديدة، د.شكري عزيز الماضي، عالم المعرفة، الكويت، 2008/192.
22- الرواية /20
23- م .ن/ 46
24- م .ن/ 17
25- م .ن/ 22
26- م .ن/ 23
27- م .ن/ 17
28- ينظر: م .ن/ 87
29- م .ن/ 23
30- م .ن/ 25
31- م .ن/ 13
32- م .ن/ 29
33- م .ن/ 22
34- النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة /72
35- ينظر: م .ن/ 77
36- الرواية / 28
37- م .ن/ 37
38- م .ن/ 61
39- م .ن/ 19
40- م .ن/ 40
41- ينظر: م .ن/ 12
42- م .ن/ 21
43- م .ن/ 89
44- المرئي واللامرئي/91
45- م .ن/ 112

46- الرواية / 43
47- م .ن/ 41
48- م .ن/ 43
49- م .ن/ 47
50- م .ن/ 60
51- م .ن/ 89
52- م .ن/ 88
53- م .ن/ 83
54- ينظر: المرئي واللامرئي /84
55- صنعة الرواية / 238
56- ينظر : المعنى الأدبي / 196
57- ينظر: الرواية / 79
58- ينظر: م .ن/ 10
59- ينظر: م .ن/ 13و75
60- النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة/49
61- ينظر: الأفكار والأسلوب دراسة في الفن الروائي ولغته، تأليف أ.ف تشيتشرين، ترجمة د.حياة شرارة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، د.ت/ 115

الرجع البعيد
بين تقنية الإيحاء وعملية التطهير

صباح هرمز

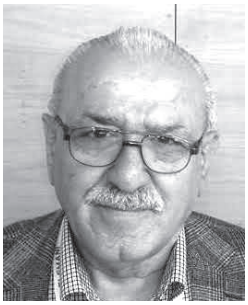

كتب فؤاد التكرلي روايته (الرجع البعيد) عام 1965، أي بعد مرور عامين أو ثلاثة على الفترة التي شهدت العراق، أحداثا كارثية في زمني قاسم والبعث، تحديدا بين عامي 1962و1963، جاعلا من هاتين الفترتين، خلفية لسرد أحداثها، وجسرا لفعل شخصياتها، في سعي منه لإيجاد الشكل الذي يتواءم مع مضمون الرواية.

يدور مضمونها حول عائلة، مستواها المعيشي دون المتوسط، إن لم يكن فقيرا، وتعاني من مرض الابن (عبدالكريم) والطالب في الكلية، جراء موت صديقه (فؤاد) في حادث دهس السيارة، والابنة (مديحة) بتخلي زوجها عنها، والابن (مدحت) الموظف بهجرته لعروسته (منيرة) في ليلة الزفاف، بعد أن اكتشف أنها غير باكر. وتتكون هذه العائلة بالإضافة من الأب والأم، وابنيهما (مدحت) و(عبدالكريم) من الجدة العجوز، والعمة، وابنتهما (مديحة) التي جاءت تسكن في حي (باب الشيخ) المعروف بشعبيته مع عائلتها الكبيرة وبمعيتها ابنتاها الصغيرتان (سناء) و(سهى) وذلك بعد أن تخلى زوجها (حسين) عنها لأسباب غير معروفة، ناهيك عن أم منيرة وابنتها المعلمة اللتين، اضطرتا مغادرة بعقوبة، وجاءتا تسكنان في دار أبي مدحت، لكون أم مدحت شقيقة أم منيرة. وليس لأم منيرة في بغداد معارف أقرب من أم مديحة.

في هذا الجو العائلي المكتظ والمتأزم، تدور أحداث هذه الرواية، متجاوزا معناها حدود العائلة بالترميز الى معاناة الشعب العراقي، عبر تضييق الخناق عليه، من لدن التقاليد البالية من جهة، والحكومات المتعاقبة على دست الحكم من جهة أخرى. الأول من دون معرفة الأسباب، والثاني للتناحرات القائمة بين الأطراف السياسية.

وتكاد تنحو معاناة الشخصيات الثلاث الرجالية في المنحى نفسه، والشيء ذاته بالنسبة لمعاناة العناصر النسائية الثلاث، فالفتاة التي أحبها فؤاد ومات من أجلها، تعاني نفس معاناة مديحة ومنيرة، ولكن بشكل آخر، بالرغم من أن المؤلف، لم يركز عليها، ولا على فؤاد، بقدر تركيزه على عبدالكريم، مطلعا المتلقي على معاناتهما من خلاله.

فإذا كانت معاناة الطرف الأول (الرجالية)،

تكمن بطهارة بكارة الفتاة، فانها في الثاني (النسائية) تكمن، بتخلي الزوج عنها دون معرفة الأسباب، أو حتى بذل أدنى جهد لابلاغها الخروج عن حياتها، كما في هجرة حسين لزوجته، وهجرة مدحت لمنيرة ومرض عبدالكريم لموت صديقه، اثر اكتشاف الفتاة التي يحبها أنها تعمل في بيت دعارة.

وارتأى الراوي أن يعمد الى ترقيم أجزاء روايته، بدلا من وضع عناوين لها الى نهاية رقم (11)، حيث يبدأ من الرقم (12) بوضع عنوان لهذا الجزء، (الزخم والبقاء) الى جانب وضع هذا الجزء تحت تسلسل (1)، والجزء الذي يليه بالترقيم والعنوان نفسه، وتحت التسلسل (2). كما نزع الى سرد الأحداث في كل جزء من الرواية الى إحدى الشخصيات، لتتعدد الأصوات فيها، ويمنح شخصياته حرية إبداء الرأي، وعلى ضوء هذا التعدد للأصوات، يؤسس المتلقي موقفه منها، من هذه الشخصيات. باستثناء الجزء الأول الذي يقوم الراوي بسرد الأحداث. لذا فان الشخصيات الرئيسة كعبدالكريم ومدحت ومديحة وحسين ومنيرة، يسردون الأحداث في أكثر من جزء أو أكثر من مرة.

لتكوين التوازن بين مضمون الرواية وشكلها الفني، مضمونها القائم على التمرد من قبل الرجل على المرأة، وإستغلال ضعفها، إعتكازا على التقاليد، وإستقواء بالسلطة، يلجأ المؤلف الى إستخدام أسلوب التقابل المبني على التناقض في بناء هيكلة روايته ومعماريتها الفنية (الشكل)، باعتبار أن المضمون يسير في الاتجاه نفسه.

يتجلى هذا التقابل المبني على التناقض، بغض النظر عن كون الجنسين، الذكر والأنثى، لا يجمعهما جامع بايولوجيا، في مبادرة إنجذاب الذكر للأنثى، وبالعكس نفورها منه، إن لم يكن هذا الانجذاب من طرف واحد ودون علم الطرف الثاني، ومع هذا فإن الطرف الأول المتمثل بالذكر، تظهر عليه المظلومية، أو هذا ما يشعر به، كما في حالة مرض عبد الكريم، وموت صديقه فؤاد، وإغتصاب عدنان لمنيرة، إذ بالرغم من إغتصابها، ومغادرتها لمدينة بعقوبة مع والدتها، لم يرأف عدنان على حالها، وراح يطاردها حتى وهي في بغداد، وخوفا من الفضيحة، تجد مثل هذه المرأة أو الفتاة نفسها عاجزة من أن تبوح بسرها الى أقرب الناس، لا قبل الزواج ولا بعده، كمنيرة مثلا، وحتى مديحة لا تعرف الأسباب التي أدت الى تخلي زوجها عنها، وحتى إن عرفتها فهي لا تستطيع أن تجهر بها علنا.

ويتضح هذا المنحى التقابلي أكثر في بداية ونهاية الرواية. في البداية، أثناء ما تلمح مديحة زوجها حسين عائدا من الكويت، وهذه العودة إشارة الى مضاعفة بعد المسافة بينهما، لعزوفه عن العمل أولا وإنصرافه الى السكر والعربدة مرة أخرى، وفي النهاية نائيا بنفسه عن مسؤولية إعالة أسرته، ووضع حد لماضيه والعودة الى زوجته وأطفاله، وهكذا بالنسبة لمدحت أيضا الذي يموت وهو في طريق العودة الى زوجته نادما هجرتها. وحسين هو الآخر في النهاية يسعى العودة الى زوجته نادما، ولكن بعد أن يكون المرض قد نخر عظامه.

ولعل شروع الرواية بصيف حار، وعلى خطوات مديحة الوئيدة وابنتها سناء، وعودة زوجها من الكويت، في هذا الجو

الخانق، وإنتهائها بجو ممطر وبارد، وعلى إختراق طلقات الرصاص في جسد مدحت، يعمق من رغبة المؤلف بالسير في هذا الاتجاه، مفضيا الى إشاعة عملية التطهير في شخصياته، وبشكل خاص في شخصيتيه المتمردتين حسين ومدحت، ما عدا شخصية واحدة ألا وهي شخصية عدنان. لأن هذه الشخصية فقط لم تتغير، دون الشخصيات الأخرى، ما يعني أن المؤلف، أستطاع عن طريق منحاه التقابلي، أن يبث عنصر التطهير الذي قاده فضلا عن التغيير في مواقف الشخصيات، الى إنفتاح الرواية الى عدة تأويلات أيضا. وتتضح عملية التطهير هذه أكثر لدى مدحت قياسا بحسين، أثناء ما استيقظ من حلمه صارخا: (وقد رآها أمامه، وهو يعلم أنه يحلم، وشهر عليها خنجرا. كانت مستكينة مستسلمة. تلقت طعناتها المجنونة تمزقها... لم تمنعه من إكمال عمله. كانت تلمسه بتفهم وحنان. وصرخ متألما..). مشبها مدحت بعطيل، ومنيرة بديزدمونة، بشرقية عطيل وندمه، وبراءة منيرة وإخلاصها لمدحت، ولبلوغ شفرة هذه المقارنة بينهما، بين عطيل ومدحت من جهة وبين ديدزمونة ومنيرة من جهة أخرى، يعززها بجملة: (أنزل يديه. فتش في جيبه عن منديل. مسح وجهه ورقبته) ذلك لأن هذه القطعة الصغيرة من القماش (المنديل) في مسرحية عطيل، هي التي دفعت بعطيل أن يقتل ديزدمونة، يقابلها فض غشاء بكارة منيرة في هذه الرواية.

ولنأي المؤلف مضمون روايته عن الوقوع في التقريرية والمباشرة، فقد انتقى له شكلا، يستمد مقومات تكوينه من أبرز التكوينات الفنية، وهو (الإيحاء). موظفا إياه في صيغتين، الصيغة الأولى باستخدام درجات الحرارة، إتساقا مع إرتفاع درجات الحرارة في فصل الصيف في العراق، حيث تبدأ أحداث الرواية. والثانية بالتعويل على اللغة العراقية الشعبية المعروفة بلهجتها المختلفة عن لهجات الدول العربية الرامية الى (التوقع)، وتكررت مفردة الحرارة خمسا وثلاثين مرة من بدايتها الى نهايتها، موحية في بعض المرات الى المعنى نفسه، وفي مرات أخرى الى معنى مختلف، وأحيانا الى دلالة المفردة نفسها.

وأول ما جاء في الرواية، جاء على لسان سناء ابنة مديحة في جملة: (هواية الخبز حار بيبي)، في إشارة تمهيدية الى وقوع شيء سيء لاحقا، وبعد عشرة أسطر من هذا القول، تلمح مديحة زوجها حسين، يخرج من أحد الأزقة، لتباغتها عودته السريعة من الكويت، لذا تتكرر هذه الجملة ثانية وعلى لسان سناء للتأكيد عن مدى حجم قلق هذه العودة على مديحة. وفي المرة الثالثة تأتي نفس الجملة، ولكن على لسان مديحة، وبإضافة جملة (وشرب ماكو)، في إيماءة الى كسل زوجها وعدم قدرته على إعالة الأسرة، لادمانه على الشرب، وطلبا للراحة (عبثي).

وكلما تقدم المتلقي في تلاوة الجمل المقرونة بالحرارة، تزداد إحاطته بمديات معاناة شخصيات الرواية، ففي المرة الرابعة التي تأتي في الجزء الأول من الرواية في جملة (كانت عيون الموقد المشتعلة تبعث حرارة مزعجة)، تدل على أن عيون مديحة وابنتها سناء كانت تبعث حرارة مزعجة كعيني الموقد، لأن الأم وابنتها بعد رجوعهما الى البيت، كانا يبكيان. ومديحة تهمس: (ليش

ما يفرجها الله علي وعلى البنات. شلون حظ هذا حظي)!. وتمنح المعنى نفسه في المرة الخامسة التي تتكرر في هذا الجزء (صار المطبخ حارا وأحست بالعرق يتجمع فوق جبينها ويسيل تحت ثدييها).

وفي الجزء الثاني من الرواية، تأتي جملة درجات الحرارة ثلاث مرات، في الصفحات (40)، و(41)، و(44).

إن إرتجاف أطراف عبد الكريم، إقترانا بالحر المخنوق، لم يأت بفعل شعوره بالاعياء والقلق خلال نزوله من السلم، وإنما من إرسال مليحة ابنها عدنان ليسأل عن ابنة خالته منيرة، بأنهم يطلبونها في المدرسة لتعود الى بعقوبة. ذلك أنه ليس بمقدوره معاركة العالم بهذا الشكل الملتوي، في إشارة الى إلتواء عدنان والمجتمع، والدخول معهما في صراعات هو في غنى عنها، لمرضه. ولعل تزامن مجيء والد فؤاد في تلك اللحظة، طلبا لزيارته، يؤكد من إحتمالات عدم قدرته على مواجهة إلتواء هذا العالم، لوفاة صديقه غدرا، وبدون رحمة بشبابه الغض.

وفي الجزء الثالث تتكرر مرتين، في الصفحة (73) و(82). في جملة: (الدنيا صارت حارة وأريد أصعد للسطح)، مانحة معنيين، المعنى الأول هو بقصد تخفيف والد مدحت عن إنفعالات ابنه مدحت، لقدوم عدنان مرة أخرى الى دارهم، والمعنى الثاني يكشف عن إنجذاب مدحت لمنيرة، بدليل أن والدته تأملته يتكلم بحمية غير معتادة.

أما في الجزء الرابع، فتأتي عشر مرات، مقرونة جملة (والحرارة لا تطاق) بتذكر مدحت، مغادرته لمائدة القمار مفلسا، لذا يرفع كأسه ويشرب جرعة كبيرة من السائل اللاذع البارد، للتنفيس عن همومه، لأنه عرف لحظة خروجه الى الشارع من بيت القمار، وماري ليست بجانبه، عرف كما يقول هو: (عرفت ذاك الوقت شنو آني). وهذه الجملة هي تمهيدا لتغييره، وعدوله عن موقفه السابق.

وفي الجزء الخامس مرة واحدة، والسادس ثلاثا، والسابع ثلاثا أيضا، بربط: (عدم قدرتنا على الحياة بدون مساعدة، يقتلنا الهواء الحار)، في إيماءة الى موت صديقه، نتيجة عدم مساعدة الفتاة التي أحبها. والثامن والتاسع والعاشر ولا مرة، والحادي عشر مرتين، والثاني عشر مرة واحدة، والثالث عشر، والرابع عشر، ولا مرة.

أما بالنسبة للايحاء الذي جاء بهدف التوقع، فهو مثل نظيرته (درجات الحرارة)، تفيض به الرواية. وأول ما جاء في الجملة التي تطلقها مديحة وهي بصدد الحديث عن زوجها حسين قائلة: (يبقى هذا الشوه حيا بعد أن يموت الجميع)، وهذا ما يتحقق، إذ يموت مدحت، وفؤاد صديق عبدالكريم، وحسين على قيد الحياة. أما جملة: (وين راح كرومي) التي تكررها أم مدحت مرتين، فهي تشي الى خوفها عن وقوع مكروه لأبنها عبدالكريم، سيما لاحظت تأخر عودته ليلا. ويتأكد فيما بعد، أن خوفها هذا كان في موقعه السليم، لاقتران تأخره هذا، بتردده مع صديقه فؤاد الى بيت الدعارة. بينما جملة: (ولم أحسب قط أن هناك في نهاية الليل، شيئا يسمى الموت. ولذلك ربت، بقلب خفيف حقا، على يده الحارة سائلا عن موعد ذهابنا الى ذلك البيت)، التي يطلقها عبدالكريم، ليست موجهة الى

فؤاد فحسب، وإنما الى شقيقه مدحت أيضا، ذلك هو الآخر يموت ليلا، في طريق العودة الى البيت، في نهاية الرواية، بينما يحدث موت فؤاد في بدايتها.

وتشير جملتا: (ولعلها تفكر بمدحت) و(عبدالكريم أصغر سنا منها) الى أن منيرة ستتزوج مدحت، وتجعل من شقيقه صديقا لها، وهذا ما يحدث في النهاية. (وكانت صفراء الوجه وتحت عيناها دائرتان دكناوتان)، اثر إنصراف عدنان. ردا من منيرة بغضب على العمة، بأنها ليست مريضة، وما عليها إلآ أن تتخلى عن فضولها وانكفائها على نفسها، وهي تقول: (ما عندي شي وياه) يدل الى وجود شيء غامض بينها وبين عدنان، ويتبين فيما بعد، أنه قام باغتصابها. وقول العمة: (لقد انكشف لها اليوم صفحة مجهولة من حياتهما)، وتقصد منيرة وأمها، تؤكد وقوف العمة على الحقيقة القائمة بينهما.

وقول أم مديحة موجهة بسؤالها الى زوجها: (دتشوف عذابي وياهم)، تقصد عذابها مع ابنيها مدحت وعبدالكريم، لاكتشافها أثناء تقديم منيرة الشوربة لعبد الكريم، أن كلا الأخوين منجذبان لمنيرة، وذلك عبر ملاحظتها لتفحص الأول لابن خالته بشكل غير مألوف، وقول الثاني لها: (ما أدري شوكت راح أخدمكم آني هم. يبين الوكت راح يفوت قبل ما يجي). وتوقع الأم كان صائبا، في إنجذاب كليهما الى منيرة. ولكن إنجذاب عبد الكريم يشرع من بداية الجزء الثاني، تحديدا من الصفحة: 27. بينما تكتشفه الأم في الجزء الثالث، في الصفحة: 72 و73. وهو منهمك في مونولوجه: (أعتقد أنني لم أرها منذ عدة أشهر، منذ تعينت مدرسة خارج بغداد، صارت أيام غيبتها تطول، وكنت أتمنى ألآ أكون مريضا هكذا... لا بد أنها عرفت كل هذه الأمور عني...).

وجملة: (كانت أمها ساكنة فارغة العينين بشكل غير اعتيادي. لم تكن معنا، ولم تكن قادرة على الفرار بعيدا)، توحي الى حجم مأساتها، جراء ما تعرضت إليها ابنتها من ظلم في هدر كرامتها وهتك شرفها. وتوحي الى المعنى السابق نفسه، جملة: (كانت شاحبة الوجه) ويقصد المؤلف منيرة. (يبدو عليها الضعف، وأمها تمسك بيدها مرتين وتسحبها منها ببعض الحدة).

وإطلاق مدحت بوجه منيرة جملة: أن حياته هي له (وماكو أحد عنده حق يسألني ماذا سأعمل بيها)، ويرفض كل تدخل، وربطها بجملة: (رأت منيرة مدحت يراقبها وهي تختفي في ظلمة الطارمة، ثم يرفع يده ليمسح جبينه عدة مرات)، مبلغا والده، رغبة حسين اللقاء بابنتيه، ورده والده عليه قائلا: (اللي يهجر أهله سنتين ما له حق يشوفهم). تدل كلا الجملتين، الى أن مدحت سيسير في الدرب نفسه الذي سار عليه حسين، أي سيهجر منيرة. الجملة الأولى من خلال تمرد مدحت ومراقبته لمنيرة، والثاني عبر تعرق جبينه، وهو يثير المشكلة القائمة بين أخته وزوجها حسين.

ولعل قول مدحت لحسين في مكان آخر من الرواية، بأنه لا يريد هذا المجتمع الوسخ، والانتماء له، يؤكد، وهذا ما خطر لحسين أيضا، الى أن مدحت، قد يكون انتهى الى نفس نتائجه حين ترك البيت والوظيفة.

وكسر سناء في المرة الأولى ماعونا أبيض، وفي المرة الثانية قدح الشاي وصحنه، وكلا الأمرين ينبئان بوقوع ما لا يحمد عقباه،

ناجما عن إنكسار الماعون، قدوم عدنان الى دار أبو مدحت، وعن إنكسار قدح الشاي وصحنه وإخفاء الأجزاء المكسورة من قبل منيرة، الى هجرة زوجها مدحت، في إشارة واضحة الى إخفاء منيرة عنه كونها غير باكر. ولكن عندما ينكسر الاستكان في المرة الثالثة، فانه يوحي الى موت مدحت. ذلك أنه عقب دوي الانفجار قفز من مكانه وخرج من البيت، مودعة إياه العجوز باكية بلا دموع، وقبل إنكسار الاستكان يتنبأ العجوز ـ في أكثر من مكان ـ الى الموت، مرة في جملة: (كل شيء خلص وراح يقتلونا)، وفي المرة الثانية: (إشارات الى الموت)، والثالثة: (إنهم سيموتون كلهم). وربما يمتد معنى الموت هنا الى أكثر من موت مدحت، وهو الخراب الذي سيحل بالشعب العراقي، لادارة دفة الحكم من قبل البعث.

كما أن نزف مديحة في ليلة زفافها، وإعادة زوجها حسين الاتصال بها، تكسب هذه العملية معنيين، أولهما وحشيته، ويبعث المعنى الثاني برسالة الى مديحة مفادها، أنها ستظل طوال حياتها ترى الدم بأم عينيها، أي أنها ستعيش في ألم وعذاب شديدين، لزواجها بهذا الرجل العبثي. وهنا يبدو عدم انحياز المؤلف الى أي طرف من الأطراف السياسية المتصارعة في البلد في رسم معالم وأبعاد شخوصه، فمثلما عدنان بشقاوته صار انموذجا للبعث، كذلك حسين، بتمرده وعبثيته، هو انموذج للفكر الماركسي والوجودي.

لم يركز المؤلف في توظيف تقنيات الايحاء بشطريه (درجات الحرارة) و(التوقع)، مثلما ركز التمهيد لانقلاب الثامن من شباط. الرامز الى الموت، وإنجذاب مدحت الى منيرة الرامزة الى الحياة، باعتبار أن كليهما الموت والحياة هما نقيضان للآخر، ويهدف مغزاهما الى المسار الصائب والسليم لأنطلاقة ثورة الرابع عشر من تموز، وإنحرافها بعد فترة وجيزة عن هذا المسار، فقد مرر كلاهما (درجات الحرارة) و(التمهيد لانقلاب الثامن من شباط = الموت) بأكثر من أربعة إيحاءات، في الأول الى أن يقتل مدحت، في إشارة الى نجاح الإنقلابيين في مسعاهم وإستيلائهم على السلطة. ويبدأ هذا الإيحاء من نظر عدنان نظرة جانبية حادة الى مدحت، وهو يقول: (تسمعون من عدنا عن قريب). وهذه الجملة كما هو واضح، بقدر ما تنطوي على التهديد، بنفس القدر، تعلن جهارا بقيام الانقلاب. ولعل تعليق مدحت على هذه الجملة قائلا: (يبدو عليه كأنه يعرف سرا بدون بقية الناس) دليل على ذلك، وأن عدنان ينتمي الى طرف سياسي.

ويتجلى التمهيد الثاني في صدور فرقعة عالية من المذياع، أفزعت أم مدحت، تبعها صوت الآذان. كما لو كان هذا الصوت قد جاء رفضا للقرقعة العالية الصادرة من المذياع، وإدانة له، ودعوة صلاة، لتجنب إصابة الناس بأي مكروه.

كما أن قول حسين: (الكوكوختي اليوم الصبح هواية.. كان حلو صوتها.. ما أدري وينها هسه)، يصب في الاتجاه نفسه، أي أن الإنقلابيين، بفعل دوي مدافعهم ووابل طلقات رصاصاتهم، أرغموا حتى هذا الطير البريء، أن ينقطع عن غنائه، هذا الغناء الذي كان يفرحه ويفرح الناس معه.

أما التمهيد الرابع، فيكمن في الغيوم الكثيفة التي رأتها الجدة في السماء .

عبدالكريم: (رأيت جدتي، خرجت تتمشى من غرفتهم بمفردها، ثم توقفت تنظر الى السماء. مكثت تنظر الى الأعلى بشكل غير مفهوم، أو كأنها تحلم...).
أما إنجذاب مدحت لمنيرة، يبدأ من تفحصه لابن خالته بشكل غير مألوف، مرورا بوصف شعرها وقوامها، وفي المرة الثالثة، أثناء ذهاب منيرة معه الى السينما. والرابعة في قول أم مدحت لابنها عبدالكريم: (عيني كرومي، مدحت يريد منيرة. البارحة كلمها بالسينما. هاي الشيطانة سناء سمعته وقالت لأمها، ومديحة حكت لي. تره آني ما لي علاقة).
والمنحى الثالث لتقنية الرواية، يسوقه المؤلف باتجاه المقارنة، سواء بين الشخصيات في المواصفات التي تجمع، أو تفترق بينها، أو بين الأحداث التي تصادفها، وبين مواقفها. ومقارنة عبدالكريم قلق عيني منيرة بقلق عيني صديقه فؤاد، يقرنه بالسر الذي يجمع بينهما، أو كما يصفه: (سر يشابه سره). ذلك أن كليهما عاشا كتمان السر نفسه الذي احتفظا به لنفسيهما. فإذا كان فؤاد يعاني من رؤية الفتاة التي أحبها في أحد بيوت الدعارة، فإن منيرة تعاني من كونها فتاة غير باكر. ويقارب عبدالكريم نفسه بمنيرة أيضا، ذلك أن كليهما يشتركان في مرض غير واضح المعالم. فهو يعاني من مرض بوعي، وهي من القلق والاضطراب، وينعته عبدالكريم، بالمرض الذي يقربهما لبعضهما، ويجمعهما مرضه ومرضها.
إن المؤلف يمنح لموت الكلب الذي تدهسه السيارة، مساحة غير قليلة، من بداية سرد الأحداث على لسان مدحت، إذ يأتي في الصفحات:134 و136و390. في المرة الأولى تمهيدا لموته، والثانية لسرد حادثة موته، والثالثة للمقارنة بين موت مدحت وموت الكلب.
وتقترن في المرة الأولى بردّ مدحت على حسين الذي يعتقد إنه في ليلة ما سيسقط على الرصيف ميتا، قائلا له: (هذه الميتة اللي تظنها بطولية، تره هي ميتة الكلاب، الكلاب الجربة). وساردا حادثة موته في الثانية، هكذا: (كلب عجوز يعبر الشارع فتدهسه سيارة وتلقيه أرضا. كلب يسير ببطء فتضربه سيارة مسرعة. ظل الكلب يجتاز الشارع ثم يقصم ظهره فجأة، ويترك ليعيش ألمه، ليرى نفسه يموت بلا كلام بلا صراخ بلا إستنجاد، سوى العينين المخضلتين وسط الطريق أمام كل الناس).
والثالثة لمقارنة مدحت موته بموت الكلب. وذلك من خلال تخيله أن في عينيه شيئا يشبه النداء الذي سبق أن رآه وواجهه يوما ما. في إشارة واضحة الى الكلب المدهوس، وهو يمسك بموضع الألم، ويتلفت حائرا بدون أن يرى أحدا، ليهتف مستنجدا، في إشارة ثانية الى الكلب الذي مات، دون أن يسعفه أحد.
يمكن تأويل هذه المقارنة في عدة إتجاهات، قد تتفق بعضها مع البعض الآخر، وقد تختلف. قد تأول في كونها إدانة للتقاليد البالية التي ما تزال تقدس غشاء البكارة، ومن جهة أخرى قد تفهم انها إدانة للانقلابيين، إلآ أن الأصوب أو هكذا يبدو لي، أن السياق المنطقي لرسم أحداث الرواية وشخصياتها بشكل واقعي، وإتساقا مع الظروف التي مر بها البلد، هي التي دفعت بمدحت أن يموت هذه الميتة، بالأحرى هو الذي اختار لنفسه أن يموت كذلك، مثله مثل حسين الذي اختار

بارادته وعن وعي، حياة الفوضى والعزلة . ففضلا عن موقف مدحت من زوجته، فهو يرفض المجتمع الذي يعيش فيه ويصفه بالوسخ، ذاهبا الى أنه ملتصق به بالصدفة، كما أنه لا يعتبر نفسه متمردا، لأن ذلك يعطل مشاريعه، فيسعى أن يصل الى هدفه كالأفعى. ومع كل هذا يتعاطف المتلقي معه، بسبب الموقف الأخير الذي يتخذه، بقرار العودة الى زوجته منيرة. وهي عودة الضال الى أحضان الوطن، ومثل هذه العودة تستحق الشهادة، وتستحق كذلك التعاطف، ذلك أن منيرة هي رمز للوطن، واغتصبه عدنان، وتمرد عليه مدحت. ولكن بالانقلاب على شخصية مدحت، من خلال حبه للوطن، وموته من أجله (وأنه جاء لها فقط، من أجلها هي زوجته، وانتصر على كل أفكار الفناء فيه)، وهذا يعزز ما ذهبنا إليه.

ويبدو لي أن لعنوان الرواية (الرجع البعيد) صلة وثيقة بهذه المقارنة، بالمقارنة بين موت الكلب وموت مدحت، ويمنح المؤلف رقعة مديدة لموت الاثنين، بتسليط الضوء على تذكر مدحت لحادثة موت الكلب، إنطلاقا من أن كليهما ماتا الميتة نفسها وبدون هدف حقيقي أو سبب جدير لأن يلقيا حتفهما من أجله. وإذا كان الكلب من أجل عبور الشارع، ومدحت دفاعا عن شرف العائلة وتمسكا بتقاليد المجتمع، فانه كما يقول حسين: (الحورية اللي تزوجت الراعي وهي ابنة السركال وغلطت، أي شنو يعني؟ ترسية ألف سالفة مكسرة تحت رأس كل منهم. لعنة الله على والد والديهم الى سابع ظهر).

إن بلوغ مدحت الى هذه القناعة، مع أن منيرة لم تخطئ مثل الحورية ابنة السركال، لأنها أغتصبت، حدت به هذه، أن يتذكر المشهد المؤلم الذي رآه يوما ما، وهو في طريق العودة الى البيت من الدائرة. مشهد الكلب المطروح على الأرض ورأسه ملتو، ليرى نفسه يموت بلا كلام بلا صراخ بلا إستنجاد، ويقارنه بموته على الرصيف، مع أنه كان يتمنى أن يموت على فراشه، راجعا بذاكرته الى هذا المشهد البعيد.. البعيد جدا. والى جانب التقنيات الثلاث، ينزع التكرلي الى تقنية، تقدم وقوع الحدث قبل الدخول في تفاصيله، من حيث تأخير الاجابة على السؤالين الاستفهاميين: (كيف؟ ولماذا؟). شأنه شأن الشخص الذي يرى من مسافة بعيدة، حجم الشجرة، ومن مسافة قريبة، كل تفاصيلها. مطبقا إياها في موت فؤاد، وموت مدحت، وإغتصاب منيرة. في الأول، عندما يصرخ عبدالكريم كالمجنون في نهاية الجزء الأول : دم فؤاد. دم فؤاد، وبعد ثلاث عشرة صفحة، أي في السادسة والعشرين، ينقل المؤلف نبأ موت فؤاد، وفي التاسعة والثلاثين، يسرد حادثة موته. أما موت مدحت، فيعلن عنه عبدالكريم، بالأحرى يوحي إليه في أكثر من مكان، تحديدا في الصفحتين (430 و435)، ويسرده في الصفحة (477)، أي بعد ست وأربعين صفحة، شروعا من الجملة الأولى: (كانا لا شك، يبكيان سوية بمعزل عنا. لابد أنهما أدركا مثلي ومثلها، بأن مصير مدحت اختلط بمصادفة قاتلة..)، والجملة الثانية: (وقعت طريحة الفراش حين كان الجميع مشغولين بوفاة مدحت). إنتهاء بالاجابة عليهما، على حادثة موته إبتداء من جملة: (فتح الباب الخارجي أثناء ما كان يتكلم معها) الى نهاية جملة: (وتلوى جسده الملوث بالطين

والدماء، يرتجف بشكل مروع على أسفلت الشارع الخالي). بينما يتأخر سرد أحداث إغتصاب منيرة بحدود مائتي صفحة، إذ يوحي المؤلف على لسان العمة، عن كشفها عبر إضطراب وجه منيرة وتحوله الى لون أصفر، وإنكفائها على نفسها بقولها: (صفحة مجهولة من حياتها) ص65، وفي الصفحة 252، تسرد منيرة حادثة إغتصابها إبتداء بجملة: (كانت معه في السيارة المنطلقة بجنون على الطريق الملتوي المحاط من الطرفين بأشجار البرتقال...) وإنتهاء بـ: (وكانت على الأرض المشبعة بدمائها، تصرخ يابسة العينين، تحت شمس الربيع وبين أشجار البرتقال الخضراء).

يبدأ سرد أحداث الرواية في كل أجزائها، ما عدا الجزئين التاسع والسابع على لسان الراوي، ثم سرعان ما يتحول هذا السرد الى ضمير الغائب. وفي كلا المنحيين تتعدد الأصوات، ويلجأ المؤلف الى إستخدام طريقتي (الفلاش باك) و(المونولوج).

ولو أخذنا الجزء التاسع للرواية، انموذجا لضمير المخاطب، لوجدنا أن منيرة تسرد أحداث هذا الجزء، وبعد سطرين أو ثلاثة، يضاف الى صوتها صوت آخر هو صوت أمها ثم صوت مديحة فسناء. وعقب ثلاث صفحات، يتحول صوتها من ضمير المخاطب الى ضمير الغائب، وباستحداث صوت آخر هو صوت عدنان، وباستخدام طريقة الفلاش باك، أثناء إغتصابها. ثم تعود ثانية الى صوت المخاطب، ولكن في هذه المرة باستخدام طريقة المونولوج. وهكذا الى نهاية هذا الجزء، ينتقل صوتها ـ من خلال ضمير المخاطب وضمير الغائب ـ بين تعدد الأصوات، الى إستخدام المونولوج والفلاش باك. وهذا ما ينطبق أيضا على ضمير الغائب، ولا يكاد جزء أن يخلو من هذين الاستخدامين.

ولو تتبعناهما لوجدنا أنهما أحيانا، يأتيان بشكل مزدوج، بحيث يصعب التمييز بينهما، وأحيانا أخرى فرادى. متمثلا الأول في جملة كريم الدالة الى كلا الطريقتين: (رأيت وجهه أول ما أطل من الباب، كان الشحوب الشديد فيه يختلط بصفرة وسمرة شديدتين...). ومتمثلا الثاني (الفلاش باك) في هذه الجملة لمنيرة: (إلا أن إقترابه مني وصل الى حد التماس والالتصاق الجسدي، المتعمد، وغير المتعمد في ذهابنا معا كل صباح الى العمل وفي أثناء حياتنا اليومية...)، ويتجلى المونولوج في هذه الجملة لمنيرة أيضا: (فوضع ذراعه حول المقعد الخلفي، كأنه يريد أن يحميني من السقوط...).

تعودُ سعيداً .. وتبكي

ابراهيم البهرزي

(الى الشاعر الشهيد خليل المعاضيدي)

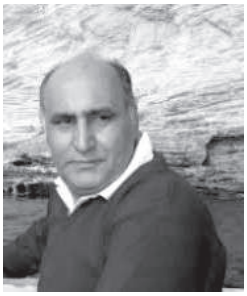

قُم خليل أخي

حيثما كان قبركَ

إن الطغاةَ تواروا بلا معركةْ !

والمقر الشيوعيّ ينبض قرب محطة ذاك

القطار القديمْ

وله رايةٌ

وبه فتيةٌ من تلاميذك الغرّ والاصدقاء

ووجه (سعيد) النديمْ

حاملاً لكَ من (شفتة) الخير حزن الأسير

وبعض الأمانات من طيّب التركةْ.

***

قم خليل أخي

فالشيوعي لا يتوارى عن الاحتفالْ

قد يكون مريضاً

حزيناً

وربما ميتاً

غير ان الشيوعي يأتي بكلّ إحتمالْ

***

في المقر الشيوعي قرب محطة ذاك القطار

القديمْ

سترى ما تحبُّ

الفتوّة فينا ونحن نحاذي خريسانَ

نستحلبُ الأريحية ثم الشمائلَ من بعد عهدٍ

دميمْ

ونغرقُ في الضحك

حين نرى وشلاً لرماة البنادق (أعني بنادق

صدام)

في آخر الوهم يستنطقون الجحيمْ

***

قم خليل أخي

سنعودُ معاً صوب قبرك

كي نتأكد من أوجهِ القتلةْ

ربما سنراهم غداً

في احتفال التحالفِ

يتساءلون:

وما المشكلة ؟!

***

لبعقوبة الآن قلب من الآسِ

يسرحُ أحور للشرفات الكشيفةِ

مثل الجمال المشاع

ولكن في القلبِ

في كبد القلبِ

نهرٌ من الحزنِ

لن يُشترى ماؤهُ أبداً

أو يباعْ

***

نم خليل أخي نَمْ

فلا بدّ للحرس الآدمي العريقْ

أن يعود بساتينَهُ...

إن نسي مرةً

فلنذكرّهُ بالحريقْ

ولستُ لحقدٍ أرجرجُ أشجار هذه القرى

ولكن تعال معي

وأنظر الزرعَ والضرعَ

حدّق بما فعلوا

ولتثقْ

إن أهون شرٍّ ترى...

ما ترى

***

نم خليل أخي نم

كل شيء ينامْ

سوى الخزي منفعلاً في أسرّتهمْ.. لا ينامْ

بهرز

2003/ 5/ 18

البديل

سالم الزيدي

الشخصيات:
• هي: فنانة تشكيلية
• هو: مثقف مصاب نتيجة تعرضه للاعتقال وتعذيبه وهروبه من الأسر
• لا زمان ولا مكان
(تدور أحداث المسرحية في أحد مخيمات النازحين).
لوحات ممزقة معلقة، وستائر، وكتب منثورة.
هو: ممد على سرير، وإحدى يداه مصابة.
هي: تمارس رسم لوحة، تجلس، تنهض، حاملةً باليت الرسم وعليه الألوان، وبيدها الفرشاة.
)الصمت – الإضاءة – الموسيقى – السينما) عوامل تساعد على تطوير الفعل والبناء المسرحي.
هي: لن يأتي.
هو: قريب، سيكون هنا.
هي: هو بعيد جدًا.
هو: من يقول ذلك؟
هي: الديك.
هو: الديك! (يضحك(
هي: كيف عرفتَ ذلك؟
هو: نغمات صوته تشعرك على ذلك، وهو ما نتوقعه.
هي: رُبَّما بسبب الأحداث التي مرت بنا.
هو: صيغة لنحر النهار عند شروق الشمس.
هي: مسألة الالتزام تعاكس الأمراض النفسية وترفضها. لماذا لا تكترث للأخبار؟
هو: الموت يهاجم البحر عند حافة الشواطئ.
هي: دائمًا الهستيريا تراقص العواطف في الأعماق.
هو: وهل يأتي؟
هي: لا يأتي (صمت)
هو: الطريق مغلق.
هي: طريق واحدة سالكة، لا خوف...
هو: طبول الحرب ما زالت بصوت إيقاعات الجنرالات... لوحة دكناء الألوان هل تولد قريبًا.
هي: بإشراقات وتأمل.
هو: اغترابات في الرؤى.
هي: كانت البنات اللواتي عشت معهن في الأسر بحالة من الضجر والضوضاء، وهربنا واختفينا في الكهوف، وأدركنا جيدًا أَنَّ الزمن أصبح رديئاً وعاهراً، وشعرتُ بنفسي مهزومة في ضياع وحرمان.
هو: كيف؟
هي: التوقعات جاءت كما نشرتها الوكالات الإخبارية اليومية.
)صمت، ثمَّ لعلعت إطلاقات نارية).
هو: لماذا يمارسون زرع الخوف؟
هي: حتّى تستمر عمليّة الإنجاب.
هو: ويقترب موعد الطوفان حيث الفناء.

هي: هذيان بلا رغبة وتردد فيه إشراقات تتوقف عند لحظة الولادة.
هو: رغبة بعطاء وإسقاط للقواميس المستوردة.
هي: هل نذهب ونخرج من هذا السجن؟
هو: إلى أين؟
هي: هناك.
هو: ماذا تفعلين؟
هي: نمزق الرايات.
هو: قرار فيه شيء من الجمال.
هي: لكن الحقيقة عارية جداً.
هو: مواكبة الزمن الذي فقدناه فيه مقومات وجوده، لعدم قدرته على الرؤيا.
هي: رؤيا مشوشة.
هو: كلمة تدعو الربّ للنصر وتوافر الأمان.
)يؤدي حركة الدعاء بصمت، وهي ما زالت مستمرة برسم اللوحة... صوت المؤذن(
هي: مبحوح من زمان، ووجهه أصبح لوحةً دكناء بتجاعيد ماتت فيها الرحمة، ولحن فاقد للإيقاع، إذ عجزت الأوتار الصوتية عن إخراج الأصوات بحسب القواعد النغمية.
هو: تأمل للآخر في طريق الرفض بتجانس أسس القاعدة.
هي: ذكاء مفرط.
هو: لا، هروب في الصحراء حيث عرس وطن.
هي: استحمار قابل لخصوصية الأبعاد في النظريات الكونية.
هو: تجاهل ورفض لقدسية الايمان وكلّ المعلقات والكتب... حروب، ومحاصرة، وجوع.
هي: سقوط في متاهات ضياع القانون وفبركة سقوط القوانين وفق أمراض الآخر الذي جلب لنا المتاعب.
هو: عندها بدأت الأزمات.
هي: واقتلعت من المدينة كُلّ قيم الخير، ثمّ زلزلت الأرض زلزالها.
هو: كانَ يوما تعسا ثقيلا.
هي: حتّى المقابر أغلقت بوجه القادمين.
هو: لماذا؟!
هي: إنَّهم جاءوا بدون اكفان.
هو: حتّى المعامل توقفت عن إنتاج القماش! وماتت عاطفة زليخا!
هي: لكن يوسف كان يمتلك الوقفة الشجاعة.
هو: نشوة، لكن ماتت فيه الرغبة.
هي: أَجل، ماتت الرغبات.... إنَّها غير مكتملة، خوفا من العقاب.
هو: كفى هراءً، لنتوقف، استغفر الله. القشعريرة تطوقني.
(صمت)
هي: هل يأتي؟
هو: لا يأتي... أسلوب مقيد.. خرق للقوانين الروحية.
هي: يأتي. بكل تأكيد.
هو: لا يأتي، توقف الفعل، من دون جذوة الحب.
هي: الموت وقوفا وعراة، ومطهرا من رجس الهواجس والوساوس المتعبة.
هو: صدى الحب يتفجر... يتأجج بزحام الغرباء.
هي: الأرض تقتلع أضراس الباذنجان المعتق.
هو: لكن بائع الخمر يمارس الغش بحق الزبائن، ويدعو من الله الرزق.
هي: ممارسة ونوم عميق.
هو: وعي في إدراك حقيقة القاعات السرية.
هي: توقف... لماذا نتحدث بإفراط عن

قدوم الغرباء، وكيف دخلوا المدينة؟ مجرد حديث.
هو: لماذا؟
هي: حتى نمتلك قدرات لممارسة العشق والحرية.
هو: لماذا لا تمكثين في قاع الصحراء؟
هي: جيش التبشير لبلاغات التفكير بالربّ.
هو: لكن قيما ملوثة وقطيعا من النعاج (يضحك) تخجل حين نرتدي العباءة البيضاء في الليل.
هي: ما زالت العربات تجرها الخيول.
هو: خوفا، جبنا، تهربا، ذاكرتنا تتلاشى.
هي: تتلاشى من الخوف؛ لأَنَّ الأحداث أصبحت مثقلة بالآلام عند حدود التكوين الشخصي.. (صمت) يا ربّ: اجعلني من عبادك الصالحين.
هو: علينا أَنْ ننتزع الصبر من الزمن.
هي: ينزع بقوة الإرادة.
هو: عناد للشرائح ولا تراجع في سباق الوقفات المرئية.
هي: ألم الزعاف، ونحر التاريخ بقسوة.
هو: احتضار الزمن حتى نلعب بإرهاق.
هي: حرية لاختيار أفضل الطرق للرحيل نحو الأبدية.
هو: تعبير عن حالة التطبيع.
هي: هل هم عطشى؟
هو: أَجل، الجميع كذلك... محزن ذلك الواقع المضحك.
هي: قيود في المعاصم... وسرقة نظرات الإطلاق.
هو: نرتدي الأكفان على مشارف الدور المهجورة في أزقة المدن.
هي: رغبتك مكبوتة.
هو: قرار دخول المدينة جاء بالاتفاق بدرجة مرتفعة، ونتيجة حوار الأصدقاء خلف الأبواب المغلقة.
هي: يتجدد الماضي في حافلات التبريد، ثم تجوب المدن باحثة عن ملاجئ النساء.
هو: رُبَّما هذه الأفكار ستكون في لوحتكِ، في ظل حالات صراع الأضداد.
هي: خبز حار، يحمل طعم الحنان.
هو: خطوات نحو الارتفاع للقمة.
هي: وتلاحم أسوار، وتشابك حتى الاشتياق.
هو: جنون.
هي: يموت اليأس والملذات.
هو: تقدّم في العمر، وضياع في الآلام والأحزان.
هي: هل نظل ننتظر؟
هو: أجل، جاءوا من هناك يحملون الحقد بجحافل الجزارين لقتل النهار.
(صمت(
هي: لقد مارسَ الخيانة وجعلنا في دوامة الشك والهموم، متى يتم الاستجواب؟، رجل يحمل وجهين.
هو: هو سليط لسان، كذاب، عراف، لا يحمل الحقيقة.
هي: لا تطفئ الضوء، أرغب بإكمال اللوحة.
هو: توقفي عِن الرسم.
هي: كلا؛ لأنني أريد أَنْ أجعل ما في ذاكرتي في هذه اللوحة وانعكاسا لما جرى.
هو: اللوحة تاريخ، تحمل الواقع.
هي: رُبَّما يأتي... وتكون هذه اللوحة الوثيقة... متى يأتي الوقت لدفن جثث الموتى الأحياء؟
هو: مخاوف برؤى جنونية، وزرع وجهه في وجهي، وقتل ذاتي بعناد العداء للآخر.
هي: كشف حقيقة المظلومية السوداء.

هو: أرادوا أَنْ نكون في جوقة النخاسين في أسواق بيع الأعضاء البشرية.
هي: من يقتل النساء؟
هو: هم الذين يتحدثون بقدرات الإخلاص والإيمان بالربّ، يجوبون المدن يطبلون، وينشدون، ويكبرون.
هي: حين يأتي سأصرخ في وجهه بعناد الرافضين.
هو: لنفكر كيف نتمكن من ارتداء الأكفان؟
هي: نتثاقل في زمن الترحال.
هو: لكن ضوء الصواعق، والرعد، والبرق جعلنا نهرب نحو اللا هدف.
هي: حين يأتي سيموت الفسق.
هو: وتُملأ المقابر بنداءات العنقاء.
هي: بلا شعور.
هو: الهلاك يعانق أسوار المدن.
هي: الذئاب ستطلق أصواتها خوفا.
هو: موجودون في كُلّ مكان... خبر عاجل يعرض على الشاشات، لنقل الخبر، يعلن عن أحداث الغد، كانوا جميعا عند نقطة واحدة (صمت). كيف يكون الفهم اللاحق عند اللقاء ثمَّ نتساءل متى يأتي؟
هي: بصراحة لن يأتي، مستمرون في حالة انتظار، حتّى ندرك كيف نمارس حرية الذات.
هو: لكن الأدوار تعجلنا في حمى القوافي.
هي: الأمر في حالات الهذيان والوسواس.
هو: وننتظر، نتفاءل، ونصرخ متى يأتي؟
هي: لم نراه أبدًا...، لقد افترينا على الله كذبا.
هو: استغفر الله، لأقعدن منتصرا، أراقص صدى الغيث، حين دخلوا المدن قالوا: نحن التاريخ، وسرقوا أساور الأطفال، مارسوا الفوضى الممنهجة عبر مسارات وقوع الاعتداءات لقتل الحب، وجعل المسموع ممنوع، وتهديم العروض المرئية، هل يجوز أَنْ نتطاول على حقيقة الأصالة التي تربعت على معاداة المواجهة بغطرسة الظالمين...، حوصرنا في ذلك اليوم، كُلّ من كان يحمل التاريخ. أصبحت بين ثلاثة ذئاب كانوا يحاولون أَنْ نكون فريسة لكل واحد منهم، قال الأوّل: هل تذكرون من كانَ معكم في هذه المدينة؟ قال الآخر: لابُدّ أَنْ نحقق رغبتنا في بناء مدينة جديدة، ثمَّ تحدث الآخر: إِنَّنا سنبني كيانا جديدا يحمل العدالة وحرية الإنسان، هل تريدون أَنْ تكونوا معنا؟ لكنهم قتلوا أمامي مجموعة من النَّاس؛ لأَنَّهم رفضوهم.
هي: كانت مواجهة صعبة.
هو: أَجل، كنت عاشق هذا الوطن، ورفضت الهروب، لكنني اعتقلت وهربت؛ لأَنني اعشق الأرض، والوطن كلمة الله في الأرض، والإنسان وجه الله في الأرض.
هي: هل تريد أَنْ نهرب بعيدا؟
هو: لا نكون أغبياء.
هي: يعني البقاء في دوامة الضوضاء.
هو: رُبَّما سينتهي اللعين، وتبدأ مرحلة جديدة.
هي: توقف بلا فعل.
هو: انطلاقة نحو غدٍ جديد.
هي: يا لَهُ من زمن مات فيه الرغبة لعشق الحياة. لقد جلست عند نهاية الطريق الذي ينتهي عند نقطة يتحرك عندها أولئك الذين جاءوا للسيطرة على المدينة من الغرباء الشياطين الشرسين، قالوا لي: توقفي، طلبوا منا هويات للتعريف، قلت لهم: أنا لا املك هوية، تركتها في داري، لكنني ولدت على هذه الأرض، بصق في وجهي أحدهم وقال:

أنت مطلوبة لقواتنا، قلت: لماذا! قال: لأَنَّك تحاولين أنْ تهربي، قلت: أنا لا أهرب من الوطن، ثم ضحك الذي كان يرتدي السواد بسخرية قال: الوطن لله، أنتِ ضيفة عندنا، ثم أدخلونا المعتقل بمرارة، ويبدو أَنَّ الجميع كانوا بحالة مؤلمة، إِنَّهُ الجحيم بكل ما تعني المفردة من معنى.

(صمت)

هو: يا ربّ ارحمني يا ربّ إِنَّني لا أتجاوز عن أحد من الناس... لا اسرق، لا أظلم، لا أمارس أي فعل أنت منعتني عنه، أنا عبدك ولا أعصيك، كن لي عونا، ظلموني.. فُجّر داري، ولا اعلم أين أهلي، إِنَّهم جاءوا بما منعتنا منهُ. إِنَّهم يتحدثون باسمك أريد جوابا لدعائي، لماذا يكون الظالم منتصرا، والفقير جائعا ومشردا، والسارق طليقا، وهم يمارسون ما يريدون بحرية وأنت تعرف ذلك يا بصير. نبقى على إصرار، نحن نحبك وأنت الكلمة والقرار، نتعلق بك، لا تجعلنا فُرادى، أنقذنا نحن نبتهل إليك.

هي: هل نبقى نبتلع الخوف المر، والذل، والمغلوبية؟

هو: أشعر بالنعاس والملل، وأنا أواجه الصراعات بصمتٍ ونمضي على طريق الانحرافات الذاتية.

هي: كلام في دوامة الفلسفة والجدل المثالي.

هو: التمرد والإرهاب ومحاكاة قوة السلاح.

هي: هم في مارثون سباق السياسة وتمكنوا من تحقيق الانتصار في لعبة جرّ الحبل.

هو: لماذا يصاب الإنسان بحالات الكذب والدجل.

هي: انزلاق وتراقص جدران الاسمنت المطوقة بالأسلاك الشائكة، والوقوف عند مدارج سباق ساحات الخيل.

هو: كانت الجثث تعانق أزقة المدن التي دخلوها.. حاولوا دفن الموتى، لكن الرصاص كانَ يأتي من كُلّ جانب.

هي: هم هربوا... ولم يبقَ في المدينة أحد من العساكر.

هو: كانَ طقسا للفوضى ورثاء الوطن.

هي: فترة الحزن في ظل الرايات والتكبيرات.

هو: أزمان تبقى في ذاكرة العشق الإلهي، الذي يجعلنا في خدر الاستمرار.

هي: ثمة شيء يتحسن صوب طريق الله في الأرض.

هو: لكن الحذر طريق مملوء بالصقيع.

هي: اختراق واهتداء بالكذب، وبالبشارة ينشدون بغفوة.

هو: نهار ذو ظلمة.

هي: لغة سلاح.

هو: مهزلة... وقتل الكلمة، كان نزوح العوائل مؤلما، واستمرت النار مشتعلةً في الحقول.

(صمت)

هي: الضحية.

هو: الخلاص، لقد أغمضت عيني، وكانت ملامح وجهي متأججة تؤكد أَنَّ شيئا سيحدث.

هي: الأقوى متغطرس، في طريق الجحيم، ونحن في اضطراب نسير.

هو: نتسلق الأشواك وجدران المدن؛ لمواجهة الضياع، لا أدري كيف سأواجه السجن الجديد، الذي خيّم على البلاد؟

هي: السجن، هو المنفى.

هو: غرباء.

هي: غرباء في حالات القنص.

هو: هل يولد الحل؟

هي: لا يأتي.
هو: أجل، لا يأتي.
هي: كيف يأتي وكلّ شيء فقدناه، هم اجتاحوا المستقبل.
هو: تاريخ بلا كلمات.
هي: ما زلنا نبحث عن الحقيقة، منزوعة الأبعاد.
هو: متى تنتهي اللوحة.
هي: مستمرة في البناء، الألوان إيقونة الحياة، والخطوط المتعرجة في صراع متشابك، تبحث عن مدارات اللقاء عند منعطفات الاضطراب، وموت الأحاسيس.
هو: لقد نُسف البيت الذي كان بالقرب منا، لقد صدمت، لم أشعر ساعتها إلّا بالموت، وأصبحت عاجزا أنْ أفعل شيئا. ترنحت بصمت، بكيت مع نفسي، لماذا هذه التصرفات؟ صرخت بالجميع: أغبياء أنتم، لماذا الصمت؟ نكبر لله، وتداخل التكبير مع أولئك الذين دخلوا المدينة يكبرون، الجثث في المدينة (ينهض هو، ينظر إلى هي، وهي مستمرة في الرسم).
هي: (تنظر إليه بتساؤل.. بنظرات تعبر عن حاله).
هو: بأي شيء تفكرين؟ لماذا توقفت؟
هي: أخاف الشياطين.
هو: كنت متعبا، والعرق يتصبب مني ممزوجا بالتراب... كانت رائحة طيبة، إنَّها تراب الوطن، لم احتمل. كنت أرغب أنْ... لا لا... رُبَّما يقولون.
هي: ماذا يقولون؟ المتاريس كانت ثقيلة.
هو: ماذا تقصدين؟
هي: (بدون جواب بدأت تفكر جالسةً أمام اللوحة بعمق(.
هو: هل يطوقنا الجحيم؟
هي: اختيار طريق الغد حيث التنوير والحرية.
هو: هل هذا هو الطريق الذي ترغبين باختياره للوصول إلى ما تريدين؟
هي: من وجهة نظري أجل، حلولٌ في الأفق.
هو: والأفكار الأخرى؟
هي: قد تجعلنا نعتمد على الآخر ثم نسقط أمامه راكعين.
هو: والطريق الأوّل؟
هي: فيه الحقيقة، والحب، والعلم.
هو: هل هذه الأفكار كُلّها في لوحتكِ؟
هي: أجل.
هو: إذن لماذا توقفت عن العمل؟
هي: لأنَّ اللون الذي احتاجه فقدته، وأنا حزينة جدا؛ لأنني أريد إكمال اللوحة.
هو: توقفي عن العمل للغد، لتهيئة اللون الذي تحتاجينه... هل يمكن لكِ مزج الألوان المتوافرة لديك، لتحصلي على الذي فُقِدَ منكِ؟
هي: لا يمكن ذلك.
هو: لماذا؟
هي: من دونه لا يمكن إكمال اللوحة، وستبقى مجرد خطوط وفضاءات ألوانٍ.. بشكل بصري لا تجد فيه الفعل المؤثر في المتلقي، واللون الذي احتاجه يمثل الحياة والعمل.
هو: (يضحك) رُبَّما سلاح قاتل.
هي: لا تتهكم، هو الأمل، والمؤثر، والمنهج.
هو: غدا سأذهب للسوق لشراء ذلك اللون وأجلبه لكِ.
هي: لا مساحة لي للانتظار.
هو: ماذا ستفعلين؟
هي: (قلقة جدًا وبتعابير مؤلمة وقاسية

وتبحث بين الألوان عن اللون المفقود(.
هو: لابُدّ أنْ ندرس الموضوع ونناقشه، حتى نجد البديل، وسنصل لتحقيق ما ترغبين.
هي: سأكمل اللوحة...
هو: بأي شيء؟
هي: (صمت) بالدم... لأَنَّهُ اللون الذي يعبر عَمَّا أفكر به.
هو: وكيف؟
هي: (تحمل بيدها شفرة) بهذه الوسيلة سأحقق ما أرغب به.
هو: لكنها مجازفة، وفعل خطير جدا.
هي: لا تتدخل.. المسألة تعنيني، قررت ذلك، وسأدفن الماضي، وأحقق رغبات الناس التي أفكر بها.
هو: خطورة عليكِ، النزف... ماذا نفعل ونحن في هذه الساعة المتأخرة من الليل لو أصبت بالنزيف؟
هي: فعل لابُدّ من تنفيذه.
هو: ممارسة جنونية، انتظري حتى الصباح، ونفكر بإيجاد البديل.
هي: لا لا لا
هو: (ينهض من سريره ويتجه نحوها ويقف أمام اللوحة محاولا سحب الشفرة من يديها)
هي: أرجوك الابتعاد، أنا قررت ذلك حتى أنفذ ما أفكر به، وأمارس حريتي، فالوطن دم لا ينضب.
هو: (يحاول مسكها)
هي: ابتعد.
هو: لنفكر... نتحاور... ونبحث عن فكرة أُخرى لإكمال اللوحة.
هي: انظر إِلى الفضاء في اللوحة، إِنَّهُ ينتظر ينتظر (تمد الشفرة على يدها... وتلامس يدها)
هو: (يصرخ) انتظري.
هي: (تضغط على يدها وتدخل الشفرة في أديم يدها، ويسيل الدم وهي تشم رائحة الدم بفرح ونشوة). طريق الحياة والحب... سأكمل اللَّوحة...
هو: (يأخذ الشفرة من يدها وتلامس يده وينطلق الدم. معا يقومان برسم اللوحة. بدأت الفرشاة تعانق الدم المسيل... يظهر في خلفية المسرح اللون الأحمر في بقعة صغيرة، ثم تكبر وتعرض السلايدات لمدن مدمرة وحرائق، وجثث، وأفواج من النازحين، ورجال بملابس سود يرفعون الرايات، إطفاء إنارة المسرح).

في الصحافة الثقافية العالمية

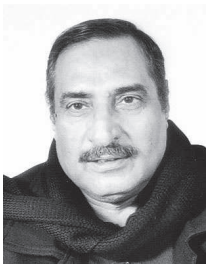

ترجمة: جودت جالي

مسرح:

ترقص الخيول على المسرح ويقف الفرسان خلف الكواليس

يقول بارتاباس، في عمله الأخير Ex Anim (معناه باللاتينية من كل قلبي-م)، بخصوص خيوله، التي يعدها رفاقا مخلصين له: "لطالما خدمتنا الخيول وقد آن الأوان لنخدمها". وهكذا في حين كان الفرسان والبهلوانات في الأعمال السابقة يؤدون أدوارهم تحت الأضواء على ظهور الخيول فإنهم في هذا العمل الذي عرض في مسرح (زنغارو) بقوا على الأرض خلف الكواليس، متحولين الى هياكل وعلامات. تركوا لمطاياهم أن تأخذ المبادرة بكل صورها مسلطة الضوء على الروابط التاريخية بين الخيول والبشر والطبيعة عبر أزمنة وحضارات مختلفة.

إنه لتحد حقيقي يتكشف للجمهور، المأخوذ بلوحاته الفنية، عن سرد راقص لا يني يتغير ولا يكون هو نفسه كل مساء، متبعا هوى الخيول وأمزجتها. تدخل المسرح فرادى أو أزواجا أو جميعا وتبدأ ترسم خطوط رقصتها أو تنتفض، فتخطو خطوات وئيدة أو تركض كالريح. هذه الخيول أصيلة الدم، يوجد بينها الحصان (فان كوخ) ذو الأذن الواحدة، على إسم الرسام فان كوخ، والذي أنقذه بارتاباس من مصيره البائس في المسلخ، ويوجد تينتوريه وكارافاج على إسمي رسامين شهيرين، كذلك غرينشو القادم من الأرجنتين، وزوروباران المولود في المكسيك، ونوروييف ولوسيفر وغيرهم يبلغ عددهم خمسة وثلاثين حصانا، كل يلعب دوره الخاص، متساوين في المهارة والإمتاع، خيول عربية أو إسبانية، سود وبيض وبلقاء، أعراف متمردة وعيون متقدة كالجمر، وفي الوقت الذي يكون كل منها فريدا في صفاته وإدائه فإنه مندمج في جماعته. يوجد كذلك بغل وحمار ظهرا في العرض السابق، وذئاب تمرق كأشباح في ميدان معركة تتركنا لذهولنا وتترك الخيول لمبالاتها الخارقة. نتابع مأخوذين بالجمال والتعابير البرية لحركاتها وقوة تعابيرها وقد تُركت لحريتها تفعل ما تشاء كما لو أنها ترسم بأجسامها الضخمة لوحات هايكو في الفضاء، شعر وألغاز تؤلفها الموسيقى

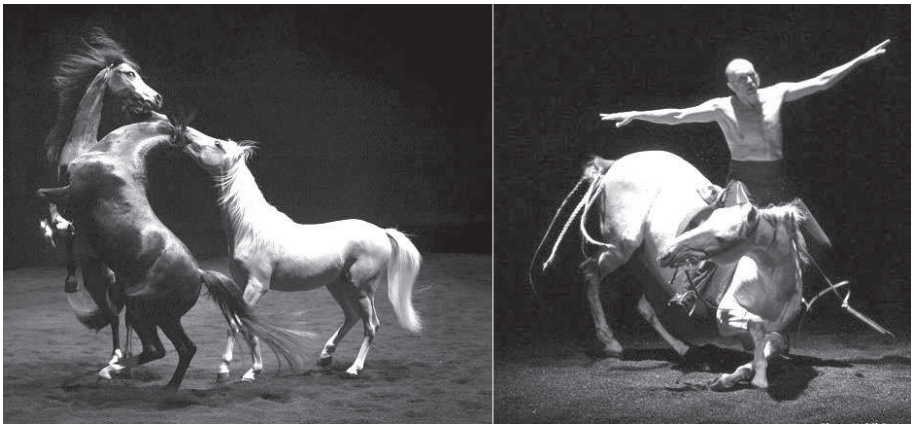

المخرج بارتاباس على ظهر الحصان يقدم لوحته والى اليسار مجموعة من الخيول تقدم لوحة راقصة

الأصيلة التي يقود فرقتها الموسيقية أربعة من قادة الأوركسترا متناوبين كل على موسيقى بلده، موسيقى يضبط إيقاعها بالطبلة أو المزمار من الصين وآيرلندا والهند وشمال اليابان، تواكب حركات الخيول وتغريبها فتثير المشاعر. تروح وتجيء معيدة للمرة الألف حكايتها الخالدة ومع ذلك يبقى الجمهور مستمتعا بباليه حياتها، مستشعرا فيما ترويه سر الحياة وروعة الخلق.

لكي تصل الخيول الى هذا المستوى توجب على بارتاباس وفريقه أن يقضوا ثمانية أشهر تقريبا من التدريب المتواصل، وطبعا مع ثمرة كل السنوات التي مضت، من الملاحظة ورفقة الخيول التي عاصر بعضها مغامرة مسرح زنغارو منذ البداية، العمل الفريد الذي بدأ بارتاباس مغامرته منذ 1984 ووضع تفاصيله في قلعة أوبرفيلييه التي شكلت حيز حياة ومشهدا ومختبرا بحثيا لم يكن له مثيل ولا سابق في استكشاف المعرفة المتبادلة بين الإنسان والحيوان.

———————

مارين دا سيلفا/ جريدة لومانتيه الفرنسية

شعر:

(هل أنت صدى؟) شعر ميسوزو كانيكو المفقود

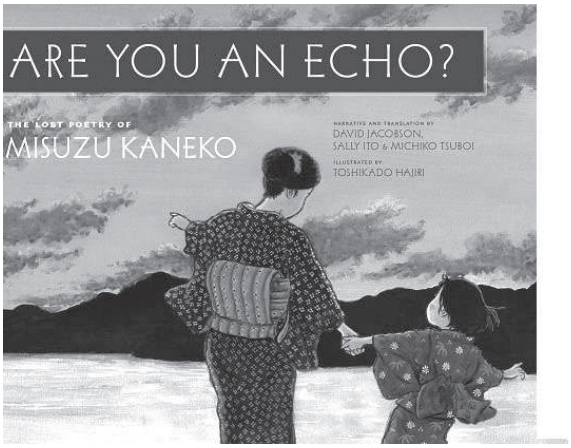

(إذا قلت: فلنلعب؟
تقول: فلنلعب!
إذا قلت: غبي!
تقول: غبي!
إذا قلت: لا أريد أن ألعب بعد!
تقول: لا أريد أن ألعب بعد!
ثم وبعد فترة أشعر بالوحدة فأقول: آسف!
فتقول: آسف!
هل أنت مجرد صدى؟
كلا، أنت كل واحد.)

هذه القصيدة التي كتبتها شاعرة الأطفال (ميسوزو كانيكو)، وهو الإسم الأدبي لكانيكو تيرو، تعبر عن التعاطف في عصرها المتأزم عندما كان الناس في أشد الحاجة الى التعاطف، أكثر من أي شيء آخر. في الثمانينيات أعيد إكتشاف المفقود من شعر اليابانية التي كانت معروفة جدا في عصرها، وقد نشر مؤخرا باللغة الإنكليزية تحت عنوان (هل أنت صدى؟ شعر ميسوزو كانيكو المفقود) وهو مزيج من السيرة والشعر الموجه الى الاطفال والمزين بالرسوم الجميلة، ويروي بنبرة حزينة قصة الحياة المبتورة للكاتبة ويضم مختارات من عملها بترجمات جديدة.

لكن خلف الرقة والأمل والتعاطف في شعرها تكمن قصة حياة تراجيدية. ولدت ميسوزو في العام 1903 وتوفيت في العام 1930 بعد أن إكتشفت خيانة زوجها لها فعمدت الى الإنتحار لكي تضمن حرمانه من تربية إبنتها. يبدأ الكتاب بسيرة موجزة للشاعرة مع قصائد كاشفة عن جوانب من حياتها ثم يجري الإنتقال الى شعرها

المطبوع باللغتين الإنكليزية واليابانية. إن الإبقاء على هذه المأساوية ماثلة في الأذهان ونحن نقرأ عملها يضيف بعدا آخر اليه ويزيد طاقته الشعرية قوة بحيث يتجاوز مداه جيل الأطفال الى أجيال أكبر، حتى الى سن السبعين، وليس فقط بوصفه شعرا موجها الى الأطفال. والحقيقة أن أكبر قوة في هذا الشعر هي محاكاته للطاقة اللانهائية للمخيلة الطفولية، وفي الوقت نفسه يسمح للأطفال أن يطلعوا على بعض التعاسات التي تملأ العالم، ويفتح حوارا مخلصا بينهم وبين ذويهم والناس. مع ذلك فغالبية القصائد في الكتاب تتصف بالتفاؤل، فلا السرد ولا الشعر يسقط في اليأس بل غالبا ما يوازن بين الحزن والسعادة كما في قصيدة (الشرنقة والقبر):

(دودة قز تدخل شرنقتها، شرنقتها الضيقة غير المريحة،
لكن على الدودة أن تكون سعيدة،
فسوف تكون فراشة وتطير بعيدا.
يدخل شخص القبر، القبر المظلم المتوحد.
لكن الشخص الصالح ستكون له أجنحة،
ويصبح ملاكا ويطير بعيدا)

بالنسبة الى كانيكو هذا هو جمال الأمل، حتى في الموت الذي ترى فيه مجرد مرحلة إنتقالية، ويتناول شعرها هذا الحزن بأسلوبها المميز، المشغول ببساطة محكمة تحفز التأمل، وبدون لغة معقدة أو بنية معقدة. هذا الأسلوب يضمن للقارئ البالغ أن يستعيد في داخله مخيلة الطفل الذي كانه، ذهنيته البكر التي لم تلوث:

(بعد النهار يأتي الليل. بعد الليل يأتي النهار.
أين أستطيع أن أقف من هذا الرداء الطويل، الطويل،
فأرى طرفيه؟)

ريد بارتولومو/ موقع جامعة أوكلاهاما

سينما:

الفيلم الألماني (ويسترن)

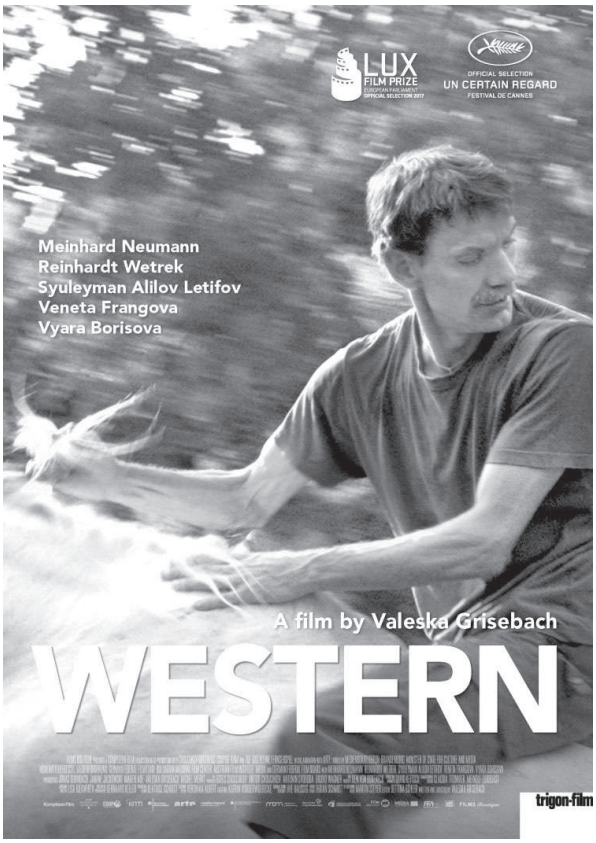

حتى بعد أسابيع من مشاهدة أحد أفلام المخرجة الألمانية (فاليسكا غريزباخ) يدهشنا شعورنا بأن شخصياتها تسكن فينا وتصرفاتها تحفر فينا أثرها. إن فيلم (ويسترن) هو ثالث أفلام المخرجة، فيلم عن رجال عركتهم الحياة تحت الشمس لاهبة الحرارة بخيولهم ونزاعاتهم والنساء اللواتي يطمحون الى الفوز بهن، ولكنه أيضا أكثر من هذا، إنه بحث يجري على أرض غريبة، على الحدود، بحث عن الذات، عن الثروة، عن الجماعة، عن بداية جديدة. كل هذا يدور بين عمال ألمان يمثل أدوارهم عمال حقيقيون أرسلوا فعلا الى موقع عمل على الحدود اليونانية البلغارية، ومن بينهم رئيس مفرزة العمال المولود في برلين الشرقية

والذي يدعى (فنسنت) ويعبث مع نساء القرية المجاورة ويرفع العلم الألماني على كوخه. في مقابل هذا الشخص يوجد منافسه المدعو (ماينهارت) ويمثل دوره (ماينهارت نيومان) الذي كان بائعا متجولا وقد التقت به المخرجة في سوق شعبية عندما كانت تبحث عن شخصية ذات ملامح بسيطة وجذابة في الوقت نفسه. عند لقائها به كان يعمل تحت إمرة فنسنت في موقع عمل خارج بلده لأول مرة. وهكذا مثل دور رجل تسكنه قوة مجهولة ينتظر شيئا ما من هذا المكان ومن هؤلاء السكان، يذهب اليهم ويحاول إقامة رابطة معهم، باللغة الألمانية وبإنكليزية ركيكة، وهو مسعى أثار نحوه طيبة زعيم القرية (أدريان)، وبعض النساء أيضا. هذه الحظوة لم تفت فنسنت فطفق يتساءل: هل يحاول ماينهارت تحدي سلطته؟ هل يستطيع النجاح دون أن يرفع أية راية؟

بخلاف ظاهرة الأفلام الألمانية التي تنتج بميزانية قليلة وممثلين غير محترفين فإن أفلام غريزباخ ليس فيها إرتجال أبدا، وقد تطلب فيلم (ويسترن) أربع سنوات من الإعداد، وكتبت المخرجة الحوار بتعاون وثيق مع الممثلين لكي تتوصل الى الحوار الأكثر صحة. هذا التعاون مهم فيما يتعلق بفيلم ويسترن حيث الشخصيات تجد نفسها وقد لجأت دائما الى وسائل إتصال إعتباطية، فالناس في القرية لا يتحدثون نفس اللغة التي يتحدث بها العمال واللغة الإنكليزية لا يتم اللجوء اليها إلا في حالة طارئة، فأية كلمات يمكن لها أن تعبر هذا الحاجز؟ وأية إيماءات مناسبة وأيتها غير مناسبة؟ هذا الفيلم المطبوع برجولة شخصياته، وطبيعة عملها وروابط القوة المباشرة هو أيضا إنعكاس لهشاشة اللغة ومساميتها وكما تقول المخرجة: في نهاية الأمر يظهر الفيلم شيئا لا أسميه بالضرورة باليوتوبيا. أنا مقتنعة أن الناس يمكنهم أن يتفاهموا.

حنه بيلارزيك/ مجلة دير شبيغل الألمانية

إصدارات:

حين نزل العمال الى الشوارع لإسناد الطلبة:
كتاب بمناسبة مرور نصف قرن على انتفاضة آيار 1968 في فرنسا

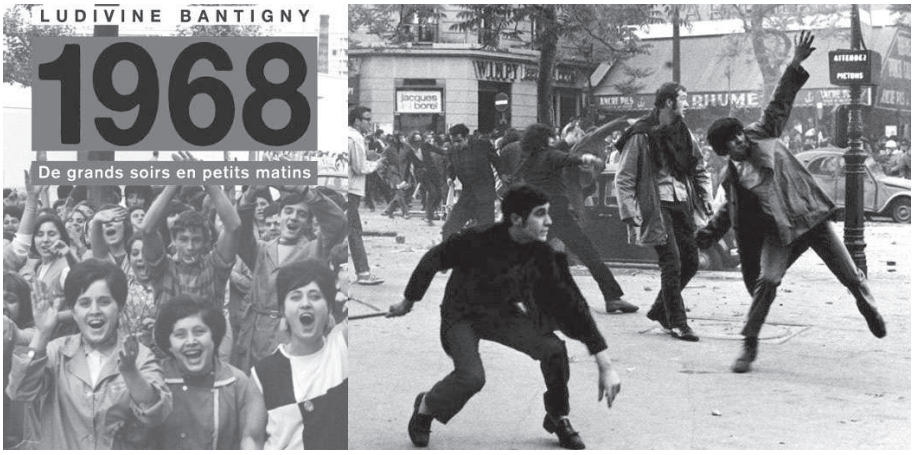

آيار 1968، جانب من اشتباكات المتظاهرين مع قوات الامن والى اليسار صورة غلاف الكتاب

(”في ليلة العاشر على الحادي عشر من أيار 1968 تفاقم التوتر بين الشرطة والمتظاهرين الطلبة حتى وصل الى لحظة التصادم وتم إعتقال عدد من المتظاهرين، وهكذا تجمع في الساعة السابعة مساءً 10 آلاف شخص، كثير منهم عمال، أمام سجن (لا سانتي) وهم يصيحون ”أطلقوا سراح رفاقنا“! فلما لم يجدوا إستجابة توجه الحشد الى سان-جرمان وصدرت التعليمات من قادة المتظاهرين، خصوصا من القائدين العماليين آلان جيسمار وجاك سوفيجو، بإحتلال الحي اللاتيني.

في حوالي الساعة التاسعة نصب أول المتاريس من الأثاث القديم وجذوع الأشجار وعارضات الإعلانات وسيارات وقرميد وغيرها. مضت ساعة وأخذت الأحداث تتسارع. قال القائد العمالي جيسمار وقتها في تصريح لمندوب إذاعي: ”أينما تحدث مواجهات بين متظاهرين وشرطة فنحن مع المتظاهرين“). مقتطف من الكتاب.

لقد تعرضت حقائق آيار 1968 الى كثير من التحريف والتشويه خلال العقود الماضية وبمناسبة مرور نصف قرن على الأحداث قامت الباحثة والمؤرخة والأستاذة الجامعية (لودفين بانتيني) بإصدار كتابها (1968، مساءات عظيمة في صباحات صغيرة)، قراءة إجتماعية وسياسية، وعلى كافة المستويات معتمدة على مصادر موثوقة وشهادات الذين لازالوا أحياء لتعيد بناء الصورة الحقيقية بكل

أبعادها. لقد سبق للمؤرخ الايطالي المختص بالثورة الفرنسية (هايم برستين) أن وصف إنتفاضة 1968 بأنها: "تجربة فردية للتاريخ في لحظة الفعل"، ما يعني أن الأفراد، الناس العاديين، أصبحوا هم الشخصيات الرئيسية عندما أصبحت حياتهم اليومية في مواجهة الحدث وأثارت فيهم الميل الى الإلتزام.

لطالما قسمت الأحداث الى مراحل ثلاث حسب الأدوار: الطلبة أولا ثم العمال ثم الشرطة. لكن الأراشيف توضح أن "ليلة المتاريس" حدثت في العاشر من آيار فيما تفجرت الأوضاع كليا في الثاني والعشرين منه، أي أن الفعل الرئيسي كان بمبادرة من العمال، وفي الواقع أنه كانت تحدث تعبئة منذ العام 1967 لتشكيل حركة تضامن بين العمال والفلاحين والطلبة، ومن جانب آخر كشف البحث عن أن كثيرا من النساء إنخرطن على أساس المطالبة بالعدالة الإجتماعية ككل وليس بصفتهن النسوية فقط برغم بعض الممارسات التي تركز على الصفة الجنسية.

عرض جريدة لومانتيه

(الى أولئك الذين جاءوا فيما بعد)
أغاني المقاومة في إسبانيا الحرب الأهلية

بعد ثمانين عاما تقريبا من نهاية الحرب الأهلية الإسبانية التي كانت بمثابة بروفة للحرب العالمية الثانية (حدث لأول مرة تدمير المدن بالقصف الجوي-م)، تبقى أغانيها تذكيرا ببسالة القتال ضد الفاشية إجترح مآثره رجال ونساء جاءوا من 50 بلدا وهم واعون لما يمثله الإستيلاء على السلطة من قبل شخص كالجنرال فرانسسكو فرانكو من خطر على السلام والتقدم العالميين عندما قاد إنقلابا عسكريا على الحكومة التقدمية الجمهورية الإسبانية بدعم من حليفيه الفاشيين هتلر وموسوليني، فهرع ما يقرب من 35 ألف شخص للتطوع في الفيلق الأممي لنجدة الحكومة الشرعية التي جاءت بانتخابات حرة وللدفاع عن الديمقراطية، ولقد لقي 750 من 2800 متطوع أميركي مصرعهم في ساحات القتال على الأرض الإسبانية تحت راية اللواء المسمى إبراهام لنكولن.

من بين الذين هبوا للدفاع عن الجمهورية، إسبانيون وأجانب من مختلف الأمم، كان يوجد فنانون ومغنون غنوا أغان في حفلات وطبعت أغانيهم في كتب وألبومات وقد سجل الكثير منها المتطوع المغني بيت سيغر** وناشطون يساريون آخرون والكل يتذكر نشيد المتطوعين الأميركيين الذي يقول: (إذا كنا سنغادر إسبانيا فلكي نقاتل في جبهة أخرى). قام بالتعقيبات التاريخية على الألبوم المؤرخ آدم هوشيلد، ويوجد أيضا مقابلة مع آخر المتطوعين الأحياء ديلمر بيرغ*** وضم الكثير من الأغاني التي تم أخذها من تسجيلات ومطبوعات سابقة منها أغنية غناها مغني المقاومة الألمانية أرنست بوش في معسكرات الإعتقال التي

غلاف الألبوم- المقاتلون الجمهوريون الإسبان يتوجهون للجوء الى فرنسا سنة 1939 يتقدمهم عسكري فرنسي من حرس الحدود*

أقامها هتلر للإشتراكيين والشيوعيين في العام 1933 وأعيد غناء الأغنية في الحرب الأهلية الإسبانية وقد أخذت هنا من كتاب (أغاني الشعب) الصادر في بريطانيا في العام 1948، وكذلك نجد بكلمات الألماني بيرتولد بريخت (أغنية عن الجبهة المتحدة) مأخوذة عن النص الإنكليزي في كتاب (أغاني الشعب... كلمات بقلم بيرتولد بريخت) 1937، كما نسمع أغنية شعبية كتبها الشاعر لوركا، و(الحرية) التي غناها المتطوعون الألمان فيما كانوا يدافعون عن مدريد، وتحولت الى أغان شعارات مثل (لن يمروا) و(الى المتاريس).

***(صورة غلاف الألبوم من الصور التي التقطها (روبيرت كابا) للمقاتلين الإسبان الجمهوريين المتوجهين للجوء في فرنسا وبلدان أخرى سنة 1939 وقد قاتلوا فيما بعد مع قوات فرنسا الحرة في الحرب العالمية الثانية ضد النازيين ويقول بعض المؤرخين أنهم أول من دخل باريس أثناء تحريرها بخلاف الروايات المعروفة-م).**

إستسلام مقاتلين جمهوريين على مشارف مدريد بعد مقاومة عنيفة ونفاد العتاد، وتظهر بعض جثث الفاشيين في الصورة

(كان بيت سيغر Pete Seeger الذي توفي في العام 2014 أحد المقاتلين وكان فيما بعد مشاركا دائما في الإحتفاليات التي تقام سنويا في نيويورك منذ 1940 تخليدا للأبطال المقاتلين والضحايا في الحرب الأهلية الإسبانية وله الفضل في حفظ الكثير من الأغاني والأناشيد بإدائها وتسجيلها في ألبومه الشهير في العام 1944 وساعد هذا، كما ساعدت الإحتفاليات والمطبوعات في تعريف الأجيال الجديدة بالموضوع. هذا المطبوع تسجيل للإحتفالية السنوية التي أقيمت في العام 2016 في قاعة الجمعية اليابانية بنيويورك. كتبنا عن بيت سيغر مقالا نشر في الثقافة الجديدة العدد 373 آيار -2015م)

***(Delmer Berg المقابلة قبيل وفاته وقد وردت سيرة موجزة عن حياته في الملف الخاص بالحرب الأهلية الإسبانية في الثقافة الجديدة العدد 384 أيلول -2016م)

بمناسبة الذكرى السبعين لنكبة فلسطين 1948

سرد:

كافكا ينظر الى ترامب والقدس

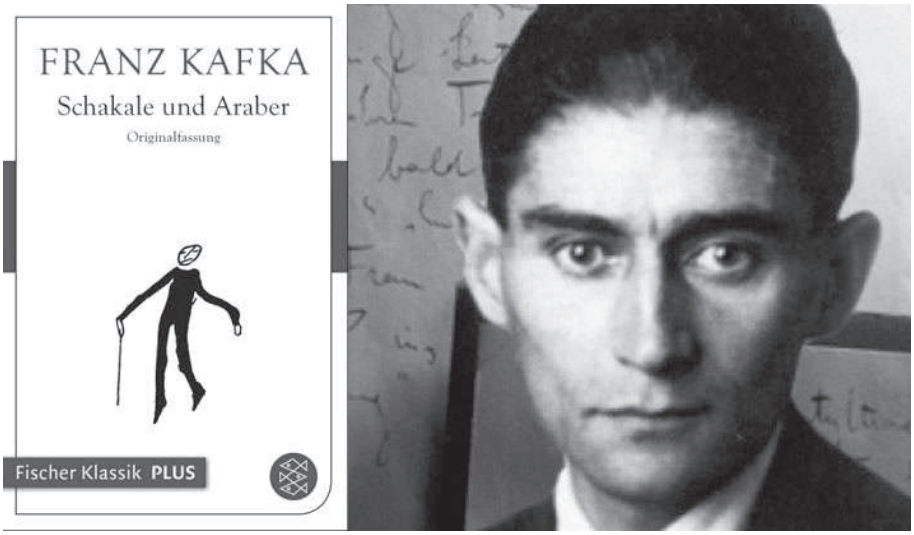

الكاتب فرانتز كافكا والى اليسار إحدى طبعات (بنات آوى والعرب) باللغة الألمانية

(نشرت المجلة السويسرية هذا المقال بمناسبة إعلان دونالد ترامب عن نيته نقل سفارة الولايات المتحدة في إسرائيل الى القدس وبمناسبة ذكرى النكبة 1948م)

هل كسبت إسرائيل بالإعتراف الضمني للولايات المتحدة بالقدس عاصمة لإسرائيل؟ بدايةً لا يوجد شك في هذا إذ أن ضربة البوكر للثنائي ترمب-نتانياهو جاءت في الوقت المناسب حيث إسرائيل في موقف قوة إزاء جيرانها العرب المضطربين بما يكفي ليقفوا عاجزين أمام الموقف الأميركي ما يجعلها قادرة على فرض أمرها الواقع.

لكن على مستوى آخر يوجد لدينا درس كافكا الذي كان يقيم علاقة متناقضة مع الصهيونية التي إكتسبت في زمنه شعبية واسعة في الاوساط اليهودية في وسط أوربا. هذا التناقض يتجسد في قصة

قصيرة نشرت في حياته هي (بنات آوى والعرب) طبعت في العام 1917 في أحد الأعداد الأولى لمجلة (يوده) المهمة في حركة التجديد الثقافي اليهودي تلك السنوات.

تتحدث القصة عن مجموعة من المسافرين وأدلائهم توقفوا للراحة عند واحة من الواحات. في الوقت الذي شرع الجميع فيه بالنوم يقترب سرب من بنات آوى منهم، وبدلا من أن يظهروا خوفا هللوا لمرأى بنات آوى وكأنها منزلة من السماء لتخلصهم من حيرتهم لأنهم كما يقول أكبرهم سنا لم يعودوا قادرين على مشاركة الأرض نفسها والهواء نفسه مع العرب الذين يسكنون المنطقة. إنه صراع إنبثق من عمق العصور وليس غير الدم من يضع نهاية له. تبدي بنات آوى لليهود استعدادها بأن تذبح لهم العرب، ولكن أحد سائقي الجمال يقوم، وهو يضحك، بطرد بنات آوى بسوطه واضعا نهاية لهذه الكوميديا. يشرح الرجل الأعرابي للمسافر أن العرب لا يخافون هذه الحيوانات المضحكة التي تعيش بجوارهم منذ الأزل ويتصدقون عليها بين الحين والآخر بعظام حيوان يذبحونه أو هيكل حيوان نافق يرمونه لها.

في سنة وعد بلفور 1917 الذي شكل أول إعتراف عالمي بحق اليهود في وطن على أرض فلسطين يوجه كافكا تحذيرا الى الصهاينة في كل مكان، فالقصة توحي بأن بنات آوى تمثل الصهاينة تمثيلا لا شك فيه، وإذا ما ساروا في الطريق التي أشارت عليهم بنات آوى بالسير فيه فلن يكونوا إلا بنات آوى حقا، وسيكونون علاوة على ذلك رهينة صراع من أجل الهوية التي تتشوه في الواقع وتتحول الى فخ. بعد قرن من إعلان بلفور ينزل مسافر من الشمال وهذه المرة أبعد قليلا الى الغرب ليوقع نفسه في الشرك.

غوتييه أمبروس/ مجلة لو تون السويسرية

معارض:

عبد الرحمن قطناني فنان فلسطيني يبدع تنصيباته بالأسلاك الشائكة

قطناني في مشغله

عبد الرحمن قطناني فنان فلسطيني يعيش في مخيم صبرا للاجئين قرب بيروت. عرضت في باريس من 2 كانون الأول 2017 حتى 14 شباط 2018 مجموعة من أعمال الفنان المعمولة من الأسلاك الشائكة والصفيح المضلع تحت عنوان (لب صلب). في الخامسة عشرة من عمره مارس الرسم الكاريكاتيري وأخذ يعلق رسوماته هذه على حيطان المخيم، وهي رسومات لم تكن تعجب الجميع، خصوصا بعض المجاميع المسلحة المتنفذة في المخيمات. بعد ذلك جرب مواد أخرى من فضلات الأعمال الحرفية يجدها هنا وهناك. يقول عن الأسلاك الشائكة أنها رمز لما هو موجود فينا جميعا وإن لم نتحرر منه فلن تتحرر فلسطين.

———————

بيير باربانسي/ جريدة لومانتيه الفرنسية

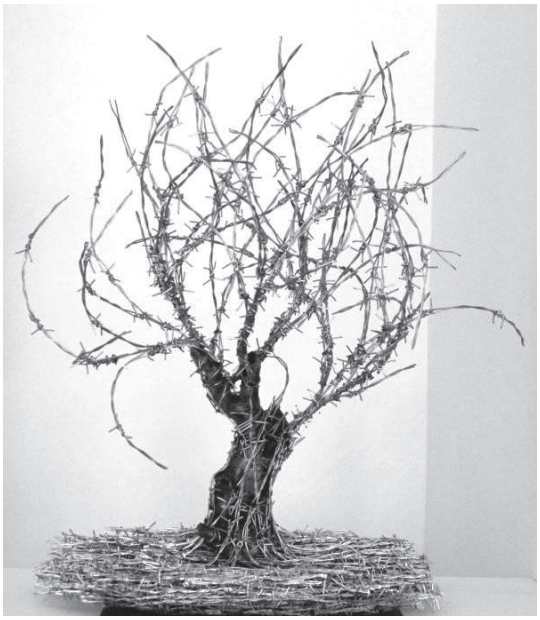

شجرة الزيتون بأسلاك شائكة

رامي الحجر، من الصفيح المموج، 2017

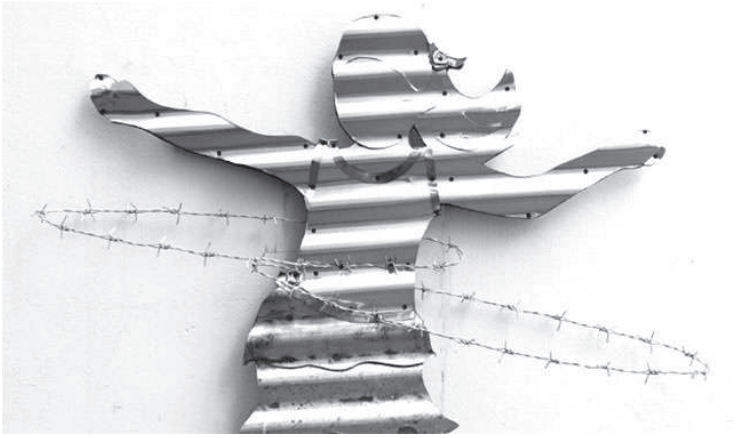

صبية فلسطينية تلعب (هيلا هوب) بأطواق الأسلاك الشائكة، 2017

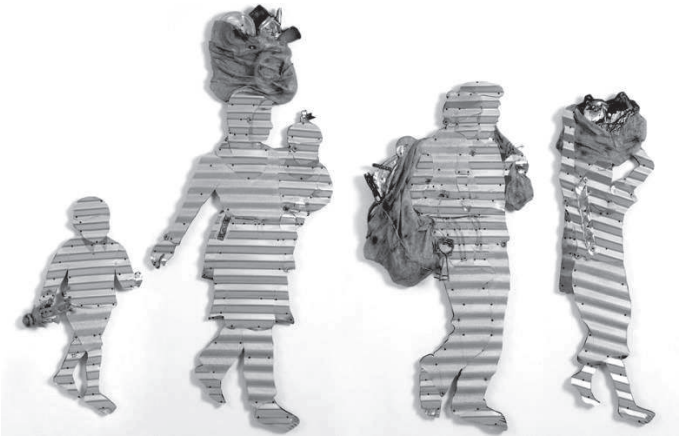

غائبون في قصر الملك

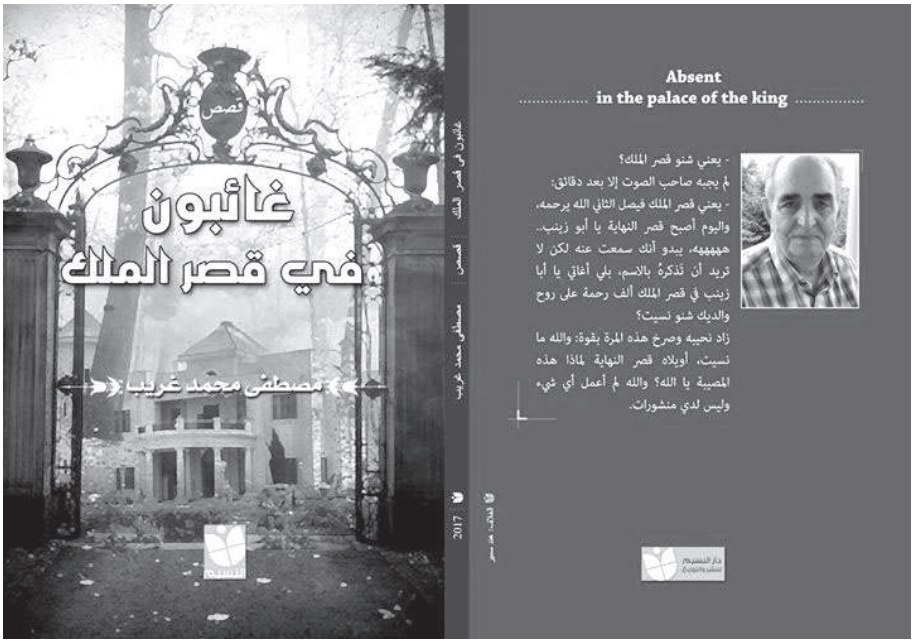

عن دار النسيم للنشر والتوزيع في القاهرة، صدرت للأديب مصطفى محمد غريب في تموز 2017 مجموعته القصصية ”غائبون في قصر الملك“ بـ 127 صفحة من الحجم المتوسط، وبغلاف عليه صورة قصر الرحاب الملكي في صباح ثورة 14 تموز 1958.

المجموعة القصصية تعدّ الرابعة له، فقد صدرت قبلها أربع مجموعات قصصية قصيرة وأربع روايات طبعت في سوريا ولبنان والأردن والعراق ومصر وتناولتها وسائل الإعلام العراقية والعربية، فضلا عن 13 مجموعة شعرية ترجم منها ثلاث مجموعات إلى النرويجية من قبل المكتب الثقافي اوسلو واوبلاند.

تحتوي المجموعة الجديدة على ست قصص قصيرة وقصتين قصيرتين جداً وتناولت مجموعة من المواضيع والأحداث العراقية في أزمنة مختلفة وبضمنها قصة ”صومعة طرطميس اللغوية“ التي تعنى بالتداخل ما بين نثرية النص والحوار الفلسفي كلغة تعقيدية في بعض الأحيان وهي حسب اجتهاد القارئ الذي تقع على عاتقه مسؤولية الوصول للهدف، فيما تكاد القصص الأخرى أن تختلف في موضوعاتها ما بين البحث عن الحقيقة

أو كشف الوجه الآخر للغربة والغربة الداخلية والاضطهاد الفكري والجسدي وسادية السلطة في شخوصها الموضوعة حسب التسلسل الشطرنجي، بينما تناولت القصتان القصيرتان جداً "التصريح والوصية" و"الرثاء" حالات المهجر ونهايته العدمية التي غالبا ما يتكلل بالموت السريري، فبطل القصة الأولى "ع.ر" عندما كان يسأله البعض من معارفه "- أبو حسين ألا ترغب العودة لبلدك العراق بعدما سقط نظام حزب البعث" فيجيب بقوة واستفزاز "لن ارجع والله لو أعطوني العراق ملكاً طابو رسمي" لكنه في آخر المطاف وأثناء احتضاره يقول "- وصيتي إذا متُ ادفنوني في العراق وهي أمانة في رقابكم" عند ذاك دفن حسب وصيتهِ.

أما بطل القصة الثانية المناضل الوطني "ع.ج" فيتمنى ويقول"- والله يا صديقي إذا سقط النظام عندي أمنية أن أعود ماشياً من الحدود إلى العراق وأن ادفن فيه بعد موتي" لكنه يدفن في المهجر ولم تتحقق رغبته بالمشي أو بالدفن.

وتندرج القصص المتبقية تحت طائلة العقد الاجتماعية التي تتحكم فيها الظروف القاسية في مجتمع محكوم بالعصي والرصاص والتعذيب والقتل في التغيب والإعدام والسجن والاعتقال الكيفي لسنوات عدة، فالمجموعة تنازعت للتسابق في تجسيد أحداث اجتماعية وسياسية وسرد نصوص تتمرجح بين الواقعية والرمز.

أما قصة "غائبون في قصر الملك" وهي القصة الرئيسة التي سميت المجموعة باسمها فإنها تتناول أحداثا تراجيدية بشكل تجريدي تقريباً، هي قصة محام سوي يعتقل في ظروف تكاد أن تكون نهجاً للوصول للأسرار حتى الشخصية، خلال سير القصة نجد تداخلات لشخصيات طارئة تدخل في صلب حدث الاعتقال الكيفي الترفيهي والمبرمج حيث لا تبتعد عن موضوعة قهر الإنسان وسلب إرادته وحريته وتكاد تستمر التفاصيل والتعرجات الى ما لانهاية وبخاصة بعد وصولها إلى الخاتمة، ونسوق المقطع الآتي مثالا لهذا التناثر في الأسلوب والحبكة القصصية:

"في إحدى حفلات الصيد الليلية المبنية على المصادفة، هكذا كانوا يطلقون عليها، عملية الصيد الليلي كانت بهدف التخلص من الكآبة والكسل والانتظار الممل، بعد منتصف الليل تم اصطياد رجل فقير قروي جاء من ريف العاصمة لزيارة ابنته وأولادها حاملاً ما يمكّنه على سند المعيشة وإذا بسيارة فولكس واكن تصطف بجانبه ويهبط منها جرذان القرض.

سأله أحدهم: ما اسمك؟.. في البداية تراجع قليلاً دون خوف وسألهم بشيء من الغضب: لماذا؟.. فصرخ به أحد الاثنين بعد أن وخزه بعصا مدببة كان يحملها فشعر بألم حاد وصعقة كهربائية ارتجفت يده من وخزتها: ابن الحيوان.. أسالك ما هو اسمك أنت، ألا تعرف من نحنُ؟

عند ذلك أحس القروي بخطورة الموقف، وبرهبة من كلمة "نحنُ" فأجاب مُقَطعاً:

ـ ككا كاظم أبو زينب..

جاء صوت أجش من داخل الفولكس واكن:

ــ هو!.. أليس كذلك؟.. نعم قد يكون هو

المطلوب، إجلبوه وسوف نرى.
تلقفوهُ بلمح البصر ولم يعرف أين أصبحت مشترياته الفقيرة ولا يعرف كيف وماذا يقول أو يسأل منهم وما هو الأمر غير انه وجد نفسه في المقاعد الخلفية محاطا بشخصين لهما رائحة روث الخيل، أغلقا عينيه وفمه بفوطة سوداء من قماش الكتان بعدما قام احدهما بالبصاق على وجهه وبصفع رقبته بقوة، ثم وشوشا معاً بصوتٍ واحد منخفض لكنه يدل على أمر نهائي:

ـ اخفض رأسك يا حيوان.. اسكت، اسكت ولا كلمة..

.....

قصر الملك هو قصر النهاية المرعب، و"غائبون في قصر الملك" هي المجموعة المميزة في التعبير والأسلوب والتي تكاد أن تكون نوعية في السرد والتداخل مع موضوعات عقدية في مجتمع سادته ممارسات القمع والاضطهاد اللاانساني لحقب طويلة، وسادته عمليات القتل والاغتيال وأضيفت الحروب إلى مأساته الشاملة.

نقرأ في أعدادنا المقبلة للأساتذة:

1 - آشور ملحم
2 - آوات حسن أمين
3 - أحمد خالص الشعلان
4 - د.أحمد مهدي الزبيدي
5 - باسم العودة
6 - د.باقر الكرباسي
7 - جواد وادي
8 - خضر خلف حسن
9 - سلام القريني
10 - سيامند هادي
11 - د.صبيح الجابر
12 - د.عبد الجبار بجاي
13 - عبد السادة البصري
14 - عبد الزهرة علي
15 - فاهم وارد العفريت
16 - قاسم شاتي
17 - د.نجاح كبة
18 - نصير الشيخ

مطبوعات وصلتنا :

• فاروق حنا عتو هبى، عنكاوا في ذاكرة أبنائها .مطبعة اكيلاإينك - اربيل 2017
• مذكرات نصير الجادرجي، منشورات دار المدى، بغداد 2017
• عبد الكريم كاصد، مهدي محمد علي مختارات شعرية - الروسم للصحافة والنشر والتوزيع . بغداد 2016.
• جودت جالي، جهات السينما الأربع (متابعات سينمائية) - ضفاف للطباعة والنشر والتوزيع - بغداد 2017.
• عمر السراي، وجه الى السماء نافذة الى الارض ،الاعمال الشعرية الى 2016.اتحاد العام للادباء في العراق 2016.
• عمر السراي، الهوية والشعر، دراسة في تجربة ألفريد سمعان - دار بغداد للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد 2016.
• عبد الأمير شمخي الشلاه، شذرات من مناهل المعرفة، دار الينابيع - دمشق 2017.
• علي عبد الأمير صالح، ثقافة واسط الماضي والحاضر ج1،ج2 - تموز طباعة نشر توزيع - دمشق 2017.
• د. حسن البياتي، الصرح الترجمي للدكتور علي جواد الطاهر.دار الفارابي، بيروت 2018.
• أ.د. ابتسام مرهون الصفار . مرهون الصفار شاعر الفصيح والعامي - دار الايا م، عمان 2015 .
• فاضل ثامر، التأريخي والسردي في الرواية العربية .دار الروافد الثقافية - بيروت 2018.
• فرات المحسن، كارل ماركس في العراق (رواية)، دار الجواهري للنشر والتوزيع، بغداد، الطبعة الاولى، 2017
• هاشم تايه،عادل مردان،واثق غازي - كتاب الجنوب (شعر)- دار شهريار، البصرة 2017.
• خديجة السعدي، ممرات العبور (نصوص شعرية) - الروسم للصحافة والنشر والتوزيع - بغداد2017.